فرسان الطريق

الجزء الأول

فرسان الطريق

(الجزء الأول)

تأليف

سليمان الشتيوي شفتر

عنوان الكتاب: فرسان الطريق (الجزء الأول)
تأليف: سليمان الشتيوي شفتر
رقم الإيداع: 2008/566
ردمك: ISBN: 978-9959-55-039-2 رقم المجموعة
ردمك: ISBN: 978-9959-55-040-8 رقم الجزء

جميع الحقوق محفوظة للناشر
حقوق الملكية الأدبية والفنية جميعها محفوظة لجامعة 7 أكتوبر
ولا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو نقله على أي نحو، سواء بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر خطياً ومقدماً.

الطبعة الأولى
2008 مسيحي

منشورات
جامعة 7 أكتوبر
الإدارة العامة للمكتبات - إدارة المطبوعات والنشر
هاتف : 2627201 - 2627202 - 2627203- 2620648
فاكس: 051/2627350
ص.ب: 2478
الموقع الإلكتروني: www.7ou.edu.ly
البريد الإلكتروني: info@7ou.edu.ly

تم تخصيص الرقم الدولي الموحد للكتاب من قبل :
الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب
دار الكتب الوطنية - بنغازي - ليبيا
هاتف : 9097074 - 9096379 - 9090509
بريد مصور : 9097073
البريد الإلكتروني : nat_lib_libya@hotmail.com

كتابات بعيدان الحطب

«الطريق طويلة .. منعرجاتها صعبة وكثيرة ومحطاتها مثيرة. عند بعض المنعطفات، أتوقف بعض الوقت رامياً الطرف بعيداً، متأملاً، مستعداً، لمشهد يشدني، حدث يأخذني، منظر يغريني، أو طلب يثيرني. إنها شبكة تواصل، منتدى تعارف ومقصد علوم.»

إني أعرف ما يلهث به صدرك، وما يلهج به لسانك.. تمادى الليل واقترب موكب القمر، وسكن كل شيء من حولنا...!

شجون الليل قد اختلطت بشجوننا .. وهذه الأجواء لا أدري بمَ تُفسر؟

وذاك الفارس الذي لم يترجل، لأنه من نخبة فرسان الشروق الواعد .. فرسان الجَمال هم عشاق الشعر وعشاق الغزل، وهم الذين يستحقون ديمومة الحياة! آثارهم دلت عليهم .. إنهم كانوا هناك ..

رجال نشروا النور وبنوا العماد .. زرعوا الجَمال وطافوا بعيداً .. ثم ذهبوا!!

ضياء النجوم

يمتد البصر سابحاً في هذه البرار الشاسعة والقفار الخالية. هذا الفراغ الصامت الذي لا يثيره إلا تموّجات الأنسام اللينة ودعاء الغموض، أو نقيق وغريد بعض الطيور المحلقة في السماء أو مشقشقة في أعشاشها. هذه هي اللوحات والنغمات المصاحبة التي تدفعني وتقتفي أثري وتؤنس ظلي وحواسي، وأنا أدّب على هذه الطريق منفرداً - وفجأة وأنا في غفلة من أمري، طاف بسمعي نهيق حمار يتردد من بعيد، كأنه نداء حالم جميل، أيقظني من نوم طويل - هناك وأنا في إعياء لاح للعين خيال..رجال وحيوانات تتحرك، وظل بارز مستقر يشبه الخيمة.

❁ ❁ ❁

- السلام عليكم ورحمة الله..
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. إيسارها يا ترّاس[1]- تفضل.. تقدم، راهي شحطة[2] قايله - نحن إخوه..ما تكبكبش[3].. الجود من الموجود - هيا توكل على الله..
- بسم الله.. وصلنا.. اللهم اجعلها أرض عمار وتربة جود وثمار..
- يا ستّار كل عوار - هيا خذ مكانك على هذه الغراره المفروشه..واتكى على هذه الحويّه[4].

خطوه عزيزه يا صاحب الطريق...

---

(1) تعبير عربي صميم - ويقصد به ترجّل عن فرسك يا رجل، نزول الفارس دائماً عن جهة اليسار - وهذا القول يدل على الترحيب والتفضيل - ويقال حتى على الراجل صاحب الطريق - تعبير جميل يختص به الليبيون.

(2) قيلوله شديدة الحرّ.

(3) لا تتردد ولا تخجل

(4) سرج الجمل.

- أعزك الله وأكرمك...
- هاهم أولادي وأحفادي جاءوا ليسلّموا عليك...
- يسلّمهم البارئ من كل شر..
- كانوا يذبحون خروفاً – جعل الله نصيبك فيه– اللهم أجعل رزقي حلالاً طيباً وباركلي فيه..
- ما شاء الله.. سادة أخيار في أرض عُمار.
- اللهم آمين – هذا ولد ولدي البكر – جاءك بها قسم الله لك..
- ما هذا يا صبي؟!
- قطعة من لحم الكتف ومثلها من الكبد، وكليه وقطعة من الكرشة مخللّه بسُلاّء.!!
- هذه عاداتنا عندما يَلْفىَ علينا ضيف.. هذا نصيبك من الشُّواء.
- ولكنَّ هذا كثير..
- رزقٌ ساقه الله لك وأنت في طريقنا..وهذا قدح من اللبن ونصيب من «خبزة المَلاَّله[1]».
- ما شاء الله... سبيل مبارك هداني إليكم يا أهل الخير والجود.

جلس مضَيفي بجانبي بعد أن شربنا الشاي الذي نضج على نار حطب السدر الفواح... وابتدأ حديثه عن الأرض وتأخر المطر، والناس تترقب العزيز[2] وتطلب منه الغيث النافع– هاهو نصف شهر من فصل الخريف قد مَرَّ دون سحابة تغير وجه السماء وتُلطف من حرارة الشمس النازلة على رؤوسنا ونحن في هذا البر الفسيح، ما عندنا ظل إلا هذه السدرات..منذ ثلاثة أيام نرجو في رحمة الله...!

- اللّي عند الله موش بعيد..لا تخف..الطبيعة تستجيب مخلصة لاستجابة ورغبات النفوس ذات الكرم والشهامة، وذات النيّة الطيبة.

بعد ساعة تقريباً، وفد على مقامنا ستة رجال، يبدو أنهم من جيران أرض مُضيّفي السيد عبد الرحمَن..ما كادوا يقتربون حتى أطلق أحدهم التحية.

(1) خبز يطهى في رماد النار – والرماد هو الملال – في اللهجة العامية.
(2) الله.

- «امقيّلتكم العافية يا جماعة».
- وجوهكم والملائكة..هيا تفضلوا..جوزوا..
- ها هو وصلنا..
- بدأتم في الحرث وألاَّ مازلتم؟
- بذرنا يوم أمس.. واليوم بدأنا.
- أنا في العشية إن شاء الله.. وعلى الله الكمال.

لم تنقض ساعة حتى جيء بأربع قصاع فيها بازين يحيط به طبيخ لذيذ مُفلفل ولحم على مفاصله يغطيه إلى أعلاه.. مأدبة فاخرة وجماعة طيبة.. أنسام نقية وجو هادئ في برّ فسيح يزيد من بهجة العين وفسحة الخاطر.

ما كدنا نشرب الطاسه الثالثة من الشاي، الذي أُعد قبل تناول الطعام، حتى قام الشباب بربط حبال المحاريث على ظهور الدواب وتركوها واقفة مستعدة. اصطف الرجال والشباب معاً على استقامة واحدة، خطى السيد عبد الرحمَن أمام الصف الناشئ، لفَّ قشطته[1] حول حزامه، لبس مخلاته، تعلقت عيناه بالسماء، وضع يده اليسرى على أذنه وكفه يحاذي فمه، وصاح يهاجي[2] بموال طويل مغمض العينين.. لا شك في أن خياله مسافر في الفضاء الغادي ينادي ويناجي البعيد، القريب الذي هو الله.

[3]لفـــى طيفهـــا .. يـــا علـــم ...
وفاحـــت ريحهـــا تـــسقي القلـــوب...
وامتـــدّ رداؤهـــا يغطـــي النجـــوم
وزلـــزل رعـــدها يخـــوّف الكائنـــات
وشـكع برقهـا رمَّـاش مـن ظهـرة البحـر

(1) قطعة قماش طويلة يتمنطق بها الرجل أثناء العمل العضلي.
(2) يتغنى.
(3) المؤلف.

وناداهـــا الـــترى حافـــل بجَّايـــات
وزغـــردت جنّـــات وادي التّقفْـــتْ
وتبـــاشرن بهـــا ســـمح القـــابلات
وجاهـــا الوجـــع في دفـــع هفهـــاف...
وجابـــــت عقـــــاب الليـــــل[1]
يـــا ســـاكن بـــين ضـــلوعي
درّج علينـــا غيـــوم الغيـــث
واســـقي زرعنـــا بـــماء كثـــير
وحالنـــا ظـــاهر لا يخفـــى عليـــك...

ما كاد ينهي موّاله الطويل المتردد حتى بدأ الرجال في حالة تأهب، بدأ التصفيق... يتحركون، يرفعون أرجل ويتركون الأخرى في تبادل وفي نسق منتظم جميل يصاحبه تصفيق يتناغم مع ترددات الأرجل وهم يهتفون ويكررون كل مقطع:

يا عَطّاي بلا مَنَّهْ أعطينا ونعطو مِنَّهْ
بسم الله عليه بدينا والصحة ها هي في ايدينا
يا الله ويا الله صب الغيث إن شاء الله
يا جُوَّاد جود علينا بامطارك فيسع اسقينا

وهكذا .. من شتّاوَه إلى أخرى وهم ذاهبون إلى مسافة ورائحين منها دون توقف حتى ابتلَّت جلابيبهم وقمصانهم بالعرق. عندها قال أحد الشباب: حسناً، لقد عَرقَتَ الجماعة.

انطلق «الحرَّاثه» إلى دوابهم، وبدأت «السكك[2]» تلثم الأرض المبذورة وتحفر أخاديداً في الترى..

(1) أمطرت.
(2) سن المحراث الحديدية التي تغوص في الثرى.

هبّت رياح الشمال، وصارت تلامس الوجوه وتنعش الأنوف.. ما كادت تغيب شمس يومنا حتى أظهرت كساءها وامتلأ الأفق مُزناً وغيوماً وسالت غزيرة من أول الليل، واستمرت هَملاً أربعة أيام..

قبل أن تأخذ الطريق وُجهتي وتُحصي خطاي عانقوني جميعاً، وعاهدتهم على تلبية طلباتهم ودعواتهم لي بإخلاص ووفاء.. أن آتى إليهم وقت الدرّاس لأن من يشهد الحرث لابد من أن يبارك أيام الدرّاس.. «لأنني رجل مبارك يحبني الله» هكذا قال فيّ ووصفني السيد عبد الرحمَن، وهو في موقف شجون واعتراف بظواهر الغيب.

بَرار مترامية الأطراف، آفاق ذات سراب موَّاج من شدة الحرارة ومساء داهم يحثّ الشمس ويحصر حدقة ضياء المغيب في لهفة متسارعة.. وذلك الرجل الذي يقف في الفراغ وتحيط به الحَيْرَة، وربما الخوف.

رياح ذات رمال تنفخ في جَرْدِه وتدفعه أحياناً خطوات إلى الأمام، كفه الأيسر فوق حاجبيه، وفمه منفرج لكي يركز النظر، ويدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار عسى أن يجد مبتغاه.. أو ضالته!

على حافة الأفق، ومن آخر الأشعة اللاهثة لقرص الشمس الراحلة للغروب، تراءت له قافلة بعيدة، مكونة من ثلاثة رجال وخمسة جمال مُحمَّلة، تدب غرباً على مرتفع كأنها من رسم الخيال. لَفَّ أطراف جرده إلى أعلى وخلع مداسه وجعلهما تحت إبطه الأيسر وانطلق يجري تدفعه الريح صائحاً ينادي: هَاوْ..هَاوْ يا أهل القافلة.. ترقبوني قليلاً.. أعانكم الله.

- يا جماعة!. يا جماعة!. إني أرى رجلاً يخفّ إلينا .. هَهْ اسمع صوته ينادينا.
- لا يهمك أمره.. لا أراه إلا من قطاع الطرق أو متطفلاً يدفعه الفضول والطمع.
- قادم وحده!. قادم وحده!.
- تُراه مُسلحاً وجماعته يختفون قريباً منه.. هيا لا تلقي له اهتماماً.. ولا حتى بالاً.
- يا جماعة!. قليلاً من الوقت!. ربما هذا الرجل في ضائقة لا يتمالك أمره.
- .....

- السلام عليكم يا أهل القافلة.
- وعليك السلام.. تفضل يا أخا العرب «منين من خوتنا» ؟
- من ظهرة الساحل... تعدت عليَّ الهاجرة وأنا في هذا الفراغ العاري، لقد شممتُ رائحة وبر جردي يحترق من شدة حر الشمس!
- يبدو أنك رجل لم تكن من أهل الخبرة.. من الذي جعلك فيها إذا كنت قاصراً عن تجاوزها؟
- الله..! العين ترى، واليد تعمل، والرِّجْل تمشي.. وأسرار الغيب عند الله.. إنها حكمة الحياة ومناهجها المتقلبة، إنه القدر والمصير.. أيها السيد ضمنت ما فات ولا تضمن ما يأتي به مستقبل الساعات والأيام!
- من أين!
- من أم الجرفان.. كنت على عهد مع عائلة السيد عبد الرحمَن.. وهم يحصدون زرعهم في منطقة «دفع هفهاف»، إنهم في صابة وافرة، كنتُ في ضيافتهم لمدة ثلاثة أيام.. أكرموني وزودوني بالهدايا الكبيرة من الحبوب حتى أخجلوني ولولا وفائي لهم بالعهد وعِلمي بما قدموه لي.. ما أتيتُ، لأني احترم واقدّر معزتي في ذاتي.. الله يجازيهم خيراً..
- كيف كانت قيلولتك؟
- انحدرت على رأسي الشمس، تساوت أمامي الأبعاد وتداخلت الاتجاهات، وضاعت مني الذاكرة؛ تشققت شفتاي، ولفح الحرّ الجارف جلدة وجهي.. فها كما تروْني لا أراكم الله إلا الخير..
- تفضل.
- شربة ماء، سقاكم الله من معين زمزم.. ... ...
- الحمد لله، تبددت هواجسي، شربت حتى ارتويت وأُطعمتُ من تمركم، وتنفست بملء رئتي، إن أولاد الحلال لا يخلو منهم مكان، ومن توكل على الله فهو حسبه.
- إنك صاحب بديهة نقية وموعظة وطرافة، نحن نُسَرُّ برفقتك إن لم يكن لك مقصداً ترتجيه أو هدفاً لا يتمشى مع اتجاهنا.
- على بركة الله، رفقة الأخيار بركة ملازمة وفضل ممدود وجود بلا حدود.

- أنت مازلت صغيراً في السن، من أين جئت بهذا الكلام الجميل؟
- حياتي متواضعة ولكن الله يهب الحكمة لمن يشاء من عباده.
- ما هي ملازم الحكمة عندك؟
- عقل ينبض، فكر يدْرك، عين تقرأ وتميز، لسان يعبّر.. هذا ما أقدر على تفسيره..

هبط الليل بظلام كثيف، تلألأت السماء بنجوم متوهجة، هدأت الرياح وتبدد في الفضاء سكون شاعري. ونسيم بحري يهب وينعش ويلطف حرارة النهار، إنها ليلة ذات نجوم ساطعة وحديث طيب متبادل. بين الفينة والأخرى يقف الدليل جانباً ليستطلع المكان بنظره وأحاسيسه ومخاطبة الميزان وزُحَل وسهيل ثم يعود إلى الثريا، آخر الأمر قال: «ذهبنا يا جماعة، هذا وطن لا أخبره، أكيد تركنا مَعْزَلَنا وراءنا».

- ماذا نفعل يا «تايب»[1] علي؟ انحطّ وإلا نرجع؟ ثلاثة جمال محملة بالغرائر الثقيلة، واثنان بشباك التبن.
- مسرب أولاد ديّار خلفناه وراءنا.. ها ها! كيف «اندیروا» الآن؟
- الأفضل أن نحط .. تعبنا وتعبت الإبل؟

هكذا أجاب أحدهم.

- المكان مجهول.
- ولكننا على الطريق.
- اللصوص وقطاع الطرق لا يعرفون للطريق حُرمة، إنهم يجوبون البادية في كل حين، قساة جردّهم الفقر والطمع من آدميتهم.
- إذا توغّلنا جانباً ربما نسقط في حُفَر أو نغرق في الرمال.
- «إسْ إسْ.. اسمع نباح كلاب تجاه هذا الصوب»
- آه ... ...لا شيء.. لا أظن أن هناك من يسكن.. إنه الليل والظلام والخوف.

(1) يا سيد.

- لننصت أكثر.. اصغ.. هَهْ..هَهْ!
- نعم.. نباح!! هل نتجه إلى مكانه؟..
- قلَّ ماؤنا ونفذ زادنا يا «تايب» علي، واليوم وغداً في مشيئة الله.. لا ندري.
- إنه آخر الليل، نحرم أهل الوادي من نومهم ونغشى هناءهم، ربما كلابهم طليقة العنان.
- المضطر لا يتعامل بالحجة با «تايب» علي، الصحراء واسعة وكبيرة، وأمور مثل هذه معروفة في البادية، هم لا يلومون تائهاً، ولا يضنّون عن جائع، على هذه السجية أنشأهم الله.
- هيا.. على بركة الله.. قصد النباح.

«شبطت»[1] الكلاب وركّزت وازداد نباحها، وأهل البادية يدركون درجات النباح ويميزون، هل هو نباح عادي، أم على حيوان، أم أنها تتخاطب مع إنسان.

لمحنا نوراً يومض من مصباح أو قنديل في خيمة، ثم سمعنا صوت رجل يتنحنح ويقبل نحونا بخطى وئيدة ويقترب قائلاً: من؟. من هناك؟.

- نحن.. السلام عليكم يا صاحب الوادي.. أهل قافلة صغيرة ضللنا طريقنا فالتجأنا إليك، فهل لديك متسع لنا- إن كانت «لا» فالنتولى أمرنا.. ونرجع!
- وعليكم السلام يا أهل القافلة.. تفضلوا..
- وصلنا...
- مرحباً بكم.. نحن أهلكم.. هيا «برّكوا جمالكم وواطوا».. إنكم أمام خيمتي.. وإنكم في أمان...
- «علاك الله وواط عدوك».

رجع إلى خيمته وكانت على مرمى قريب، سمعتُهُ وهو يحاور زوجته، والتايب علي أقرب مني إليهما..

- تِبْرْه.. تِبْرْه.. انهضي يا تِبْرْه، أمام خيمتي نفوس اطمأنيت إليها.. قافلة ظلت الأثر.
- نعم إني على صحو منذ النباح الأول.

(1) تركز النباح وتواصل.

- ضيوف حلّوا، لقد ذهبت بهم الطريق على غير هدىً عن مقاصدهم، إنهم في حاجة إلى الضيافة، هيا معي و أرني الموسى.
- عُجال... أنسيت ما عندنا في أول الليل؟ والله وهم على هذه الحالة من التعب لا يجدون أفضل ولا أسرع إلى بطونهم منه.
- ماذا يقول الناس عني؟ لا تحاججيني في أمر تفرضه بداهتي، ماذا يقول الناس عني؟
- خيراً.. خيراً يا عُجال، لا يقولون إلا أنك أجرتهم بصدر متسع وطعام كريم مقنع.

رجع إلينا وقال:

- هيا.. تفضلوا إلى الخيمة، ويأتي أحدكم ليساعدني.
- لقد ضاعف الله حسناتك، وفاض علينا كرمك وجودك.. والله لا نذهب إلا بشرط.. ألاّ تقدم لنا إلاّ ما هو موجود عندكم من أول الليل، كما ذكَّرتك محط مقامك ومثابة عزك.
- أَسَمَعْتَني يا رجل؟ شددت من همتي وفتَّرت من حماسي.
- هو النصيب المكتوب.. ويترقبنا.. هذا رزق طيب ساقه الله لنا.
- البارحة كان عندي ضيوف لم يرحلوا عنا إلاّ ليلاً.. هيا تفضلوا.. الجود من الموجود.
- ما شاء الله.. زاد كريم وخير وافر من الترِيد، شواء، جبن ولبن غزير.. وماذا بعد هذا يا عُجال يا أمير البادية وشجاعها؟ وتريد أن تذبح لنا إضافة؟!

تلوح إليّ من تلك العلا[1] ✯ ✯ عزائم عِزّ تناديها القِرى

- إني أحس بالتقصير و «مواطاة الرأس» .. مثل هذه لا تجري كثيراً يا أولاد بلادي، من واجبي أن أذبح لكم، ولكنكم قصرتم من واجبي وحدود ما عليّ، ورفعة شأني في نفسي.
- حاشاك الله من العيب، أنت من أهل الشجاعة والجود والكرم ومن الرجال الذين مازالوا يشدّون برباط البادية السخي بالمُثُل العليا ومكارم الأخلاق. إن الله يحبك يا عُجال، ليتني مثلك! إن الله يحبك يا عُجال، فهو الذي أسكنك في هذه المملكة الشاسعة وحيداً وجعلك عليها أميراً، فهو الذي يحرسك ويحميك وينـزِّل الأمن والطمأنينة على قلبك.. لأنه ليس هناك من يحل محلك إلاّ أنت!

(1) يذكره بجود وكرم العرب في الزمن القديم.

منيـــة

كنت متيقنة أن طريقي تحددّتْ وراحلتي توقفت.. وأنفاسي ودقات قلبي قد هفّا عليهما السكون الأبدي..

تريث قليلاً أيها الرحّال في أيام عمري!..

أيها الرحّال في طريق الله!. ما لي أراك مبحراً في تفكير بعيد؟!

تراها وقفة شك، لحظة مباهاه، أم أنها سهوة ضجر؟!.

أنت كبير!! أنت كبير كبر هذه الصحراء.. توغّل.. توغّل في غياهب الدنيا وأسفار المستحيل.. أنت رحّال في الفيافي ورحّال في القلوب.. ورحّال في الفكر الكبير..

نفذ كل ما زودني به أهل نجع جلاَّب من زاد وماء، وهذه آخر جرعة في مَطرَتي[1] يتلقفها فمي. الطريق الطويلة لا تجامل ولا تنقطع، لابد من تقدير المرحلة ومعرفة مقاصدها ومعانيها، لا ينبغي ترك الباطن لحاله والاستسلام للمجهول. ماذا أيها الجسد؟ ألم تتعود وتتعلم بعد؟ وتعرف كيفية دمج المعارف وحصر الألوان في موكب الأضواء وأنت تواصل الخطى تتحدى المسافات والأخطار؟. شعرتُ بالخفقان والوهن، واصفرّت الدنيا من حولي. سقطتُ على الرمضاء، تحول لساني إلى قطعة من الحطب، لم أحسّ بوجودي إلا بورود صوت إلى أذني يقول: «زده جرعة أخرى يا سعد، ولا تترك رأسه يميل منك إلى الخلف، إنه عطشان وسقط من الضحى الكبرى.. هيا لقد استفاق الآن، أركبه أمامك».

أخذتني الطريق معهم، إنهم أربعة فرسان يحيط بهم كل حُسن وحَسن، ويلبسون لباس الضباط الأتراك.

قرب المساء دخلنا قلعة بُنيت على مرتفع في وسط الفراغ ولا يحاكي ويناجي وجودها ووحدتها إلاّ نواح الرياح وانتقال الرمال أمواجاً في الفراغ المترامي، قلتُ في نفسي«ما هذا النُّصب العجيب؟! لا يكون إلا وكراً لأهل النهب والسلب وقطاع الطرق ومأوىً للزواحف السامة، والوحوش الكاسرة، والطيور الجارحة».

---

(1) إناء من المعدن، يسع لتراً من الماء، يضعه المسافر في خرجه أثناء السفر.

في اليوم التالي وجدتُ حياة إنسانية تدّب في وسطها، جنوداً وضباطاً، شئون إدارية، وقائم مقام له مكتب في أعلى القلعة.

لم تمض إلاّ أيام قليلة حتى تعودتْ قدمي على الحركة ولم أجد حرجاً في الدخول إلى أي مكتب والدخول مع أصحابه في محاورات وقضايا اجتماعية هامة، ودور الناس في تقدم ظروف حياتهم أو تأخرها، ومحاولة خلع وتفتيت العادات والتقاليد الضالة الصماء التي أعادتها وفرضتها الجاهلية القديمة من جديد، سلوك يهدّم ولا يعمّر.. ولكن الأتراك لا يريدون ظهور هذه الأفكار إلى السطح وطرحها للجدل لأن فيها فساداً لأوضاعهم السياسية والاجتماعية والفكرية.

عند نهاية الأسبوع صعدتُ إلى أعلى القلعة، واستقبلني الباشا قائم المقام، تركي ذو شخصية متميزة، يجلس وراء مكتب فاخر عريض ذي نوافذ كبيرة تطل على البّرار الواسعة والصحاري المترامية. ابتسم في وجهي وقام فصافحني وقدم لي مشروباً بارداً مُحَلَّى بالعسل ومُعَطر برحيق الورد، طرحنا بساطاً من الحديث وأشواطاً من الكلام..

- أنت صغير في السن وكبير في الفكر، أنت متعلم ومتفتح، هل تقبل التوظف عندي لتعينني على شئون هذه المنطقة؟ إن الجبل الغربي كله تحت حكمي، كذلك نحن نساعدك فيما تطلب وفيما نقْدَر عليه.
- بكل قبول.. لا أمانع يا سيدي الباشا!
- هل أنت حضري؟
- ريفي يا سيدي المراقب، وسكني بجانب البحر، على ظهرة عالية والبحر يعطي ولا يأخذ.
- هل تجيد اللغة التركية؟
- ليست متعمقة ولكني أتحاور بها في المحادثة السهلة.
- ما هو عملك؟
- جوال.. يأخذني درب ثم يرميني إلى آخر..
- ها.. ها!! من يصدق هذا؟ وما تعطيك الدروب؟ هل تكفيك وجباتها وتشبع؟!
- لم أَمت جوعاً أو عطشاً، الله يرزق الناس على مقاصد نفوسهم ونواياهم ونياتهم وصِدْق

ما عاهدوا عليه!

- أنا لا أفهم هذا.. ما هو هدفك الذي تسعى إليه؟
- تقصِّي أحوال الناس وكتابة أخبارهم وحكاياتهم وإمام متنقل أرشد من غفل عن ذكره..
- من كلفك بهذا؟
- جدي.. إنها من أفكار جدي، جدي رجل محبّ، يحب أهل وطنه، ويحب العثمانيين، ويحب الجديد والتجديد.
- إن كنت لا تكذب.. فإنك الرجل المفاجأة، دع عنك ما قاله لك جدك، ذلك متعب وخطير وممنوع في نفس الوقت. أعمل معنا أفْيَدْ وأضْمَن لحياتك!
- ما هو عملي يا سيدي الباشا؟
- ساعدني في جمع «الميري[1]» من بعض النجوع والقبائل المتشددة مثل قبيلتي بني صوان وبني ركبه.

(1) الخراصه - الضرائب.

بعد نصف شهر تحصلتِ القلعة على ما تريد من أهل تلك القبائل من غنم وزيت وسمن وحبوب – وحتى العسل.

دعاني نائب المراقب، ذلك الضابط الشهم الذي أنقذني من الموت عطشاً وجاء بي إلى القلعة، قال باسماً وهو يصافحني:

- صرت واحداً منا أيها المتشرد! نجازيك كثيراً على تعاونك معنا، بهذا العمل الجيد شرفتني أمام الناس والمراقب.. أبشر، نزودك بكل شيء.
- هذا بعون الله يا باشا.. نظرتي المتأملة وإخلاصي وصدق ضميري، وأنت كذلك يا سيدي أنت رجل حيّ وصاحب أنفة ومروءة – إني أضيف لك عَلَماً خفاقاً لمكانتك.. أنا فوق الحدود، وأقدّر الشروط. أمي الطريق ووظيفتي التنقل وركوب الأسفار. وأتمنى أن يكون كل جديد وطريف تحت حواسي، كل ظاهرة تستوجب التحليل وكل حركة، عِلمٌ- والإنسان خُلق ليقرأ ليطرح القياسات ويستشف المضامين ويحدد المعايير.
- لا أفهم ما وراء الذي تقوله...
- كل راع مسئول عن رعيته- من هو الراعي؟ ومن هي الرعية؟ وكيف يكون الراعي؟ وكيف تكون الرعية؟...
- أيها الرجل أراك تثيرني بأسئلتك؟! فهل أنت حقاً من هذه الطريق؟...
- إنها نبش على أرض بور.. فهل يصيبها وابلاً بعد عطشي؟...
- وأنت أين رعيتك؟
- طالما إني موجود فأنا راع.. وطالما إني أتحرك، فمدى رعيتي لا تحدد... إنها مسئولية وأمانة

يا باشا.. اعتبر الأخذ بأيدي الناس أمر ليس هيناً، يا باشا والتعدي على الحقوق وظلم الضعفاء محاور تراها بعيدة عن المكارم، لقد سمعتُ الذي لا يرضيني.

- طيب.. طيب.. كم تطلب على هذا العمل؟
- خيراً يا باشا.. ثلاثة من الفرسان وأنا من بينهم، هناك قرية صغيرة ظالمة.. نحو هذا الصوب، أريد أن أؤدبها لأنها تعيش قصة تمرد على حقوق الله إذ أنها غزت نجعاً بعيداً عنها وسلبت أمواله وربما قتلت وهذا لا يجوز شرعاً، هل سمعت بهذا يا أفندي؟!
- كثيراً ما تتضارب الأخبار عن مثل هذه الحوادث، خصوصاً في سنوات الجذب أو مواسم الحرث، في هذه الأيام.. لا.. ما سمعت، ولكن ما هو نوع هذا التأديب؟ هل تريد أن تغزو وتسفك الدم؟ هذا لا يجوز!
- (فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله) صدق الله العظيم.. لا يا باشا، بالمعاملة الطيبة والتراضي بالحسنى- كما فعلتُ من أجل القلعة في جباية ضرائبها وخراجها- اللسان الحافل والبيان الجميل يا سيدي هما الحكم للحجة.
- وإنْ بغت ولم يظفر لسانك بشيء؟
- هناك تأتي الحجة الساخنة!
- من أخبرك عن هذه القرية الظالم أهلها؟
- أحد الرعاة، كان قد مر بها وسمع تفاصيل أخبارها. لم يترك الغزاة حتى قدور الطبخ وقِرَب مياه الشرب! لا أزيد أكثر من هذا يا سيدي.. إني في عجلة من أمري.
- شأنهم ليس عليك.. لِمَ لا تهنأ وتستقر؟
- هناك من يتلهّف عطشاً، ويستجدي نجدةً وعوناً، فهمَّتني يا سيدي لا تستقر، وأشعر أني مفرط في حدّ أو حق من حقوق الله.
- أنت صرت واحداً منا - وهذا من صميم عملنا- ستكون في مرتبة الأمير وهيبة السلطان وسط جنودك وفي عيون الناس، سأوزع الواجبات وأقدم لكم أحدث البنادق «الموزر» السريعة الطلقات.
- على بركة الله.. على بركة الله وعوْنه.

حلّ المساء.. قرب ظلام الليل وعلينا أن ننـزل ونبيت عند هذا المرتفع.

- ما أسم هذه القرية يا سعد؟

- وادي عيَّاط.

- ها هو الظلام قد خيم على دوُرهم، تُرى ماذا في نفوسهم؟

- تنقصني الخبرة عنهم يا صاحبي.. قرى ونجوع جرفها زمن النسيان وتوارت خلف سراب الصحاري، فماذا ترى منها من خير إلا التوغل في سطوة التخلف والجذب الفكري والمعرفي؟ يأخذون ولا يعطون، تسمع منهم ما تكره، وإنْ أطلت الوقوف عندهم دفعوك خارجاً!

- لا يا سعد.. قبل أسبوعين مررت بتجربة كلها خير «عُجال و تِبْره».. إن الأمطار تصل أحياناً إلى هنا.. ورحمة الله واسعة.

مرت بنا عدة قطعان من الغنم يقودها رعاتها وقد جاء ثلاثة منهم يستقصوا أحوالنا ومعرفة من نحن، وعندما فهموا أننا من أهل القلعة انبسطت وجوههم وتبدلت لهجتهم ودعونا إلى قريتهم، ولكنْ سعداً شكرهم ودعا لهم بالخير.. ما كادوا ينجرّون بعيداً عنا حتى قمنا وغيّرنا مكاننا وتوارينا عن العيون، لأمر أُحس به في نفسي.. القاضي لا ينبغي له دخول بيت كل من ابتسم وأحنى له رأسه، ولا أن يطلق عنان شهية معدته لطعام يُقدم إليه–حتى لا تضيع مقاصده النبيلة ولا يعرف على من يقع حَدَّ القصاص. مهما يكن من أمر فإن قرية وادي عياط ليست هي القصد. ولكن لابد من هذا السند – في أي موطن، ومع كل الظروف– والحياة سُنن علينا أن نعرفها ونبحث عن التي نجهلها.

غلبت الضياء وانتشرت، إلاّ أنّ الشمس لم تَبْدُ، عندما استيقظنا على صوت صياح توجّع وبكاء واستجداء!

- ما هذا؟ سعد.. هل استيقظت؟

- بل كنت أشاهد ما يجري، امرأة تصرخ وتبكي وتتألم وجعاً وتطلب السماح والعفو من رجلين أحدهما يجرها بحبل مربوط برقبتها ويدْيها، والآخر يضرب مؤخرتها بعصا كلما توقفت عن السير، أو حاولت الإنفكاك أو الجلوس من أثر ضرب العصا والجذب من رقبتها. تعالوا شاهدوا معي واسمعوا..

- «سامحني يا بوي.. سامحني يا بوي الله يسامحك.. الله يجازيك لا تقتلني.. أنا ضعيفة ومريضة أرفق بحالي الله لا يجازيك على أمور لا تقدر عليها. بالشّوَيْ.. بالشوي».

- خلاص يا هنية هذا حد عمرك، سألتُ الشيخ وقال لي هذا يجوز لك، هذا عار لازم نضعه في حفرة ونردمه بالتراب، «شي يقول الناس عليّ وعلى عائلتي؟ توا الناس لا تبطل ولا تسكت.. يا ريتك مُتّي من زمان».

- ياريت.. ياريت أمي طرحت ولا جابتني ولا شفتُ هذه الحياة الظالمة.. كلها عرعدة[1]، قسوة، وأخطاء تقع، ينجو منها القوي ويحاسب عليها الضعيف وموت رخيص كما تذبح النعاج.. ياريت هلكني الطاعون وإلا الجذري ومتُّ من زمان!

- ساعة واحدة ثم تذهبين إلى الله.

(1) قسوة، تعب، حرمان.

- الموت حارَّة.. الموت حارَّة يا بوي.

- «رغمدْتي وجهي بالعار ومسّختي سمعتي بين التريس، لازم من دفنك في التراب».

- الله!! الله!! يارب صبرني على بلواي.. يارب أنا أناديك أطلب رحمتك.. أطلق سبيلي يا بوي وخليني نمشي وانضيع في أرض الله.. نَجَاتَكْ فيها يا بوي، خود بخاطري يا بوي.. وليَّهْ تتضرع إلى الله!

- الموت أسْتَر لك، كلنا «بنموتو».. لو كان ما نقتلك اليوم كيف أواجه الله غداً؟ أنتِ عار، أنتِ دَنسْ لا يتم غسله وتنظيفه إلا بعد دفنه!

- ظلمتوني يا بوي.. الله يجازيك يا بوي.. الله يجازيك يا ولد الشيخ.. أنت.. أنت.. آي.. بالشوي.. بالشوي.. ياعليوه.

- توّا عرفتي ولد الشيخ! لكن في الأول نكرتي، عرفتي ولد الشيخ.. وعرفتي هو راجل وانتي مرا!

- آي.. ووه.. واي.. بشويش يا خوي علي.. عصاتك مزّقت وهشّمت لحمي، ليه هذا؟ مش أنت خوي؟ مش كنت اندسلك في الحاجات؟ وقداش مرة نعطيك في لحمتي بيش تأكلها.. آي.. ما هذا العذاب؟! الله!! الله!! هيّا معادش نقدر نمشي.. هيا اذبحوني حتى هنا! الله.. الله!! عوضي على الله.. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

تهاوت.. وارتمت على الأرض.

- لا.. قبرك حفرناه في البطحاء عند قدم الكثيب حتى تسفيه الريح وتطويه الرمال وتمر من فوقه القيزان.. اضرب، اضرب يا علي، اضرب بقوة حتى تنوض وتمشي.. هيا ما عادش فيه وقت.

قام سيد الطريق، نظر إلى الأفق وهو يشاهد نصف الشمس الصاعدة من عالم الغيب وكأنها عين ترقب وقال:

- لا إله إلاّ الله.. لا إله إلاّ الله.. هو الأول والآخر.. ما أعظمك وما أوسع رحمتك. أسمعتم

ما يجري بالقرب منكم يا جماعة؟ وشاهدتم كيف أن الله يبدي الخلق ويشعشع نوره ويملأ الدنيا ضياءً وبهاءً وحناناً.. ورأيتم وسمعتم ظلم بني آدم لبني آدم.. وطلعتِ الشمس، ومن الشمس تأتي الحياة، إن الجماد يرتجف خوفاً.. فكيف يكون ذلك الذي من لحم ودم؟ إن الله يوزّع ويوسّع الأرزاق، والأبناء من نِعَم الله، فكيف نفرط فيها ولا ندرك سمو المعاني وأعالي القِيَم.. يا جنة الله لا تظهري ويا جهنم اقتربي وازأري وخذينا، لقد تخلى بني آدم عن ثوب الفضيلة ولبس قشيبة العهر وخرجت كواسر الغابة تنذر وتصرخ من تصرفات الوطايا! يا أحمد، يا رفعت.. أطلقا وجهاً وجهاً[1].. واحد فوق رؤوس هؤلاء الظلمة والآخر عالياً صوب القرية.

انطلقت الرصاصتان في آن واحد فوق رؤوس هؤلاء وزاغتا تجوبان الفضاء الواسع وتنشران دوياً صاعقاً يتبدد في الفراغ ويفلق السكون الساجي والركود المميت، فألْجم كل ناطق وأوقف كل حي يتحرك.. عدا الكلاب التي ازداد نباحها. عيوننا على الثلاثة وهم في حيرة المفاجأة وفي ذهول غريب.

- أحمد.. رفعت.. زِيدَا من الرصاص، ثلاث ثلاث في الفضاء العالي... الله أكبر... الله أكبر ولا إله إلاّ الله.. لقد زاغ السحر وتراجع الخوف وعمّ الضياء.

(1) الوجه = الإطلاقة.

خرج عدد من أهل القرية يمشون بتوجس، خوفاً من دوي آخر أعنف وأشمل، وربما فيه الهلاك، تراهم يبحثون عن سر هذا الصوت اللعين، في هذا اليوم الصحو المشمس، وماذا يعني؟ لا سُحُب ولا برق ولا رعد!

- الآن إطلاقتان من كل البنادق في اتجاه القرية.

انطلق وتصاعد ذلك الدوي، لم يكن إلاّ زئير مدفع، أو قصف رعود مخصبة.

توقفت الفتاة عن الهذيان والبكاء وهرب الابن عليّ راجعاً، أوقفه سعد وأرجعه إلى مكانه وهو مذهول يرتجف لا يعي ما يرى، وأرخى الأب الحبل من يده، نفض يديه وعيناه تبحلقان في وجوهنا خوفاً واستغراباً. اقتربنا من المشهد.

- انظر يا صاحبي.. الله! ما أجمل هذا الوجه وما أروع هذا القوام! عينان مستنجدتان ونظرة خجولة! دموع تنهمر!

- ساعدها على الوقوف يا سعد وخذها إلى هناك، واعتني بها وقدّم لها الماء.

- دم غزير.. إنها تنزف دماً «مبسّس» على ردائها من مؤخرتها، يا للهلاك والفظاعة، يا للبشاعة والانحطاط.. هل مازالت أبواب السماء مواربة لم تُغلق؟! هيا اغسلي وجهك.

- يداي لا تقويان على الحركة، إني متهالكة يا سيدي، اسقني فقد جف جسمي.

- أسقيك، وأغسل وجهك إذا...

- ثبت الله أجرك وأعانك على كل مكروه.. الآن اتركني لنفسي.. لا أقوى على الجلوس، أريد أن أتمدد وأسوي من وضع ملابسي، تغلب الألم على شعوري.

نظر الصاحب إلى والد الفتاة بعين متأملة متألمة وملامح وجه به حسرة، قائلاً:

- من أنت؟
- خليفة الزردومي.
- وتلك؟
- بنتي .
- وهذا ولدك طبعاً... وأنتِ يا أختاه ما هذا الدم الغزير النازل من جسمك؟
- إنه من عصا أخي وحبل أبي الذي كان في رقبتي، ضربني حتى قطّع لحمي.. أنا غير قادرة على الجلوس يا سيد التريس.
- «قعمزي» يا أختاه.. لا، لا انطرحي أفضل.
- إنها.. انظر إلى وجهها يكسوه الخجل لا تريد أن تنطرح وتمتد بيننا! سعد ساعد الفتاة على تعديل ردائها، واغسل يديها من الدم وزدها من الماء.. لا أعرف لِمَ هذا يا تايب خليفة؟ هل ترى ضياء الشمس، وهل تحس بحركة الحياة في الكائنات؟ لا.. أكيد لا! ليش عملت هذا يا تايب خليفة؟ هل سمعت باسم يُذكر اسمه الله؟ ليش عملت هذا؟

اضطرب وارتعش وقفز مفجوعاً من الخوف وحِدّة الصوت وأجاب مبحوحاً:

- شِنْعِتْ.. شِنْعِتْ.. عيب أن أقول لك إنها شِنْعِتْ!
- ما أجمل هذا الوجه، كيف يتمرغ في الأوحال؟ أكيد لا يوجد هذا الأمر إلاّ في تفشي علل لا تسري إلاّ في الليل.. أيها الرجل لا أعرف ما تقول!
- تزوجتْ منذ أسبوع.. اكتشف زوجها أنها ليست بكراً، وحين جئنا بالقابلة صدّقت ما قاله العريس! خانت، شوهت سمعتي ومسّخت شرفي.. يجب دفنها.
- بنتك عاملتها هكي ومازال عندك وجه شرف؟ ماتت حيثيتك يا سي خليفة.. أنت لست مسلماً. هل ترتاح لموتها بهذه الطريقة؟ حرام عليك يا رجل ولحيتك يتناثر عليها بياض الشيب، تهدم حقاً من حقوق حياة الإنسان! وستكون لعنة على الناس الذين أنت منهم في كل خطوة تخطوها.. أراك تتغير، طلعتْ على وجهك نار جهنم!!
- وين ما سمعتها حسيت بالنار تأكل فيّ.

- سمعت بماذا؟

- شِنْعِتْ.. وعوّرتني بالعار..

- وهذا الذي تفعله أليس عاراً وانتهاكاً لحرمة الله فيك وفي ابنتك؟

- هي ابنتي من لحمي ودمي ولا أحد يشاركني فيها.

- يا الله!! الناس غادروا منطلق الرؤية وتركوا سُبُل الإسلام بعيداً.. اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

- لست أنا من سَنَّ هذه العادة، كل الناس تعمل ما عملت وقت حدوثه، وإني أعرف عائلات كثيرة!

- ما أهون الحياة عندكم أيها الأشرار.. أيتها الفتاة الجميلة، أبوك وأخوك يريدان ذبحك بدون وجه حق.. ولكنّ الله نجّاك من شرهما، والآن يا فتاة الخير ما تَرَيْنَ في أبيك وأخيك؟ أنا حاكم القلعة وروحهما في يدي، كلمة من لسانك تُنهي كل شيء، هيا مُري، اضغطي على الزناد فإنه يستجيب!

تنحنح الأب وجحظت عيناه واضطربت يداه!

- خُفتْ يا شيبة النحس وين ما وصل الحبل في رقبتك؟ الموت حارة..!!

- عندي عيال صغار يا باشا.. العفو، العفو يا باشا، تَوَّا وَلَّى عليّ خاطري.

- لقد تم كل شيء.. والتنفيذ على طرف لسان هنية، إنكَ جبان ولست برجل، تَرى الموت صعب عليك، عليك أن تقدِّر أنه صعب على الآخرين، الحياة هبة الله لعبده لا يجب التفريط فيها بدون وجه حق.. هيا واحد منكما، إمّا أنت وإمّا ولدك، هيا بسرعة قبل أن تراك الشمس وتلعنك أكثر.

- يا باشا قلت لك إن عندي عيال صغار يحتاجون إليّ وأنا كبير في السن.

- هنية.. هنية، مازلتِ لم تهدئي بعد؟. هل سقيتها الماء يا سعد؟

- إنها تتحسن وتستقر بالتدريج.. لقد أدركت ما حولها.

- هنية.. إن أخاك وأباك سيموتان في نفس المكان الذي كنتِ ستموتين فيه!

- لا يا سيدي.. لا.. أخي علي هو أصغر شقيق، ما زال لم يَرَ الحياة بعد، وأمي تحلف برأسه، أتمنى ألاّ تمسه بسوء، لقد سامحته، أما أبي.. الله يسامحه هو أيضاً! أبي يا سيدي الباشا ركب ظهر الشيخوخة، ومهما يكن إنه بوي وعن طريقه دخلت حياة الدنيا، لا أريد له ضُراً ولا سوء.. كلما أراجع نفسي، أنا الجانية! ألا عيب الدنيا وصياح الشيطان يعميان العيون، والعادات الظالمة وسوء التقدير يفتحان باب جهنم.. أنا التي أطلب منه أن يسامحني!

- يا تايب خليفة.. إذا كانت عيون الرجال الذين حولك قد امتلأت دموعاً، ونشيج بكائهم تسمعه، فلِمَ أنت جامد هكذا كالحطبة؟ تكلم وقل كلمة فيها رحمة.

- أ.. أ.. ها.. ها..

- الله..! أصيب الرجل بالبكم..تبكّش الرجل يا جماعة..تبكّش! الآن فقط شعر بالمصيبة والذنب الكبير لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

شاهدنا بعضاً من أهل القرية يراقبوننا من بعيد، وما كادوا يشعرون بعيوننا ووجوهنا تتجه صوبهم حتى خفّوا راجعين.. لِمَ؟ لأنهم أذلاَّء والذلال لا يجلب خيراً ولا يستر عرضاً ولا يُقوِّم عِوَجَاً! ولا يعزز شرفاً ولا يدافع عن وطن.

مصيبة المرأة في هذا الزمن الأعجف - والأزمنة من قبله - هي عِلَل المجتمع، ثقافة الوسط الغائب عن وعيه «الرجل».. الرجل الذي فقد ظله.

فساد المرأة لا يأتي إلاّ من فساد الرجل الذي هو قوّام على المرأة فإذا عَلِيَ عَلِيتْ، وإذا كان خَيِّراً صارت هي الأخرى خَيِّرَة، وإذا هبط هبطتْ هي الأخرى ولو كانت في البروج العوالي، والغريب في الأمر أنهم لا يلقون على الرجل اللوم والمسئولية بل تراهم يناصرونه وينصرونه في كثير من الأحيان ويعتبرون ذلك من الفحولة! فهو يُكرَّم من قِبَل أقرانه، وهي تُتَّهم بالعار وتوصم بالعهر وتقاد إلى المذبح وتُقتل وتوارى في قبر مجهول. وفي أي كتاب سماوي وجدنا نصوصاً تدعو إلى هذا؟!

(من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر) إنه السيد المسيح عليه السلام في الإنجيل، وإنها مريم المجدلية، غفر الله لها، هكذا قال النبي عيسى بن مريم عندما رأى رجالاً يجرون

وراء امرأة تصيح وتستغيث أمسكوا بها وأوقفوها وربطوها بجذع نخلة وانهالوا عليها رجماً بالحجارة.. زانية!. زانية!. ارجموها حتى الموت! كانوا يفعلون ذلك وهي تنادي عالياً وتصيح رعباً. ويأتي القول من قول القائلين إن الزاني بها هو أول الناعتين والرامين!

جاء – عليه السلام – يجري حثيثاً عندما راعه المشهد ودعاء المستغيثة في وسط الزحام الكبير، ويقف حائلاً قائلاً.. أكُلُّكم أهل عفة؟ أكلكم أطهاراً؟ العقاب ليس هكذا مجرّد صياح وتُهَم ثم هتك أجساد، حدود الله واضحة بينكم وفتاوى الصالحين، قيمة الإنسان كبيرة عند الله، لا يصلب هدراً هكذا، الرجوع إلى الشريعة وما يلد منها من قوانين تضبط وتحدد العقاب واثبات الخطيئة!

- ليس كل من يقول يُؤخذ بقوله، فكل لسان واحد صادق يقف أمامه مائة كاذب، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله أيها النور المشّع انشر جناحيك، ألم تكن لي منك مسحة؟ إني في ظلام رانٍ، رماني القَدَمُ إلى بقايا حصيد أتلفت القُرَضَة محاصيله الخصبة وانبتت من آثاره الشوك الدامي.
- أيها النهر الخالد في ضميري.. لِمَ تجري؟ وإلى أين يكون مقصدك؟ أيها البحر الزاخر بالخلود والأنَفَة لِمَ تدفع بأمواجك إلى الرمال اليابسة؟ ومَنْ تخاطب بهذا اللسان الفصيح؟ كل حي، كل شيء يتكلم ويفصح عن معنى مجريات الوجود وسر البقاء، دروب تلو دروب صنعتها الريح وصبغتها أوهام الخرافة، ولا تلقي بك إلى هادٍ، فليس من فقه الحياة في شيء أن يُقاد الإنسان ويُجر بحبل في رقبته مكبل اليدين إلى مذبح العدم من أجل أمر لا يستحق ولا يقره لسان صنعه العقل وباركه الفكر الناضج!.. هنية، يا هنية هيا يا هنية سترجعين إلى قريتك.
- لو أنه باختياري.. لا.. ياسيد الرجال.
- ولكن يا هنية.. سيتغير مجرى الرياح.. بلادي وإن جارت عليّ عزيزة.. وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرامُ.
- كلامك من عسل وعباراتك من ذهب أيها الفارس.
- هيا يا هنية.

- كنتُ أتمنى ألاّ أعود إليها، ولكن لا مفر من الواقع المر، الحمد لله لقد كتب لي عمراً جديداً، لحظات وكدت أكون نسياً منسياً.. من يصدق؟ اللهم لك الشكر، لقد رضيت عليَّ يا إلهي.. إني أحس برضاك.. الله أكبر.

- هل تركبين حصاني يا هنية؟ إني قريب منك، قلبي يحس بما أنتِ فيه، وربما أكثر!

- لا أقدر يا سيد الرجال أعلى الله مقامك وأعزك ورفع شأنك، اللي يجري أمامك يبقى وراك.. إن الله يرسل في كل لحظة رحمة.. فأنتَ بركة من عنده ورحمة.

- أنا استغرب يا هنية، كأنك دجاجة «لا خبِّشتي ولا دبِّشتي» بمجرد أن أوقفوكِ قادوكِ وانسقت معهم كالدابة وأنت تعرفين أنك مُقْدِمة على الموت!

- نعم يا سيد الرجال.. مصير معلوم، إرادة محطمة، طاعة عمياء.. ولا أحد يرحم! وإن هربتُ إلى من التجئ. الشائع دنس متعفن ومرض طاعون لا يُقترب منه.

- هيا نساعدك يا هنية، هيا اركبي حصاني أو أي حصان آخر.؟!

- لحمي كله ممزق، مفتت وينـزف دماً، لا يحملني أحد إلاّ قدماي، أعطني عصاك يا عليوة واقترب مني لأستند على كتفك.

الْتصق بها وصار يدرِّجها ويحملها في «غُمْره[1]» عندما تكل أو يلاقيها عارض، ويهّدئ من روعها ومصيبتها ويمسح دموعها ويشاركها في الْعَبَرَات!

وقفت القرية كلها تشاهد الموكب المثير في حزن وهيبة وخشوع.. إنه موكب هنية قادم إليهم، عيونهم معلقة به تتحرك مع حركته وكأنهم لم يسمعوا ولم يعوا من أمرها شيئاً.

(1) بين ذراعيه.

انطلقت الزغاريد من حناجر النساء، حاول بعض الرجال التقدم لملاقاة الموكب.. «أهي هنية تلك؟ لا إن هنية فتاة جميلة في مقتبل العمر وتلك التي تمشي في هون، تستند على العصا وكتف عليّ، عجوز في التسعين!! ولا يمكن أن يتغير الإنسان في ساعة»!

تقدم سعد غاضباً وأشار إلى الجمع بالتقهقر والتراجع قائلاً:

- تراجعوا إلى الوراء.. تراجعوا.. في الصباح كنتم تعلمون وتسمعون وهي تصيح وتستغيث ولكن جُبِنْتُم وأصابكم التخاذل والخنوع واستأثرتم النوم. ما معني الرجولة عندكم؟ إنها ليست شنباً ولحى وخشونة صوت! والآن تريدون أن تستقبلوها بعدما نجّاها الله؟ أين الإباء والنجدة؟ أنتم هياكل عظام بلا لحم ودم، أنتم لستم برجال.. وحتى أنكم لا معنى لكم..

في الوقت الذي كان سعد يوجه كلامه العاصف للرجال بكل صراحة وشجاعة، كانت نساء كثيرات يسرعن الخطى إلى هنية صائحات مزغردات: «هنية.. هنية.. تعالي إليّ يا فلذة كبدي، هنية.. يا مداوية كل علة ورزية.. نجّاك الله .. واللي يبخّك يبخنا» ويحملنها على صدورهن باكيات نائحات، ويتلقفنها ويتمسحن بردائها ويدخلنها غرفتها ويقمن بملاطفتها ومعالجتها.. يرفعن من معنوياتها.

رجعنا إلى الوراء، تركنا القرية، التجأنا إلى شجيرات نتفيأ ظلالها وتستريح سبيبنا[1]، تبرّدنا وشربنا ماء واستطعمنا قليلاً من الزميته، ولكنّ الذي بدأ ينمو ويكبر ويتعاظم هو ذلك الشعور الذي صار يملأ ويبهج نفوسنا وقلوبنا ويفيض حتى على سلوك جيادنا. إن العمل الإنساني العظيم يجلل صاحبه ويرفع من شأنه ومَن يحيط به، فهو كسحابة مطيرة يجري ماءها ويفيض خيراً على حدود واسعة.

(1) السبيب تعني الخيل.

هيأنا أنفسنا وتأنقنا وسكبنا بعضاً من العطور الجيدة. أقبل وفد من القرية، سلموا وقالوا:

- يا جماعة حشمتونا! كيف تبقوا تحت شجرة ومرابيعنا مفتوحة لكم؟

- نحن أهل الطريق.. ولا نريد ضيافتكم! لا نريد ضيافة هذه القرية الظالم أهلها! قرية نحس ونكد.

- إنها عادة مُرَّت.. غلطة وما عاد اتعود.. هيا ابعدوا الشيطان واتبعونا، جازاكم الله خيراً، كل الجماعة تراجي فيكم، هيا راكم معزومين عندنا.

عند باب مربوعة كبيرة وقف صاحب الطريق ينظر إلى الملأ الجالس أمامه.. تبسم ونطق قائلاً:

- السلام عليكم ورحمة الله، ملابس بيضاء تسر العين، صداري جديدة، جرود فاخرة، طواقي حُمْر.. ما شاء الله.. في عيني أنكم رجال مثل كل الرجال!

- وهل تشك في ذلك؟ فنحن رجال بكل معنى الكلمة أيها الضيف!

- لا.. من قال لك إني ضيف عليكم؟

- يا سيدي بلاش.. أمّال لِمَ أنتم هنا؟

- إيه.. صحيح.. أتينا لقريتكم من أجلِ عيشكم وطبيختكم.. نحن قبلنا دعوتكم لأمر أعلى من غسل أيدينا ولمس طبيخكم، المحاكمة والحكم، والظالم لا سبيل له إلاّ الاعتراف بالذنب.

- من أنتم؟

- رجال تتبارك بهم الطرقات ولا يستنشقون الهواء إلا من فوق قمم الجبال، نحن من حراس القلعة هدانا الله إلى طريق قريتكم.

- إذن أنتم عبيد تحرككم الأوامر!

- القلعة هي السرايا الحمراء والسرايا هي الأستانة، عبيد في الوظيفة ورجال في نفوسنا، والنفس أقرب إلى الجسد.. نحن فرسان على ظهور الخيل.

- من كنتم تريدون؟ وما هي غايتكم؟
- لستم أنتم، ولكنَّ حادثة أليمة وعاراً لا يُمحى هذا هو الذي قصّر خطانا وجعلنا نبقى في هذه المنطقة ولن نبرحها حتى نأخذ لتلك المظلومة حقها وثأرها بالكلام وبالبارود إذا تطلّب الأمر ذلك، لدينا من الخبث والجبخانة[1] ما يحرق هذه القرية عن بكرة أبيها.
- الذي نعرفه أن القلعة لا تعبأ بأمر إلا بالضرائب أما الأمور الأخرى فهي من اختصاص الناس ولا ندري من كلفكم بما هو أولى وأهم؟
- إذا كان سلطان الأرض غافل أو تغافل عن واجباته وحقوق الناس عليه فإن سلطان السماء لا يغفل عن بعوضة فقدت رجلها وعاقتها عن كسب قوتها.
- ما تريدون منا؟
- القصاص، وإرجاع الحقوق إلى أهلها كما قلتُ سلفاً.
- مِنْ مَنْ؟
- مِنْ العابث الفاسق.. تلك الفتاة إنها شنعت ولم تعد فتاة سوية في نظركم، فأين الشانع؟ فلكل معلول علة، ولكل مظلوم ظالم.. هذه حقيقة لا مُراء فيها.
- لا نعرفه.. غير موجود.. ليس من أهل القرية!
- إنه ابن الشيخ، ذلك الذي كان يكلمك يا أمير القلعة أنا من أهل القرية، مثلهم، ومن أنصار الحق، ومن الآن امتلكتُ لساني حيث تصعّدَ صوتي وتقوّمَ كلامي.
- أنت الشيخ؟ بمَ أنعتك؟ أنت شيح[2] ولست شيخ.. يا خسارة! أين ابنك يا شيخ القبيلة؟
- ما الذي تريده منه؟
- نقاضيه!
- غير موجود.. ولدي لا يتزوج الـ... الـ... هو عنده بنت خاله.

(1) بارود السلاح.
(2) نبات من العشب البري مر الطعم.

- لو ثبت أنه صاحب العَملة سوف ترى ما لا سمعته ولا رأيته وسوف تعرف حقيقة ما نقول.
- حتى تَوْ.. حتى تَوْ.. هيا تُكْ فيّ[1] تُكْ فيّ وجه بارود وإلاّ درّق علينا وجهك.

نظرت كل العيون الجالسين في وجه الشيخ الغاضب الحاقد وقال كثير منهم:

- شي هالكلام اللي تقول فيه؟ هذا كلام بطال من يقبله؟ ولدك لازم تجيبه ونسمعوا رأيه، شي ولّيتم أنتم؟ وكان ما تبيش لاَنَكْ لِينا ولانَا لِيكم وكل واحد يعرف كيف يدبر رأسه، ويعرف طريقه..
- هيا بلاش.. خليتكم في عافية.. والله ماني ضايق غذاكم.. هَيْ.
- كيف يا شيخ؟ هي ما هي لعب اصغار، ابعث لولدك يجي وإلا راه ما تمسي على خير.
- ... . اذهب مشيت لحصان لفزان إن شاء الله ما عاد تروحوا، الحق حق والبطّال بطّال.
- شي رأيكم يا جماعة؟
- هذا هو كلام التريس يا نافع .
- ورأي صاحب القلعة؟
- زين، كلام سمح ما عندنا فيه ما نقول.
- إذن.. الخميس القادم، مثل خميس اليوم، سيتم فيه كل شي بالراده[2] وإلا بالسيف، اقنعوه واقنعوا ولده لازم يتم العرس بحضورنا جميعاً، وتمشي هنية لدارها في جحفه[3] وموكب عرس بنت بكر بكل الاعتبار والتقدير الإنساني.
- إن شاء الله.. إن شاء الله، جازاكم الله عنا خيراً وثبت خطاكم.. بالسلامة.. بالسلامة.
- أيها الرّحّال في طريق الله، إني أراك تفكر، وربما ينقلك تفكيرك إلى أفق يثير قلقك ويحير ضميرك، لِمَ تُقَطّب جبينك وتطأطئ رأسك، ما الذي حام وهفا على قلبك؟ أهي عقدة المباهاة أم صحوة الضمير؟

---

(1) أطلق عليَّ النار.
(2) بالرغبة.
(3) هودج.

- لقد ارتكبتُ خطأً كبيراً، كيف أترك هنية بينهم وهي أضعف ما تكون، وهي هدف القرية ولعنتها- لقد خُدعْتُ، وربما هنية قد ماتت ودفنت في قبرها وتخلصت القرية المجدبة من لعنتها، كما تخلصت قبلها من الكثيرات، حياة الهمج لا تعرف معنىً للوفاء ولا قيمة للوعد. لقد أخطأتُ بِتَرْكِها وحدها بينهم وأنا المسئول الأول عنها وعن هذه القرية في هذه الظروف. إنها غلطتي.

رجعنا إلى القرية ومعنا ستة رجال كأننا من جنود الصحراء بحُلل عسكرية منمقة ذات نطاق عريض من الجلد النظيف مجمّل بأهلّة ونجوم نحاسية براقة، وأحذية متينة عالية حتى الركبة، ومُحلّطين[1] الصدور بفوشيك[2] البنادق، ومعمّمين رؤوسنا بشالات فرسان البوادي. من يراهم من بعيد يقول إنهم من عصابات قطاع الطرق، ومتفوقة في السطو والسلب السريع لا من السبابيس[3].

توقفنا في نفس المكان الذي سبق وأن نزلنا فيه ليلاً في الأسبوع السالف. بدت لنا القرية مغبشة لا يظهر منها بوضوح إلا بعض نيران ومصابيح متنقلة، نداءات مختلفة، أصوات حيوانات. إنها آخذة في التلاشي والسكون تحت هيمنة هذا الظلام الداهم، فيا ترى ما الذي سيكون عليه غداً؟ وهذا خطأ كبير، يا الله سامحني إن وقع لها شراً.

مع بداية الضحى انطلقت ستة وجوه[4] من بنادقنا في وقت واحد، تحول سكون الوادي ومحيطه إلى زئير مدافع تجاوبت أصداءه بين الجبال عدة لحظات.

(1) نطاق لحمل الرصاص.
(2) رصاص.
(3) الشرطة.
(4) إطلاقات رصاص

انطلقنا إلى القرية في مشهد مهيب واعتبار كبير، خرجت القطعان إلى مراعيها، وتلمس الناس أبواب بيوتهم وطفقوا يتوافدون إلينا أفراداً وجماعات تحت أشجار وارفة الظلال حيث توقف بنا السير وترجّلنا. جاءوا بالحصران والحمول[1] والوسائد وقِرَب بها ماء بارد. فرشت مساحات واسعة، أُعد الشاي، جيء بالفطور، «عصيدة بالسمن والعسل»، زَهَا الخاطر وانفسح الجو وتباشر الناس خيراً.

- كيف حال هنية؟

- بخير، إنها تتمثل للشفاء، لكنّ أبيها تبكّش[2] وهو طريح الفراش، والشيخ على وصول هو وابنه، وهيا تفضلوا يا جماعة، الشاهي.. الشاهي[3].

مع حلول وقت تقديم وجبة الغذاء رأينا من بعيد الشيخ وجماعته يتهادون في مشيتهم - تظاهراً بقوة الشخصية وأصول الشأن - يقتربون نحونا شيئاً فشيئاً وعيونهم محدقة فينا ومستغربة، ونحن في لباس السلطانية الرسمية ونحمل شعار الدولة.

جيء بالقصاع المغطاة بالأطباق وقُدمت إلى الجالسين، إنه بازين مغطى بلحم الخروف على مفاصله وشرائح من البطاطا وطبيخ مفلفل غاية في اللذة، أكلنا بشراهة، تحمدنا وتشكرنا ثم قُدمت لنا كؤوساً من الشاي وفاكهة التين واللبن والمعصورة[4].

- تبارك الله وجازاكم الله خيراً يا أهل القرية، حفاوة كريم وفيضاً من الجود، لا يموت جوّاد ولا يفتقر كريم.

(1) افرشة ثقيلة مصنوعة من الصوف ووبر الإبل والماعز.
(2) اصابه البُكم.
(3) الشاي.
(4) جبن يصنع محلياً.

- الله يجازيك يا خير رجل، تعّبناك كثيراً معنا فسامحنا بالله عليك، أنا الشيخ وهذا ابني وهؤلاء أقربائي، أقول أمام الناس وأهل قريتي، أقول ولا حول ولا قوة إلا بالله، أقول وافقت ابني على الزواج من بنت خليفة.. هنية.

- اليوم.. اليوم

- لا.. هذا ما تشرطهوش عليّ! امتى مانبوا- بالك في السنة الجاية بعد الحصاد..

قام صاحب الطريق قائلاً في غضب:

- إذا لم يكن اليوم فإنه الخميس القادم و إلا لدينا إجراءات حاسمة وستندم يا شيخ.. ستندم!

- شي بالدير؟ كلنا أولاد تسع شهور.. هيا شي بالدير؟. وَطّينا راسنا ياسر وبعدين هي ما هي اختك و إلاّ بنت عمك.. هي راهي بنتنا!؟

قام للمصارعة والتحدي وقام معه أتباعه ومؤيدوه وكانوا الأغلبية، وانحاز بعض منهم إلينا بكل إصرار لمواجهتهم، وانطلقت ثلاثة عيارات في الفضاء أربكتهم وأسكتت ألسنتهم. قام صاحب الطريق محاولاً تهدئة الموقف، ولكنّ ثلاثة من مؤيدي الشيخ أوقفوه وحاولوا ضربه ووصفوه بالرجل المفتـن الكافر وقالوا له:

- أنت تعرف.. وعليك أن تعرف من نحن! هيا صلي على النبي وبدل ساعة بساعة أخرى.

- منافقون.. من أنتم غير هذا؟ تناصرون القوي وإن كان ظالماً وتلفتون الطرف عن الضعيف حتى وإن كان مظلوماً، هذا هو مجتمع قريش قبل الإسلام، والله الإسلام عندكم لا يتعدى أطراف أسماعكم، جهالة، تخلّف وكفر، طقوس خاوية، وسلوك الإسلام عندكم مجرد ذكرى وحركات بلا معنى، أنا عبد مثلكم لا أقبلها حتى كونها نظرة تحرك القلب، فكيف تصل إلى الله ويقبلها ويجازيكم عنها خيراً؟ ماذا يعني هذا المقام الرفيع؟ ماذا يعني هذا المسجد الذي يشع بياضاً، قرية مثل قرىً عديدة، وربما حتى مدناً، مازالت تعيش خلف التاريخ، جبالها حجارة سوداء وأرضها قاحلة، لا ندىً ينـزل ولا عشب ينبت، صُوّان يقدح صُوّاناً، ومن الصُّوان ينتج الشرر، ويحلّ الجفاف، أعوذ بالله منكم يا أعوان الشيطان.. تحصنت بالله!

- هذه طبيعة المكان، ولا نستطيع معارضة قدرة الخالق يا إمام.
- تسلّمون بالباطل وتكفرون بالحق، لاتؤمنون بالعلم والأخذ بالفكر المستنير وتجديد أساليب الحياة. الإنسان وعقله قوتان تغيران كثيراً من وجوه الطبيعة، فليس الأمر أكل وشرب فحسب.
- هذه قريتنا نحبها ونكرّمها لأنها موطن الآباء والأجداد، تملأ حاجات حياتنا.. نطلب منك ألاّ تتدخل في حياتنا الخاصة وحرمة بيوتنا و إلاّ شكوناك إلى صاحب المقام في السرايا.
- كلامك باطل ولا معنى له، أنت لا تستطيع أن تذهب حتى إلى القلعة، أنت شيخ مذنب تكرّم قريتك بالقرابين! كيف تجري أحداث قتل في محيطك بدون وجه حق؟ مثل هنية المسكينة وربما غيرها كثيرات، تبرِّءون الرجال وتقتلون النساء الضعيفات.. حرام عليك، هذا من مسئوليتك، هذا من مسئوليتك يا شيبة النحس!
- هنية شنعت!
- مع ابنك.. وابنك شانع وزانِ وهو الأولى بالعقاب.
- نحن أطهار وأهل بركة.
- ها!! ها!! اسكت يا شيخ اسكت، إيهْ.. لو تطلع الشمس في الليل، كما يقولون، ما يطلعوا من مخانب! خلي التبـن مغطي شعيره سلّم خُويْ.
- تمهل يا ولد مسعود رانك كتّرت على ما وصوك، هيا انطمر رصاصة وإلاّ خمسطاش.
- في بطنك.. أنا ما وصاني حدّ، انطقني الحق وخوْفِك الباطل، وصاحب العلة ينخصوه مرافقه، قريتنا كانت قرية مسارب ومواصلات وأشجار ومطر متواصل وخير وفير، ولكن من يوم ما أخدت المشيخة نـزع الله الرحمة من بيننا وانتشر الفساد والفُرقة، وهذا من فساد النية، لم نر في مشخيتك أي إصلاح، أنت تخطئ وتخطئ وتخطئ، ولا تعبأ بما أخطأت وكأنّ القرية من أملاك جدك وأبيك، القرية لنا جميعاً ولا أحد يشاركنا فيها، أنت مجرد موظف قلم وجامع حصص من الناس ودفعها إلى حاكم القلعة بعد أن تأخذ الربع، بل النص بالحرام، وتوزع بعضها على أصحابك وخليلات الظلام وبعض شيوخ قبائل قُرَىً أخرى! انخلي التبـن مغطي شعيره وإلاّ نبدأ في التدراء؟ راهي الريح تحركت.

- حياك الله يا ولد مسعود، كلنا نخطئ ونخطئ ونثوب ونصلح من أمرنا، فإصلاح ذات البيـن ظاهر وواضح لا يستحق القتل إلاّ أنه غلو في الجاهلية وتكالب العادات الشرسة. هذه الشانعة، كما تسمونها أنتم، الواجب أن يتزوجها الشانع ويدخل بها، هكذا جرت العادة، وحتى القانون عند كثير من الناس، والكثير منهم أمثالكم يقتلون الفتاة ويؤَمَّرُون الجاني ويبقى حراً طليقاً! سبحان الله، كيف ستقابلون وجه الله؟

- **{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}**[1]، والذي يجلد لَابد أن يكون إماماً عَارفاً بأصول المواقع وحساسية الأماكن المعيبة، إمام عمَّر الإيمان والقرآن قلبه ووجدانه ونشأ في طاعة الله، ليس كما ضرب عليّ شقيقته ضرباً لا يحتمله الحجر ولا يقدر على مشاهدته الحيوان الكاسر. سبحان الله أليس بينكم إماماً يهدي إلى الرشد ويفتح الأبواب ليدخل ضياء الشمس إلى البيوت والقلوب؟! وإلى المسجد أيضاً.

- هيا ما هو جوابك يا شيخ .. النهار فات[2] فيه.

ارتكن الشيخ جانباً مفكراً.. ثم قال.. وعلى وجهه مسحة رضىً.

- أنا خلاص يا سيد القلعة، لكن هناك أعمال لازم من متابعتها وإكمالها.

قام أحد الشبان رافعاً يده وطرف جرده على الأرض يواجه الشيخ وابنه قائلاً:

- حرام، والله حرام.. هنية لا تستحقونها، حرام تأخدوها هكي بالبركة، هي أرفع مرتبة منكم وأرقى جمالاً، فأين أنت منها يا ولد الشيخ؟ لو بإمكاني ما تركتها، وابنيلها حوش بالحجر وافرشه بالحمول والوسايد.

قام ابن الشيخ مواجهاً ذلك الخصم الجديد قائلاً:

- خلاص.. هي منذ الآن تعتبر مرتي، وهي راضية وأنا أحق بها، هي تعتبر حرمة، لا أحد يتكلم عنها ومن زاد زدنا عليه، وإذا زاد زودناه بما يكره!

قام أحد الجالسين قائلاً في جدية وإصرار:

---

(1) سورة النـور: الآية 2.

(2) النهار انقضى.

- هنية زوجتي وأنا أولىَ بها، أنا عاقد عليها وتمت فاتحتها عليّ، ولكن نتيجة أخطاء مني ومنها ومن عادات متوارثة. كان من المفروض أن يُعالج الأمر في النهار، لا يُرتكن إلى الليل، على أي حال أنا أتنازل عمّا جرى وأريد إرجاع زوجتي ولا أحد يعارضني.. والله ماني متنازل عليها إلا بالموت أو إن رفضت هي عودتها لي. أنا نبيّ ألرجعها...
- يرحمك الرحمن، أنتَ طلقتها ولزيتها[1] وشنّعت بها وأنت السبب في هلاكها لو تم، خلاص روّح لحوشكم!! مرفعين[2]...
- أنتَ اللي تروّح لحوشكم، موش كان تحساب روحك ولد شيخ تبول على الناس؟
- ديرو ما تبو، كان بوك اليوم شيخ راهو غدوه شيحة[3] كيف ما قالو.
- خلاص هنية لي وتعتبر زوجتي من الآن.. يا بوي، الخميس الجاي يتم العرس.
- هذا لا يتم، والله لو كان يصير الدم للركبه، هنية زوجتي وأنا قابلها بعلتها.

قامت جماعة غاضبة وقالوا:

- لا، لا.. من يوم اللّي طلقتها ليس لك الحق فيها، هي الآن حرة، تأخذ من تبي، وإذا كان زِدْتَ كلمة أخرى راه نضربوك واللزوك.

وقف صاحب الطريق باسماً مستغرباً مما تجري به المقادير.. قائلاً:

- كأننا في خرّافة، وإلا نحلم، ما ترون يا جماعة في هذه العُقدة؟
- لا عقده ولا سَوْ، البنت تريد ابن الشيخ وهو يريدها كما أخبرنا توًّا، وكل ما يجري الآن كلام فارغ، وين كانوا هؤلاء الراغبين فيها قبل الآن؟ وين كانوا وين بوها رافعها بيقتلها؟ كانوا كلهم داسين روسهم في فراشاتهم كيف طير النعام وخالفين[4] كيف لرانب.
- صحيح، عندك الحق، وين كانو؟ وحتى أنتَ وين كنت؟

(1) طردتها.
(2) قنبلة - لغم.
(3) نبات الشيح.
(4) مرتكن.

- إذن.. ما ترى في الأمر يا سيد الطريق؟
- تأتوا بهنية وتستشيروها .
- يا زينك كلام، يا زينك كلام!! عسل يقطر من جبحه[1].
- هذا موضوع تكلمنا فيه، ثم يا سيد القلعة ناكلوا ونقدفوا عاد، ما يصير.

قام جمع كبير وقالوا جميعاً:

- رأي سيد القلعة في أوصوله، لا يا شيخ لازم تشاوروها لو كان تبي راجلها الأول، هذه ولية مهانة مكسورة الخاطر، ما تتعسفوش عليها، حرام عليكم، لو كان حتى ما تبيش بگّلْ[2]، شي قولك يا شيخ؟
- خلاص وافقنا على مشاورتها، هاتوها.. لكن بعد ما تأخدوا رأيها معادش فيه واحد يعارض ويتكلم.
- يا زينك كلام.

جاءت تمشي بهون وسط مثيلاتها من الصبايا يرتدين أرديتهن ويسبلن أطرافاً منها على وجوههن حشمة واحترام للمجلس.

- السلام عليكم يا سادة.. صنّة الراجل تفوح من مسيرة يومين، مكان بلا سيد لا بركة فيه! السلام على التريس[3] الأفاضل.
- وعليكن السلام.. ومكان بلا مرأة لا استقرار ولا عمار فيه.
- وجهك وجه اشبوب خريف امبكر، ريح رحمة هبّت علينا، الله يعزك ويرفع من شأنك يا سيد الطريق.
- رأيتك تمشين بهَوْن، خطاك قصيرة وتعرجين قليلاً، هل مازلت تعانين الألم؟
- أنا في سعادة، كل الآلام راحت من يوم ما جيت بينّا يا سيد التريس.

---

(1) خلية نحل.
(2) مطلقاً.
(3) الرجال.

- يا هنية.. إن الله قد مَنَّ عليك بالخير، ويهديك إلى الطريق الصحيح.

- إن شاء الله.

- يا هنية.. ولد الشيخ يرغب في الزواج منك، هل تقبلين؟

- نِعَم الله عليه وعلى والديه، رجال من رجال، وسمعة ذات حبال.

- ما أجمل ما تقولين يا هنية، في بعض الأحيان يقولون الحجر والشجر يتكلم، ويعنون بالفطرة، أعلى درجات الكمال.. يا هنية رَجُلْك الأول راغب في إرجاعك إليه وإلى عصمته.

- دياب؟! ها!! ولد الشيخ أخطأ كما أخطأت أنا معه، ربما لا ألومه لأننا اشتركنا في لعبة الشيطان! لكنّ دياب المفروض أنه فكر قبل أن يُقدم على أمر مثل هذا، ولقد قلت له تمهل قليلاً، لكن عيّطتْ في أذنيه زغاريد الشيطان، وحاصرته نيران العادات، فطردني بلا رداء يسترني في تلك الليلة. عار عليه وذكرى لا أنساها!.. ولكن أنا سامحته.. والله سامحته.

- هناك آخرون.

- يوم أن شد أبي الحبل حول رقبتي ويديّ وجرني بشدة، وبدأ أخي يضربني بقوة لا تحتمل.. يومها كان أهل بيتي، وأخص أمي، بقيت في غرفتها وأنا أبكي وأصرخ وأطلب وقوفها معي. أهل القرية يعلمون، لم يخرج منهم شهماً ينقذني من أبي.. الْتمسوا فراشهم وزادوا في نومهم، لم ينقذني أحد إلا الله بواسطة هؤلاء الفتية، باركهم الله وثبت خطاهم، لقد صفح عني ربي، الحمد لله، وها هو يُعزني بينكم.

- من تختارين يا هنية؟ هيا، كل الحاضرين يترقبون ما ينطق به لسانك.

- ذلك الرجل الذي بجانبك، هو الذي أريد، هو الذي أقبل مسرعاً إليّ وفك الحبل من يديّ ونزعه عن رقبتي وأمسك العصا من أخي، أخذني وأقعدني بعيداً وأنا ارتجف رعباً وألماً وجاء بقربة ماء، وغسل وجهي وسقاني، وإلى يومنا هذا يأتي ويدافع عني، من يومها وهذا الوجه الحنون لا يفارقني.. هذا هو الرجل الذي أختاره إذا رغب فيّ وأرادني، أنا مدينة له إلى آخر العمر!

- الله.. الله، يا للفضيحة.. تختار عبداً أسود! تختار عبداً لا من قريتنا ولا من ملتنا! شّيْ يقهر النفس ويرميك في جب دامر.

- ما هذه الحيرة وهذا الأسف الذي على وجوهكم؟ أعوذ بالله، إنه عناد وغضب الجاهلية، الآن فقط صارت هنية في مستوى الأميرة الغالية أو الجوهرة الثمينة التي يريد كل واحد منكم أن تصبح في حوزته ومن ممتلكاته! الآن فقط صارت هنية حرة وصرّمت حبال القهر وعادات الماضي الأسود! الآن فقط سمعنا صوت حنجرتها يرتفع في الفضاء والهواء الطلق وإبراز الذات، بدل الصوت الذليل والبكاء الدفين والاعتبار المُهين! هي حرة الآن.. وعليكم أن تعرفوا وتتمعّنوا أنه فعلاً من فصيلة نادرة، رجل حر، شهم كريم، بهيّ الطلعة وسيم. والعبودية ليست من خواص الأَسْوَد! العبد من رضخ للعبودية واستسلم لها وذابت في دمه وسيطرت على مشاعره. قد يكون ذلك أحمر أو أصفر أو أسود، لكنّ سعداً رجل حر طليق، صادق وذلِق اللسان، يحب الناس ويتمنى مساعدتهم، ويضفي وشاح الحرية عليهم، إلاّ أنه أسود البشرة! والإسلام أذاب هذه الفوارق، وأصبحت الميزة في الرجولة والتقوى. وأن أول من أذَّن للصلاة بسم الله أكبر والإيمان والعمل والعلم والحرية بصوت عالٍ من فوق سطح الكعبة المشرفة من ألف وثلاث مائة وخمسون عاماً إلى يومنا هذا، يزداد دويه وانتشار شأنه إلى يوم الدين.. هو بلال بن رباح. ولنا في التاريخ عبرة يا أولى الألباب، فما رأيك يا سعد في خطاب هنية.. هنية طلبت يدك.

- هنية.. من الهناء و الرضى، قبلتُ يا سيد الطريق، قبلتِ يا هنية، ويشهد الله ويشهد أهل القرية أيضاً إني قبلتك بكل إصرار وافتخار، إنها من أمنيات العمر وما كان لي يوماً خيال يوصلني إليها! وهذا لا يدل إلا أن الله يحبني ويباركني.

- والآن أيها الرحّال الجميل، أرجوك لاّ ترمي العصا ولا تجعل هذه القرية مضمارك الأخير، أعرف أنك تعبت وتدافعت عليك الرياح، ما هو ميزانك وماذا رأيت فينا أيضاً؟

- ليس لكم ظلال! غبار الرياح يمنع عن عيونكم الرؤية الواضحة والدليل المستقيم، كائنات تعيش على الماضي والتقاليد والعادات المركبة، لا تحبون بعضكم ولا تتعاونون لأنكم لا تحفظون القرآن ولا تفقهون معانيه، إنكن تخطئون حتى في قراءة سور الفاتحة، الإخلاص، الفلق، الناس، فمن أين يدخل إليكم نور الإسلام وصوت المؤذن والإسلام

عندكم مجرد ذكرى تطوف ماسحة على أطراف آذانكم؟!

- لا يا سيدي، انظر إلى السماء، لقد تغير لونها تقرباً إلينا، رياح البحري صارت تلامس وجوهنا وتحرك أوراق الشجر وتبعث فيها الحياة، سينبت العشب وتخضرّ الأرض وتأتي الطيور المهاجرة، ويكوّن المطر الغدران. نتمنى أن لا تضع عصاك.. وإنك رجل جدير بالعمل المفيد والرحمة.. توغل.. توغل.. أيها الرجل المبارك.. فإن القرى البعيدة ترتجيك.

أوشك النهار على المغيب، وتوجه الفرسان صوب القلعة.

في اليوم التالي خرج ذلك الرحّال من القلعة لابساً جرده رامياً خُرجه على ظهره، عصاه في يد ومقود الطريق في اليد الأخرى وعيناه تلاحق الأفق البعيد. ما كادت معالم القلعة تتوارى عنه حتى لحق به ثلاثة من الفرسان، أحدهم نائب المراقب، ذلك الضابط التركي الذي أنقذه وهو مرمي على الطريق يكاد يموت عطشاً، وسعد وضابط آخر يقود حصاناً بلا فارس.

- أيها الرجل الطيب الجميل، تخرج من القلعة ولا تسلّم علينا؟!...
- أعذرني أيها المحترم، أريد محطة أخرى، إن النهار قد صعد، وسلامنا صار ضمنياً.
- أنت عملت معنا كثيراً وعلّمتنا وساعدتنا، لك حقوق عندنا لابد أن تستلمها.
- أمن أجل هذا تجشمتم التعب وطول المسافة وأتيتم إليّ؟ أكلتُ عندكم وبتُّ في بيوتكم وساعدتموني في تنظيم عديد من القرى، هذا كثير جداً أيها الضابط القدير.
- مهما يكن، فأنت من فعل من أجلنا الكثير، لهذا قررنا إهداؤك هذا الحصان المُعَدّ وعليه زاد يكفيك يومين وبندقية موزر جديدة وحلاطين فوشيك من مشرف القلعة، والرجال الكبار لا تصادفهم إلاّ في الدروب الشاقة والطويلة، بابا القلعة والسرايا الحمراء مفتوحان لك في الليل أو في النهار والرجال تتلاقى والجبال لا تتلاقى!

الوحدة

[كما تصورتك في خيالي جميلا أريحيّا.. بل أنتَ هكذا أزها وأكمل.. الدنيا مازالت عزيزة كريمة.. مادامت الأمهات تنجبن وتلدن من أمثالك]

ها أنا أترجل وأميل جانباً، وأتقدم خطوات مقترباً منْ جمع منَ الرجال يرتدون جروداً تشع بياضاً على شمس هذه الضحى الهادئة النقية. يجلسون على هيئة حلقة حول موقد النار وبجانب أحدهم عدة الشاي وتتوسطهم قصعة بها بعض السويق مرفوساً بزيت الزيتون وبجانبها طبق به تمر وقدح كبير من اللبن الرائب.

- السلام عليكم يا جماعة الخير.
- وعليك السلام أيها الفارس، تفضل يا سيد الطريق.
- لا تقفوا.. لا تقفوا، صوتكم النقي وبشاشة وجوهكم المرحبة تكفي ترحيباً واستقبالاً.
- خطوة عزيزة تكرمت علينا بها، هيا نّكمل حديثنا والشاي، ثم نتحول إلى خيامنا، إنها هناك، تلك الخيام التي تظهر لنا، مقامك أيها الفارس هناك!
- أحسنتم، أعرف أنكم أهل كرم وجود وشهامة رجال، مقصدي مازال بعيداً، أعجبني مجلسكم في هذا المكان وعلى هذه البطاح المفتوحة. قلت في نفسي أحاكيكم قليلاً وألتمس منكم شربة ماء، وربما نتعارف ونتصافح بعمق الشعور، ثم نواصل طريقي...
- وصلتَ يا عزيز، أهلاً وسهلاً، فارس كريم في ضيافة أهله، مرحباً بك وبهذه الرياح الطيبة التي ساقتك إلينا، هيا خذ هذا المكان، وحوّم معنا حول مجرى الحديث الذي كنا فيه، إننا في صدد رواية كان يقصها علينا صديقنا هذا، فنرجو أن تكون من الذين يحبون الأخبار ويتقصّون مكارمه.

- ليس لي إلا هذا، بكل استجابة يا سادة، أنا أبحث عن الأحداث وعن الذين يصنعونها، الحديث يكوّنه الحدث، والحدث قصة، والقصة منشأ ومحور درس، والدرس تعلّم وعلم.
- والأحداث تخبرنا وتعلّمنا وتكبّرنا وتضيء الطرق أمام بصائرنا حتى نميز الخير من الشر والباطن الخفي من الظاهر المعلوم، وحكمة الماضي دليل رؤية المستقبل.
- باركّكم الله فيما أنتم فيه وما ترمون إليه، يظهر جلياً أن لديكم مدرسة وأنتم طَلْعَهَا المبارك، هذا مفيد جداً، هذه محاسن قصد. أي محور هذا؟ أي قوة جذب التي جرت؟ رعاة غنم من بادية جدباء كأنني في محيط غرفة من غرف كُتّاب قريتي.. استمع إلى القول المبارك واستمتع بما يأتي من مفيد.
- كما تصورت يا سيد الرجال إنها حلقة درس ومنشأ علم يقوم بإدارتها شيخ جليل، إلا أنها في مكان بعيد، نذهب إليه مرة في كل نصف شهر، نحن أهل بحث وإلحاح إلى المعرفة، نقرأ القرآن والحديث وسِيَر الرجال وصفحات من التاريخ القديم، كل مرة هذه الحلقة تزيدنا علماً وتزكية وتأخذ بأيدينا، إنها لا تقام إلا في الليل خوفاً من القلعة التي تمثل جبروت الأتراك لأنهم لا يحبون مثل هذه المدارس وهذا التعليم الذي يخاطب العقل ويحرك الفكر والإدراك والخروج من هيمنة حياة الهامش والانفلات من الطاعة والانسياق الأعمى.
- هل تفيدني بعظمة ما أخذتم؟
- التربية المنظمة، ومن التربية يأتي العلم المنظم وتنتشر فائدته، ومن العلم يترسخ الإيمان، ومن الأيمان يتلاشى الخوف وتصمد المواجهة وتنفتح السبل، ونعرف الله، ونتقرب إلى مسالك الحياة الواضحة الصحيحة ومدّ الخطى الثابتة.
- التربية عرّفتك بالله؟ أي تربية هذه؟ هذا منعرج أحب التوقف عنده!
- مذ عرفنا ذلك الشيخ مسحنا كل ما كان عالقاً في نفوسنا وما درجت عليه حياة العادة والتقليد الغابر.. فتح الله علينا باباً من أبوابه، إننا رعاة عدا هذا السيد فهو من الزاوية الغربية وهو الذي قادنا ووثق بيننا وبين الرجل الفقيه الذي يعلمنا، إننا رعاة وأهل بادية والكون كله تحت بصائرنا ومداركنا ولا يفصلنا عنه شيء إلا الولوج في ركاب العلم!

الذي يفسر لنا ما نرى من بصائرنا وفي عقولنا. اليوم صرنا نعقل ما نرى، ونشعر بعظمة الوجود في وجداننا ويكبر أكثر وأكثر.

- إذن التربية هي الأساس!.

- أجل يا سيد الطريق.. لا حركة إلى الأمام دون تربية بالأخلاق الفاضلة، عرفنا أن القرآن كله تربية وتعليم منها يأتي كل خير، التربية هي التي قادتني إلى دروب التمعن والتفكر والتوجه إلى مخاطبة الكون وطَرَق أبواب ونوافذ الغموض والأسرار التي يتحلى بها هذا الوجود الذي يموج أمام أبصارنا كتموّج ركام الغمام، إن وجود بني آدم على هذه الأرض أمام هذا الكون العجيب لأمر يدعو إلى الوقوف مأخوذاً بالدهشة والتأمل العميق، إنه لأمر عجيب أن نسلّم ونقّيد البعد الفكري على أن الإنسان يقتصر وجوده على الأكل والشرب والمحافظة على استمرار النوع، ثم الفناء، هذه ضحالة في الترتيب اللفظي وقصور في إدراك نشاط العيّنات المحيطة، إذا كان أُفقُه امتد به إلى هذا المستوى فإنه ليس بذلك الإنسان الذي يحمل على كاهله أثقال ومفاتيح ذلك المدى الذي لا نهاية له من أسرار الجمال وعُلوّ الكمال، ذلك الذي يتوغل في غياهب الغموض الرائع.. إنه الله.

- إنه الله!! أي سر فيك أيها الرجل؟! من أي زمان أنت!؟ إنها لعبرة، أنتم هيئة الفلاسفة لا مجموعة من الناس الأعراب يلتفون حول موقد نار وشاي وقصعة زميتة!!.

- ها أنت عكست الأمر دون أن تدري، تفكيرك لم يترتب بعد، أنت غير متحرر أفقياً، مازلت تنظر إلى المتداعيات نظرة حيطيات لا حيثيات، الموقد الشاي، وقصعة الزميتّه عناصر تزود حياتنا، لا تعني التخلف، ولكن هذا هو الموجود عندنا. إذن أنت من؟!

- قال لي جدي ذات يوم، أنك ستصادف أناساً يفقهون، يجسدون الحدث ويفقّهون الناس بالمعنى، مثلكم تماماً.. لا لا، أنا أقصد ما رميت إليه الآن.. إنما أقول عندما أسمعكم وأنظر إليكم وأتمعن في عباراتكم ترتاح نفسي وأحس بالفخر، أين أجد نفسي أمامكم؟ كأنكم تجاذبتم تواً من شتى البقاع، وكأني ذرة في محيط!

- لا يا فارس الطريق، إن الله يحبك كبَّرك في عيوننا وجعلك محور حوار بيننا فانْبَسَطَتْ لك أساريرنا، إذن من أنت؟ أنت كيان جليل قادر على الحركة والبقاء، أنت فارس كبير كأنك آتٍ على جناح الريح! هكذا فاحت عطورك منذ قدومك.

- وأنت؟

- أنا سعدون، عندما أضرب المحراث في الأرض وتغوص سن الحديد في الترى وتتنفس حبات القمح والشعير ويحل مهرجان التناسل ويأتي موكب السحب وترسل أوشحة الحياة ملونة بالدفء ومثقلة بالمياه، فتمتد الطريق.. فالحمد لله على انتشار الرخاء.

- وأنا سهيل، ترعرعتُ في هذا المدى الشاسع بين مراحل العمر وتقلب الطبيعة، وليس من حِفْظِها بدٌّ، ورود ألوان، أهازيج ورسائل لفظية لا تنقطع كأنها تحيات ثناء أو هجاء، هذه الخطوط الممتدة قوية الإيقاع، إنها لا تأتي ولا تُحس إلا إذا استعد المرء لها، أصاخ السمع وأمال النظر، إيقاعات جعلتني أدرك وأتفهّم وأعرف مواقع النقص في نفسي والقوة وعلى أي كفة من كفتي الميزان أضع ذاتي، على هذه السجية المجيدة تفتحت مرحلة شبابي.

خاطبت البحر أكثر من مرة، شاهدت أمواجه، وقفت على الرمال الزاحفة، دخلت كهوفاً مضيئة وأخرى مظلمة وسمعت أقوالها بلغة غامضة عجيبة. وأنت أيها الجبل ماذا تقول؟ وعمّن تخبرني؟ ألم تكن معي؟ لك العذر، حوارك متواصل مع قطعان الغمام والسحب المتواصلة.

كثيراً ما كانت أمي تشكوني إلى والدي عندما تجدني مذهولاً سابحاً في الخيال لا أعي ولا أحس بما حولي، تخاطبه بلهجة معنفة وتخبره أني في علة مصاب بعين الحسود، ليأخذني إلى العرافة المزوغية أو إلى سيدي عبد السلام الأسمر أو إلى الشيخ المهدي في مدينة الزاوية ليفتح عليّ الكتاب!

يضحك والدي بملء فيه ويقول «جاي لبوه» هذا ولدي يا سحر، ما به داء، فِطْرتُه الحية المتنقلة تناديه من موقع إلى آخر. سحر افطريني وإياه تريداً من القَرِيش[1] ثبت الله خطاك، وإن لم يكن فعصيدة بزبد الماعز.

- سحر... فطّريني وأياه.. تريداً من القريش ثبت الله خطاك .. وإن لم يكن.. فحتى عصيدة بزيدة الماعز!..
- بس! ها ها ها! هذا ما تريد يا سهيل أنت وأبنك؟! عزيز والطلب رخيص.. عصيدة بالسمن!!؟ إمْنيَّن بتلقالي.
- الخزينة المدسوسة ما تخلاش من صنة[2] العرن[3].

فترفض أمي - وتصر على عدم وجود الشيء - ولكن كالعادة، بعد الإطراء والمغازلة بالجميل وتقديم محاسن أمي والتكبير بمقامها ومعزتها عنده - وأحياناً يأتي بنديره[4] من أحد الجوانب في البيت، ويجرني معه وتقترب من مجلس أمي، لأنه يعرف إنها وإنه يحبان الطرب،

(1) قدّيد، قرقوش.
(2) رائحة
(3) لحم
(4) دفّ - طار كبيرة

والكلام الموزون، فيبدأ في مخاطبتها بلغة «البندير» باتي[1] يملك حنجرة موهوبة، وحتى متفوقة. وكذلك له أصابع، فوق العادة، فما تكاد تلامس الطار حتى تحس أنت وسمعك قد استحوذ عليهما. شعور مفتون ونغم مسحور. ويقول بمصاحبة هذا الإيقاع بعد شوط ساخن من الرجاء والطلب من الله:

أرزقني بمسلّي[2] نأكل منه لين أنخلّي
دايرته[3] وحده دعبوبة[4]
على الله يأتيني بتوبة

نفسي تحب الذوبة[5] وعَلْ اللَّحمْ قرمان[6]
تمـيره[7] تحلّي ويقي وعلْ لَبنْ عطشـــان

وهكذا.. والأيام تتوالى وكل يوم يلون ويطلب .. فتارة تجود ويصاب، وأخرى تشدّ وتجذب.

أمي من تلك الضرب من النساء الفالحات - دعبوبة كما يقول والدي في أشعاره على الرغم من أنها بدوية البيئة إلا أنها تملك بصيرة تضاهي امتداد الصحراء، إنها صاحبة بيت، مملكة شاسعة الحدود، وأنها الوجه الأول، والمحيا الأول في القيم الدارجة والمتعارف عليها في البادية. فما الصحراء إلا قيم نظيفة، وأخلاق من سلسل الفطرة - فالمفاجآت وقدوم الضيف من النعوت القائمة. المرأة ذات الأصول والنظرة المقدرة .. لا تترك بيتها مفتوح الجوانب تلعب فيه الريح. ولا تحسب للطارئات حساباً - فسحر كما رأينا امرأة عاقلة، وذات قيم حكيمة - فخَزِينَتُها المدسوسة من أجل الطارئات لا تخلو من مزود[8] دقيق، مخفية[1] من

(1) أبي.
(2) قدير مقلي في السمن أو الزبدة
(3) صنعته.
(4) فالحة ذكية - نشيطة بارعة.
(5) الزبدة المستخلصة من الشوائب بتذويبها على النار.
(6) قشـرة
(7) تصغير تمرة.
(8) جلد ماعز مسلوح بطريقة معينة - يخزن فيه الدقيق - وهو شل القرية.

القريش، عُكّة[2] من السمن أو الزبدة، وبقوش[3] مملوء بالبقول والفلافل المقددة. يسمون هذه المخزونات المباركة بحصة الضيف، هذه مُحصّناة قائمة من أوائل واكتمال شخصية المرأة الليبية أو العربية بصفة عامة. إنها أحكام وقارئن شبه قطعية - بناء يمتد ويتعاظم مع تعاقب الأيام: لا أجد وصلاً قائماً متيناً يربط أصول حضارة - إلا من تلك العناصر - إنما من الكرم والجود - كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «بُعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق».

والدي طويل القامة، طويل الوجه جميل المحيا، ذَلِق اللسان ساحر العبارة، مسرحي الحديث، اجتماعي الطبع، نظيف المظهر، جوال لا يخلع جرده إلا ليلاً، لا نتقابل على قصعة الطعام إلا مرتين أو ثلاث في الأسبوع، دعوات غيره لا تتوقف، فهو دائم العزومات والولائم، يحب الناس والناس يحبونه أكثر، فهو شاعر نسّاب، راوي الحكايات ومفصّل الأخبار، يملك حنجرة رخيمة رنانة كأنها وتر ربابة، كثيراً ما أسمعه يبدأ كلامه بذكر اسم الله وينهيه بذكر خير الأنام، كثير التأمل والتفكر، والتمعن والتفهّم في الظواهر والمحيطات.

مؤمن مصلٍّ، لا ينام إلا في الهواء الطلق، أنفه في العوالي وعيناه خاشعتين في السماء تحصي باحتراس حركة النجوم وتقلب المواقع في مسار الكون.

كنت كثير السؤال وأنصت بشراهة إلى الجواب، كل ما يقال ينطبع ويسكن مخلداً في ذاكرتي. كان عمري وقتئذ لا يزيد عن الست سنوات عندما سألت أبتي:

- من أين يأتينا هذا؟. وهذا؟ وهذا؟ خير كثير لكن لا أعرف من أين يأتي!؟

يفتتح جوابه بالضحك:

- من السوق يا سهيل، علينا بالحركة والعمل ثم نأخذه من السوق.
- ما هو السوق؟ هل هو رجل أو امرأة أو شيء آخر؟ وهل يعطينا نحن فقط أم حتى غيرنا؟ بودي أن أرى ذلك الذي يعطي بلا توقف.

(1) جرة من الفخار تتسع لثلاثة كيلو من القديد أو ماشابهه - تخفي فيها المرأة مخزونها الخاص.
(2) جلد جدي صغير - يستعمل لتخزينم السمن، الزيت، أو الزبدة - فهو مثل القربة إلا أنه صغير.
(3) إناء صغير من الفخار - مثل الجرة - يخزن فيه - الفلفل والطماطم والبصل المدقوق، ويدس بعيداً للضرورة.

- ها.. ها.. نِعْمَ الذي قلته يا سهيل، إنه موزع الأرزاق. الثلاثاء المقبل، سوق القرى سآخذك معي، وسوف تحس بوجوده.
- أنت رجل كبير يا أبتي، كبير في نفسي وكبير عند الناس.

بعد الفجر بقليل، أخذنا الطريق إلى السوق مع الناس فرحاً، أقفز وأنط كالريم الصغير، أكاد أغني وأصرخ بأعلى صوتي، أفزع إلى السوق؟ إنها فرصة ألتمس فيها اللذة والمتاع ونعيم النفس وغبطة القلب ورضا الضمير.

أشرفنا على التجمع الكبير، امتداد لا يحدده النظر.

- هذا هو السوق يا سهيل، فيه الله يوزع أرزاقه بين عباده.
- يا الله! إنه منطلق!! ها ها ها ..
- نعم، إنه منطلق الأرزاق، الله يوزع أرزاقه على عباده، جلبة وضوضاء تشقان عنان السماء، انظر كيف يتهافتون على يديه، يبيعون ويشترون بين ناظريه.
- الذي تراه يا أبتي لا أراه، فأين الله؟ كيف تراه أنت ولا أراه أنا؟!
- لأنك مازلت صغيراً.. وعيونك مازالت قاصرة لا تقوى على اختراق الأفق، إني أراه يوزع حمول نِعَمِه على الناس، يملأ الكون كله، إنه الذي خلقنا وهو الذي يكفل رزقنا.
- أنا لم ألاحظ يا أبي، هيا نقترب، أين هو؟
- سهيل لا تتحير فإنك على عتبة الدخول، قليل من الزمن، سوف تحس به وتراه حتى في جرعة الماء التي تشربها وزفرة النفس التي تزفرها والكلمة التي ينطق بها لسانك.
- وهل نحن أيضاً يعطينا نصيبنا ويرضى بوجودي معك في سوق اليوم؟
- نعم يا سيد سهيل، سيباركك ويهديك ويوفقك في مساعيك الفاضلة.
- أهذه هي قصة السوق يا أبتي؟
- نعم، أصوات يعج بها الفضاء الواسع تكاد تصم الآذان، هذه سوق منعقدة في أعز

ضحاها يتبارى فيها البائع والمشتري، يبيع هذا ويشتري الآخر، يبتسم هذا ويفرح ذاك، وتتبادل النِّعَم والخيرات، وفيها تتناقل الأخبار وتنتشر الأنباء عن كل ما هو جديد، هذا يقول وهذا يتلقى، تعقد المواثيق، تفسح ساحة التعارف والمعارف وتتقارب الأنساب وتختلط العائلات وتكبر القرى وتنمو وتمتد الأجيال على سجايا المحبة والإخلاص ومكارم الأخلاق.

ما يكاد يقترب الظهر حتى تتغير وجهة الغيوم وتبدأ السوق في التناقص والاضمحلال، اشترى من أراد أن يشتري وباع من أراد أن يبيع وكل منهم رجع إلى بيته فرحاً مسروراً بما باع وكسب وظفر واشترى وغَنِم هانئاً بما رزقه الله.

هيا «هاذي» طاسة الشاهي وِتَتْ، ويا ضيفنا الكريم تقدم وقاسمنا في هذه وفي هذا، هيا بسم الله في طعام الله، ويا عبد العزيز واصل الحديث عن قصتك وأروي لنا الأخبار من بدايتها حتى يتسنى لضيفنا الكريم متابعة أحداثها والغرض من موضوعها.

- «غارت مجموعة من الرجال على قطيع كبير من الغنم كانت ترعى في برار بعيدة عن مضارب اقبيلتها، وما كاد الرعاة يفرون خوفاً ويتركون المرعى خالياً حتى أسرع الغزاة إلى القطيع لغرض الاستيلاء عليه وامتلاكه، وحال ورود النبأ إلى القبيلة صاحبة الأغنام، حتى أقبلت مسرعة تبحث وتقتفي أثر المهاجمين حتى لحقت بهم وأغنامهم محصورة في حماهم».

لم تُطلق إلا ثلاث رصاصات صوب الغزاة من جانب أفراد القبيلة صاحبة القطيع، ولكن بعيداً عن أجسادهم، ثم فضّلت الدخول في حوار معهم. كان عدد الغزاة ثلاثة فرسان وعدد الأفراد الوافدين من القبيلة خمسين، ومع هذا جنحت للحوار، أي المفاوضات!

والذي يرضخ للحوار والمهادنة في مثل هذه الميادين، لا يأخذ حقه كاملاً، هذا إذا أخذه!

- كيف انتهكتم حرمتنا وبأي حق نهبتم أغنامنا، أهي القوة والمقدرة أم شيء آخر؟؟..

- وجدناها بلا راعٍ وبلا دليل يقودها.
- تحشّم وخلّي الدم في وجهك، أنتم تتهكمون علينا، هذا موش كلام «ارجال»، كلامكم هذا لا يقنعنا، والله لو نطلق عليكم هالناس يأكلوكم لحمة لحمة، هيا ما قولكم يا ناس؟ شي تبو؟ وليش سقتو أغنامنا؟
- أنتم اللي شي تبو؟ تريدوننا نحن أم أغنامكم؟!
- أنتم شِي انديرو بيكم، هيا امشو في حالكم وإلاّ راهو نهار أحرف[1]، والدم يصير فيه للركبة.
- بشرط البشارة[2].
- بشرط شنوْ؟ هذا اللي مازال، رزقنا ويشاركونا فيه! قالّكْ بشاره!..
- ليس لدينا كلام يزيد عن هذا، إذا أردتم أغنامكم هاتوا البشارة.
- أنتم عرب وأهل أصول، عيب تقول الكلام هذاي.
- يا سيد.. يا شيخ القبيلة بشارتنا هي: خمس شياه، خمس جرار زيت، عشر مرطات قمح ومثلها شعير، وجرة واحدة سمن.
- كيف؟ كيف؟ أمّال انموتو احْني؟ وين بنلقولكم هذا؟
- إذا مرت ثلاثة أيام على هذه الشروط ولم توفوا بها، سقط حقكم وتحولت أغنامكم إلى ممتلكاتنا، نحن لا نرضى بأقل من هذا!

وهم في طريقهم، راجعون إلى القبيلة من أجل طرح الشروط والتزود بالجواب المقترح، مروا بأحد معارفهم. استقبلهم الرجل وأفسح لهم المكان وقدّم لهم الشراب والطعام، وبعد أن أكلوا وانتهى وقت المأدبة، طرح عليه أحدهم القصة من أجل المشُورة والنصيحة، تبسّم المُضيف وقال:

(1) أسلوب تهديد.
(2) الفدية.

- لِمَ لَمْ تأتوا بأغنامكم؟ هل هم أكثر منكم عدداً وسلاحاً؟
- لا والله، هم أقل عدداً وبلا عتاد، ولكنهم يحسون بقوة دفع قبيلتهم، تَرى الأنفة والتفاخر على وجوههم وألسنتهم، والشجاعة وقوة الشخصية من قوة وعزة الانتساب والأنساب. القضية قضية تفوق في استعمال العقل المدرك، والصدق في التصميم. إنهما أعظم قوة للذي يعرف كيف يسقوهما. أمام هذين، العتاد لا يعني شيئاً. القوة قوة قلب كما يقولون يا تايب عمر.
- وأنتم أَينْ أثَر قبيلتكم فيكم؟ ألستم من القبيلة؟ أو كل ما تأكلونه بارداً باطلاً!!؟
- إنهم من قبيلة «خ» وهي قبيلة معروفة بعددها الكبير وقوتها وجسارتها، فكيف ترى الحل يا تايب[1] عمر؟

أطرق التايب عمر برأسه إلى الأرض لحظات ثم قال؛ متبسماً:

- الأفضل أن تدفعوا البشارة، إنهم من قبيلة تشعر بقوتها وبعزة كيانها ورجالها الشجعان، الاعتراف بالحقيقة فضيلة حتى وإن كانت مرة، يا «تريس[2]» لو أنكم كما كنتم سابقاً على ولاء ووفاق مع قبيلتيْ «د و هـ» لكان لكم شأن كبير في كل مكان وتِرهبون، لا يقربوكم أصلاً حتى وإن دخلت قطعانكم أراضيهم وبين بيوتهم، ولكن بعد تخاصمكم ونزاعكم قلَّ عددكم وصغُر شأنكم وتلاشت هيبتكم، وعلى مثل هذه الحالة لا تستطيعون مجابهتهم. أعطوهم البشارة كاملة.

.....

بارك الله فيكم، وقد سمعت من هذا ومن ذاك، أكلت من هذا ومن تلك، وشربتُ من هذا، وقمت من بينهم ونظري يحلق في السماء قائلاً لنفسي «سبحان الله، تؤخذ العبر من أصغر الأثر ومن مثل هذا الحدث البسيط، يرينا واضحاً حال العرب اليوم وما هم فيه من تقهقر وتيه، لو أنهم أمة موحَّدة لأختلف الأمر وما استطاعت أي أمة أخرى على وجه الأرض أن تقترب منها ولا أحد ينعتها بسبابة السوء أو طرف لسان جارح، أمة في أعز

(1) يا سيد.
(2) رجال.

وأخطر موقع على الأرض، أمة كبيرة وسندها قوي متين إلا أنها غائبة قيمةً واعتباراً بسبب تشتتها في دروب الضياع والانقسامات القطرية جعلها أمة صغيرة ضعيفة مُستحقرة لا تقدر إلا على تقديم البشارة والطاعة العمياء وترضى بما يُمْلَى عليها، لا أدري ما علتك الحقيقية يا خير أمة أخرجت للناس!!».

- إنها لجلسة، وإنكم لرجال اعتز بكم وتفرح بكم الأيام ويسعد بكم المستقبل، منذ وقت طويل لم أصادف في طريق الخير مثلكم، هذه ساعات انقضت معكم وكأنها سنة في عمر الزمان، ودهر في عمر المعارف.

- إلى أين أيها الفارس؟

- لمتابعة طريقي يا أخوتي، تلك التي رمتني إليكم، إنها تناديني وتمدّ لي ذراعيها، لديّ كثير من الواجبات.

- والذي هداك إلينا في هذا الضحى المبارك لتُقَاسِمُنا الطعام وجميل الكلام وسماع خطابنا، لن تبرح بيوتنا حتى نأذن لك بالخروج.

- ولكن هذا قيد لي وإجحاف عليكم.

- نحس بالفخر وعلو المقام بحلولك بيننا، الوجوه المباركة لا تخفي نفسها ولا تأتي إلا بالمثال النافع والجدير بالذكر - مناسبة عقيقة - رزق الله السيد سهيل بمولوده البكر، وُلِد منذ أسبوع، ونحن اجتمعنا اليوم لهذه المناسبة العزيزة، ألا تريد أن تباركه معنا؟ نحن معزمون وأنت الأول فينا.

- لِمَ أنا الأول؟

- رأيْنا فيك من الأصول والصدق والحب ما لم نره في غيرك، إن الوجه السمح نادر الوجود.

- قبلتُ عرضكم لكن مقروناً بشرط، بل إنه عهد، وعهد الرجال دَيْن مرسوم على جبين كل منكم حتى توفوه!

- كلام الرجال كنوز ومعايير، قبلنا به قبل أن تقوله، ما هو يا سيد الرجال؟

- أنتم على درجة عالية من الفطنة والإدراك والعلم، أيقظوا النُّوام ونبهوا الغافل ونظفوا العقول المتحجّرة من عادات الجاهلية الممجوجة، وإزاحة الجمود والخمود والركود والخوف والفتور وإيثار الدعة والاستسلام والتسليم للظلم، بثُّوا شعور اليقظة، انشروا العلم ووحدوا الصف، لا تقنعوا بالأمل ولا تكتفوا بالرجاء.. فالآمال إلى عمل والرجاء إلى جهد وعناء وكدّ، بورك التجديد الذي يؤدي إلى التحصيل العلمي والثقافي والخير من الجود والأرزاق.
- إنها أمانة كبرى أيها العزيز، وليست من الشرط، قبلناه عهداً، ولكن حسب المقدرة، ومنذ اليوم تتغير وجهتنا إلى مثل وجهتك، نصاحب الطريق ونتقلد وسام فرسان الطريق!
- إننا في فرح بمناسبة «سُبوع» الطفل، كأننا في عُرس.
- نشر الله أفراحكم ووسّع أعراسكم، وهنأكم بطيب العيش.

- أيها العزيز، أتريد أن ترى ابني؟ ها هي أمه قد جاءت به مع بعض من فتياتنا.
- رفع الله مقام أمه وأبيه وأعز من معها، تقدمي يا أمَة الله.
- السلام على خير الأجواد، تبارك بحلولك نجعنا، منذ الصباح علمنا أن فارساً لفىَ علينا، اسمع عنك كثيراً، إنك طَلْعُ شهم، أخبارك أنسام صبح ربيع تنتقل إلى كل مكان، كنا نَرْقُبُكَ وأنت جالس مع رجالنا، كما تصورتك في خيالي بل أنت هكذا أزهى وأكمل!
- تقدمي، تقدمي يا حُرمة.
- دعها تقل يا سيد الرجال، أنا أعرَف بزوجتي، النساء العظيمات هنّ اللواتي يعرفن من يقود فرس المقدمة، منذ أن لفيتَ عرفناك، كان حدسي ينبؤني على أمنية غالية، أننا سنلتقي ونتعاهد على أمر عظيم.

انطلقت من حناجر الحاضرات موجة من الزغاريد الرنانة، ثم زغرودة أخرى من داخل خيمة الحريم عجّ بصداها الفضاء.

- هيا تقدمي، بسم الله ما شاء الله.

- ما الاسم الذي اخترته له يا فاطمة؟
- أنتَ ربيع عمري ومفخرة نسبي يا سهيل، أنت أبوه وأنت من يسميه لأنه منك وإليك.
- إذن فضيفنا الكريم هو الذي يسميه ويباركه.
- حمزة.. أحد سيوف الله على الشرك والوثنية.

عاصفة أخرى من الزغاريد من داخل الخيمة وخارجها.

- أذِّن في أذنيه يا سيد الرجال، متباركة بك، أريده مثل جده وأبيه ومثلك أنت يا سيدي.
- «هاته بين يديّ.. بسم الله الرحمن الرحيم، الله أكبر الله أكبر، أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله. اللهم اجعله من حملة كتابك المجيد والعمل به والدعوة إليه، اللهم اجعله صالحاً مصلحاً داعياً للخير ومصباحاً وهاجاً ينير ظلام الليل ويقهر العُتاة ويرفع الظلم، فارساً للسلام والإسلام، يا عزيز يا رحمن ويا خير الأنام».

لبس الفارس جرده، وتنّعل، امتطى جواده في دعه واعتزاز وتحرك، ونزل المرتفع مودعاً. وقف سهيل وأصدقاؤه يشيعونه بوجوه باسمة ونفوس مرهفة وهو يأخذ طريقه.

- ليس الفارس من ركب الفرس، وإنما الفارس من ركب الفرس واعتز ومن عرف الناس قدره وتجمّلوا بأثره.
- يا لها من خطوة عزيزة - أنظروا إليه يا جماعة.. فعلاً إنه من ذات العزم لا تراه إلا من أهل الكرم - مر علينا مرور الكرام- لا أنفي إنه جدير بالتقدير، لقد ترك فينا أثراً حميداً وسلوكاً مباركاً عميقاً في نفوسنا لا يُنسى.

كم من رجل يعد بألف رجل وكم من رجال تمر بغير عداد

الضمير المهجور

الله لا ينظر إلى طولكم وعرضكم ومحاسن بناءكم ولا قوة صراعكم وسلطانكم.. وإنما إلى أعمالكم ومآثر وفضائل عطائكم.. إنهم من كنوز الدنيا والآخرة..

خفّت إليه وقت قدومه، عند باب مكتبها، متأوهة حنيناً إليه، متعطشة حباً وهياماً به – وبنظرة يلفحها العتاب، اقتربت منه، مسكت ذراعيه ثم احتضنته، وأسلمت رأسها على صدره، تستنشق رائحته وتتحسس دقات قلبه وعيناها مغمضتان، وشفتاها تهمسان في استسلام «آه.. حبيبي ما أروع هذه اللحظات الفريدة – لا أدري كيف أكون بدونك؟ بُعدك فراق لا يطاق– غبت عني كثيراً – أهكذا تواعد الأحباء؟ – ليلي بارد، ونهاري يمر بلا معنى– آه أين أنا؟ أين أنا منّك؟ اتركني أسافر في عالمك الفحولي.. راحلة معك في مركب أحلامي إلى أقصى جزيرة نجوب بحراً متلاطماً أمواجه يعج بالخصوبة والأسرار».

- لا يمكنني أن أجيب.. وماذا بعد؟..

- عندما اسمع صوتك تقوم حواسي كلها وقفاً عليك – يضطرب صدري وترتجف شفتي وتجتاحني فيض أنثوي وإلحاح يغتصبني ويدفعني إليك – أيها الفارس القادم من بعيد ألا تترجل!؟. وإني أرحب بك – من تريد؟ وماذا تريد؟ – الله! ما أسرع الزمن في وجودك وأنت بهذه الصورة كيف طوّقت قلبي وحاكيت وجداني، وغازلتْ كلماتك مشاعري – لماذا غبت عني كل هذا الوقت الضائع؟ ألا تشعر بأمر خفي يؤنبك؟ وحق يحاسبك؟ وحب يناديك ويجذبك؟

- إنها ثلاثة أيام فقط يا عزيزتي!..

- ولكننا في منطلق الفصل – مازلنا في بداية الربيع.. أنت وأنا.. آدم.. حواء.. والحب!!..

- أرجوك لا تبالغين – يجنح بك الخيال بعيداً – لم أكن أعرف أنك بهذا المستوى وهذا الزخم من العبارات التي ترفع من مقام المقصد «الصدق في الحب».

- لا تعدّ كلامي رجعاً هاتفاً يصدر من بعيد... أرجوك لا تجعلني آدمية بلا شعور - لا لا تشيح بوجهك عني - هذه يدي تجوس مجاهل صدرك، وشفتاي تتقصّى دفء أنفاسك - أنت رعشة الوتر وهمسة الفجر - أنت عازف لحّان، وقصيدة بتول صاغها شاعر كبير.. ولم تُقرأ بعد!!..
- وأنتِ جزيرة أحلام قصيه لم تحاكيها بعد تقلبات العصور - مازالت مجهولة في خضم المحيطات.
- آه.. آه.. آ.. آ.. آ.. آ.. آ..
- لم هذا؟. هذا البكاء يا حبيبتي؟!.. ها نحن معاً وفي غفلة عن حركة النهار..
- ما أسخن هذا اللقاء! كأنه الأول.. هيا اقترب.. اقترب مني أكثر.. ما أسعدني بك.. أيا أيها النهار الحافل بضيائك، أما تنقضني؟ .. ويا ليلي الهامس هيا استلمني.. دعاء الربيع يناديني...

تعاقبت الشموس، وتغير وجه المجرة، وتمادت خطانا متوغلة في مسافات السنين. انسقتُ وراء طغيان الفتنة.. صدّقتُ ما قالت.. وأنها الساعد الراعي ورفيقة العمر والحضن الدافئ الحنون والقلب الذي لا يتغير مع تقلبات الدهر والكاهل الثابت القوي الذي يعنيني ويدرك ما يحيط بي - فتركتُ لها مقاليد أمري ومفاتيح أبوابي وقلبي، واعتبرتُ نفسي صاحب عرش ثابت وصولجان ممتد - ولكن مع تقلّص ثروتي واضمحلال نفوذي واعتباري، تغيرت معاملتها معي هي الأخرى - ثم أدارت وجهها عني: أوقفت عني ضروریاتي، لا أجد في بيتي مآكلاً ولا مرقداً في غرفتي - أواه! ما أقسى هذا على نفسي! أحياناً تنعتني «بالديك» أو الرجل المريض، وأخرى بحيوان لا أريد ذكره، عندما أكثر من الصياح وتهديدها، وتعتبر هذه مأمأة ذكر الماعز.

وأحياناً تضحك ساخرة مستهزئة، وتتركني ببرود - وأنا أتحسر وأتألم على ما فات. منذ أيام أهملتني.. ثم تجاهلتني.. لم تعد تعبأ بي حتى في ذكر اسمي، أو تكلف الخادمة بإعداد الطعام أو غسل ملابسي، بل ألبّتها عليّ هي الأخرى فلم أعد أراها تقف على مساعدتي حتى

في تقديم فنجاناً من القهوة أو كأساً من الماء.. قلّت هيبتي عندها ومن معها في بيتي.. تدهورت همتي واسترخصتُ نفسي- وتدحرجتُ من فوق عرش الغرور إلى قاع حفرة البركة الآسنة - أواه!! ما أصعب هذا وما أقسى الإذلال خصوصاً من مثل هذا المستوى الذي رفعته من أسفل إلى أعلى ومن بيئة الفقر إلى مجد القصور والثراء وفسحة النعيم.. إنها سطور كُتبت على صفحات العمر.. رفعتها إلى أعلى.. وعندما رفعتها رمتني إلى الحضيض.

قبل ليلة البارحة، وبينما كنتُ أبحث عن لقمة آكلها في المطبخ، سمعتها تحادثُ أحدهم في غرفتها، تلاطفه بصوتها الهامس.. كدتُ أصرخ وأتناول سكيناً وأهجم.. لكن غلبني السُّكْرُ.. فنمت.

كثيراً من الليالي استيقظ قبل الفجر من أصدى حركة من باب الفيللا الخارجي، ثم يغلق بعد لحظة ويرجع السكون إلى مكانه - يهجرني النوم، وأدخل أسواق الأفكار الحائرة والهموم القاتلة.. حتى يحلّ الصبح- يا لها من أيام!! إلى أين أذهب؟ ولمن اشتكي؟ - بنيتُ جدران مسكني من طين الأسباخ، وشكّلتُ أعضاء مجلسي من هياكل الشمع المذاب، وزخرفتُ واجهة شاشات عرض مستقبلي من أطياف السراب.. تُرى من المسئول عن هذا؟

ذات فجر استيقظتُ على نفس الحركة تصدر عن باب بيتي - قمتُ لتوي، واقتربت من نافذة الغرفة التي باتت مأوى لي - أزحت الستارة - تمكنتُ من رؤية من فُتح له الباب ليخرج إلى الشارع مغادراً المنـزل - إنه أحد موظفي مكتبي، عندما كنتُ سيداً لممتلكاتي - أجلس على كرسيي متصدراً مكتبي، يبقى واقفاً يترقب بكل اهتمام أوائل أوامري، ولا يتحرك حتى اسمح له بالذهاب.. هل ألعن الدنيا؟ هل أسبّ الحياة؟.. لا..لا.. الدنيا والحياة يسيران مع حركة الكون في مسارهما الأبدي هما لا يعيرهما أمري.. لكن أنا الذي تخلّيتُ عن مساري وعن دلالاتي - جنحتُ إلى الزبالة - لأن عنصري.. لأن عنصري.. لكنها.. لكنها لعبة الأيام - ولعبة الشطرنج، ولعنة الغنى بدون عناء - الثراء بلا عناء - إنه الضياع في قفار الغرور، والتيه في طريق الفساد.. علة الترفع وترك الحبل على الغارب، عدم تقدير الحساب، ومعاينة وتحسّب لنقطة الرجع لما يعرضه المصير.. علة الهدم وسخرية القدر، لم استيقظ وأحس بلهيب وجودهما إلا الآن، ولكن رحيل بلا عودة..

اليوم انتفضتْ غَضْباً، عندما رأتني مقبلاً نحوها، مستفسراً عما جرى في تلك الغرفة، وإني سمعتُ صوت رجل يتحدث معها..

- صوت في مسجل – حوار في مسرحية – نمت ونسيتُ الراديو يشتغل، هل هذا يغضبك؟

- لكن في الفجر رأيت رجلاً يخرج من منـزلي.. هل هو صورة خرجت من مسجل؟

حدّقت في وجهي بصورة الشرّ والحقد.. وكأني لصّ تراني لأول مرة استولى علي مجوهراتها.. اقتربت مني أكثر وقالت بلهجة الساخر المتجاهل: ألا تفهم؟ ألا تفهم؟ أنت مجرد ساكن في بيتي.. لم تعد في نفسي حتى مجرد شبه رجل.. حتى مجرد ديك – صرت لي ظلاً ثقيلاً، وشيئاً زائداً لا يذكر – لِمَ تتقصَّى حركاتي وتتجسس على خطواتي من في غرفتي؟ ومن يخرج من بيتي؟ هل يهمك أمري؟ أنا حرّة – هيا انتهي الزمان الذي بيني وبينك.. إني لا أعرفك.. ليس لك شيئاً عندي.. لا أريد منك مقابل.. اسكنتك ما فيه الكفاية..

- ليس لي شيئاً عندك؟! تقولين هذا بملء العبارة؟ وبأصدأ صوت؟..

- لقد طاح القمار والخمر بكبريائك، وكل ما تملك – عندما اقتربُ منك أكاد أتقيأ من رائحة الخل التي تنبعث من جلدك – عفتك، كرهتك – من أنت بالنسبة لي – هيا قم وأذهب بعيداً– ولا تعد مرة أخرى.. إنك في الوهم.. ومن الوهم تكون.

- لكن هذا بيتي.

- ربما زمان.. الآن لا تملك شيئاً على الإطلاق.. حليمة امنعي عنه حتى الماء، ولا تسمحي له بالدخول واستعمال الحمام، اتسمعيني؟

- نعم .

- استغرب كيف قضيتُ معك كل هذه السنين الطويلة تحت جدرانك الخاوية وسقفك المتهدم – أي!– أعوذ بالله.. كرهتُ صوتك، رائحة سجايرك وكل شيء، ينتسب إليك.. كل شيء تراجع عنك.. هيا عد من حيث أتيت؟

- ولكن هذه أملاكي.. وشرفي..

- زمان.. نشوة الخمر أتلفت كل محاصيلك؟؟

- ولكن حقوقي مسجلة ومعقّرة رسمياً ..

- أتلف الماء كل معالمها.. هيا عدّ من حيث أتيت، و لا تلتفت إلى الوراء.. حتى لا يصيبك الأذى.

- أنا؟!.. أنا؟!..

- نعم أنت... لا أحد غيرك...

نظر إلى أسفل، تهدّلتْ شفتاه، وحك لحيته بإبهامه ثم رفع رأسه باسماً إليها كمن لم يسمع شيئاً وقال بصيغة رجاء: «لا أدري.. ما حلّ بك هذه الأيام؟! لا حرج اعتبرها نزوة عابرة ها.. ها.. ها.. بادرة وحْمٍ أليس كذلك؟! ها.. ها.. ها.. لِمَ.. لِمَ تنكرين هذا يا حبيبتي؟.. إنه أمر شائع وطبيعي!!».

- ...ها...ها...ها... من أنت؟! – وحم!! إنه لأمر! – لا لا تكن غبياً واهماً – اطمئن.. لم يأتني مثل هذا وحتى وإن طرأ.. فلا يكون منك أبداً .. أنت أقل من أن تقدّم هذا.. أنت جدار بال متهدم كما قلتَ لك.

اضطرمت النار في أعماقي وضاق صدري وتكورت أحشائي – ماذا أسمع يا إلهي؟! كلام متسلّط لا عهد لي به.. تجريح بسكاكين.. حقد وانتقام.. ليس هناك أمرّ من هذا... دفعني الحب والحنين إليها إلى أن أعذرها.. وركعتُ عند قدميها قائلاً: «أرجوك.. أرجوك لا تغفلين عني.. لا أستطيع الابتعاد عنك – سهيلة حبيبتي سهيلة تعالي بقربي أبوح لك بسري، لقد اسلمتُ لك كل شيء وأتغاضى عن كل شيء – من أجلكِ أنتِ..».

- ليس لي عواطف وشجون تقبل أن تحركها وتثيرها، إنها نست كل شيء فيك يتدهور

ويموت.. لم تعد لك أسراراً – أبعد لا تقترب مني.. أحذّرك.. أحذرك..

- رسمتُك شمساً ووصفتك نهراً– وفي السماء مزناً تجود..
- انتهي وقتُ الغزل، صافت أزهار الربيع وحلّ عليها الشتاء.. فلا يأتي منك إلا الصقيع.
- أنسيتِ؟ أنسيتِ.. كيف ألتقينا؟.. في تلك الحديقة.. صباح يوم عيد.. وماذا قلتِ وماذا قلتُ وعندها تواعدنا..
- ماذا؟.. لا أريد ذكرى وقصة تحاول بناءها – لا تذكرني مرة أخرى – أنا لا أحب القصص والخرّاف..
- **أتيتِ إلى مقدسي في وضح النهار وحاكيت حبي بصوت الهزار**
- توقفتْ شجوني وانتهى ليل الأغاني – أما يكفي هذا؟! أما يكفي هذا؟! لقد قلتُ لك..
- أما تخافين الطلاق؟ أما تخافين الطلاق؟

تقدمتْ ثم وقفتْ ورائي ومدّت يدها اليمنى إلى ظهري – وبإبهامها وخزتني لحظات قليلة وجدتُ نفسي مدفوعاً خارج الفيللاّ في ملابس رقيقة لا تتجانس مع ليل أوائل الربيع.. تلفّتُّ يميناً ويساراً.. جلستُ على حجر قرب الباب متذمراً مهموماً وجهي كابيء بين ركبتي ويداي مدلاة على الأرض، أحصي الدقائق انتظر حلول الصبح.. غبار متحرك وريح باردة تمسح وجهي وتتخلل إلى ضلوعي.. شعرتُ بقشعريرة هزّت أوصالي وانتفضتُ رافعاً وجهي إلى أعلى.. استيقظتُ من سُكْرِي.. اشتدت حيرتي وتضاعفت أوجاعي.. رغبتُ في تناول سيجارة – لم أجد في جيبي شيئاً منها، لقد بقيتْ هناك مع الذي كان لي.. رغبة مُلِحّة في جرعة ماء تطفئ سعير اللهب الذي يتأجج بين ضلوعي – ولكن لا ماء ولا تبغ ولا أنيس.. امتدت من أمامي الدروب الصعبة والصور المشوهة والخوف، لقد سحب الزمن يده مني وتركني وحدي – الأيام ميزان يد بيد ومكيال بمكيال.. ما تأخذه في الصباح تدفعه في المساء – آه! لقد رحل كل شيء مع رحيل العمر.. العمر كسوق[1] حامية في الضحى.. انعقدت ثم انفضّت.. ولم يبق إلا الأثر.

(1) الأسواق التي كانت تقام في الفضاء الطلق.. بين القرى على سجية الطبيعة.

تسارعت الدموع، وملأت النجوم عيني تتسابق لتستنطق حالي .. أُوه! ما أقسى هذا!!»
أُخرجتُ من بيتي عنوة بيد أحبّ الناس إلى قلبي، وقُذفتْ بي خارجاً في الفراغ المظلم.. احتار في أمري واستغرب فيما يجري، وكيف تتفاعل الأحداث وتنساق المقادير.. لا أقول إنها عقدة تحيّر المُشاهد ونتيجة عاصفة غير متوقعة.. مصابيح الحقيقة لا تنطفئ ولكن العلة في سرعة وعنف التّيار، المضامين المقدسة والقصص التي حكتها الألسن وألفها العباقرة في الزمن المنصرم لم تضع هكذا بلا مداليل تسندها، وحكمة تعزز ثباتها - فلا شيء يأتي من فراغ.. ولكن أنا الذي بنى هذا الفراغ من ألوان الطيف في صحاري السراب.. يا ليت لي عمراً آخر!..

إني ارتعد من البرد - عيناي آلمها الغبار.. إلى أين أتجه؟ ما أصعب الاختيار في هذا المحك، وكيف أعود إلى القديم؟!. انطفأت الأضواء، تلاشى الوهج، ذهبت السيارات وسكنت الساحة - أبهذه السرعة تتلاحق الساعات ويخبو الوميض وتجف المياه وتتهدم القلاع الحصينة؟! وبهذه النـزعة النافرة تنقلب الموازين وتتهاوى الهمم وتُختتم عقود النهاية؟!. يا لا حكمة الحياة وسخرية القدر!! - حتى الحيوانات الأليفة لم تجرأ واحدة على الاقتراب مني - هكذا أرى نفسي واحداً وحدي - أين أصدقائي؟! أين سمّار الليل ورفقاء النهار؟ - أين الجواري وهمسات الحسّان؟! - كأني لم أكن إلا في مشاهدة لعرض سينمائي.. عَرض أحداثه ثم توقف.. وبردت الشاشة وتلاشى كل شيء.. ما أغرب الأيام!.. الذي حصدناه في سنين.. ضاع في موسم واحد - أتعجب من سطوة هذه القوانين، وقوة الاندفاع إلى الوراء - الآن فقط أدركتُ الحقيقة كاملة - ولكن متأخرة جداً.. عرفتُ أن وميض المجد الذي كان يتلألأ ويتوهج من حولي.. في الحقيقة لم تكن قوته تصدر من مصادر حلال ومدّ ثقافي وتقدير تجاري وصيغ ذهنية تواكب الحاضر.. تجارة الصدق وتحالفها مع الضمير الإنساني، صارت بائرة ونشاطاً عفا عليه الدهر، بقدر ما يحّط الرحال وتضرب المضارب حول وميض المال وبهرجة الثروة.. القيم ومكارم الأخلاق وإفادة العلوم باتت ضرباً من ضروب الخرافة والضحك - هذه تربية اليوم، وما تعاقد عليه هذا الجيل.. لو تدري أيها الغافل عني، قدر الكتل العديدة التي ملكتها من الدينارات والدولارات والصكوك المصرفية وسبائك الذهب والعقارات ومزرعة كبيرة وسيارات.. وحتى الخدم!. أكيد لا تصدق!! ولكن للبحر مدّ وجزر وللنهار طور وقصّر.. والعمر كالأيام صفحات متقلبة..

الحكمة مَاسَة ثمينة تخليتُ عنهـــا عندما فقدتْ زورقي دفّتها وأحد مجدافيها

صحوت تماماً، وتفجّرت في أعماقي مرارة المأساة.. لم أعد أطيق الجلوس.. نظرتُ إلى الباب الموصد، أجلتُ الطرف هنا وهناك - ثم قمتُ متأوهاً كالسابل المتعب الذي قام لمتابعة طريقه بعد راحة قصيرة استلذ مقامها.. انحدرت من جفنيْ دموع من فعل عبرات معبّرة صدرت من أعماقي.. سرتُ مبتعداً دون أن ألتفت إلى الوراء - يدفعني شعور بالإذلال والحيرة المفاجأة.. يداريني الظلام - وحالاً ما تلقفتني الدروب.. امتدت من أمامي المسافات.. قدماي الحافيتان أتعبهما التراب الخشن وآلمتهما الحجارة المبعثرة.. سرتُ وسرتُ.. وهل وصلتُ؟ وهل لي مقام معين؟ أو منـزل آوي أليه - أعرف إني أسير بلا هدف ولا غاية أقصدها.. ماذا هنا؟ هل وصلتُ؟ غريب هذا المكان - غريب - المكان شاسع والزمان بعيد- أنفاسي تزفر والخطوات تقصر - لا أستطيع تجاوز هذه الوهدة - أوقفني التعب - ها أنا عند أقدام هذه الجبال المتلاحقة الممتدة أمامي كالجدار القديم تتحدى قدومي وترفض مقامي هي الأخرى، غابت الشمس، جنّ الليل وانتابني الخوف. التفتُّ إلى يميني وإلى يساري، ثم تراجعتُ قليلاً إلى الوراء في حزن باكّ، ولساني يردد «ما أطول هذه المسافة الموحشة - كنتُ أخاف غروب الشمس ويأتيني الظلام دون أن يصادفني أحداً. جفف العطش ريقي وألْهب حنجرتي..».

مازالت عيني معلقة في التلال الصاعدة، نفسي ترنو إلى بعيد .. خواطر جديدة مترابطة تتزاحم على ذهني تنبعث من هناك- هناك من اللجة الساطعة والخط الأبيض العريض الذي يمتد كالمحور يشق العباب يتابع مسار الشمس.

سرقت ثروتي، استولت على أملاكي عندما ضعفت قوتي وتبلّدت أعصابي، بعد ما تراجع النهر ونضبت مياهه ووهن العظم هانت كرامتي وعبثت بشرفي، ولما اضطربت يداي ومال نصف جسدي الأعلى إلى الأمام، دفعتني خارجاً إلى العراء في رابعة الليل، وأغلقت الباب من خلفي بشدة، قلتُ متعجباً وقتها، وعلى لساني مسحة من الحيرة والتحسّر - كأن الأمس كله ساعة من هذا النهار.. إيه يا سهيلة .. كيف كنتِ.. ومن الذي أخذكِ من حارة براريك[1] الصفيح؟ من «براريك» باب عكّارة.. كيف كنت يا سهيلة؟! وماذا كنت ترتدين؟. قميص متصل أو مكون من قطعتين، وأرجل حافية - جسد رشيق ووجه جميل - وعندما عرفت أمك أنكِ زهوتي في عيني، تركتْ لنا البّراكه وجعلتنا في خلوة، وعَزَمَتني على الغذاء وأعدت لنا وجبة كسكسي بلحم رأس خروف.

إني وحيد في هذا المنعرج المتجهم - إني خائف ارتجف- هل من ساكن جنبي؟ هل من طريد مثلي؟ هل من أنيس؟ لا شيء؟؟ إلا صوت الصمت.. يتحول صوتي إلى أصداء تتناقلها الجبال كضحكات جنّ ساخر.. آه! إني لم أعد أقوى على الوقوف - الوحدة تحتوني والبرودة تكاد تقتلني - أيها الليل ذرني بعيداً لم أعد في حساب الشمس وزناً - قدماي اعيتها مسافات السنين وعثرات الحفر - الآن أدركتُ إني كنتُ من الماضي البعيد - وإني كنتُ في ركب الخيال - وإني تحولتُ إلى ظل.

(1) أكواخ.

إن زماني بلا حساب وعمري بلا ثمن.. الزمان قصة، وأنا تخليت عن زماني من أيام تولّت، حتى صار كومة غامضة ملتفة بلا مدلول - لم أتركه، حملته على ظهري وعرّجتُ به إلى أكبر المحطات والأسواق الرائجة لأبيعه، فلم يشتره أحداً حتى بثمن بخس - وأخيراً دفنته في عمق مثل الحفرة الكبيرة التي أمامي- من يومها شعرتُ كأني في خفة الريشة - صرتُ طليقاً جوّاباً بدون اتجاه محدد.. توجهني الرياح وتسحبني الدروب إلى مقتضاها.. خدعتني جلبة الأسواق، واختلاف المشاهد والحياة الناعمة وسلاسة الأحداث: تجولت كثيراً ورأيت أكثر.. وجدت الجهل والفساد يسريان في العالم سريان النار في الغابات العطشى.. فساد الأرض يصبو من فساد النظم وتهتك بنيان الحكم .. وكأني مازلتُ على تلك المقعد في إحدى الصالات لمشاهدة عرض سينمائي.. وأنا أنظر بتعجب كيف انخدعت جماعات كثيرة في أصالتها ورسالتها، وكيف تدرجت منحدرة من جبالها العالي موطنها الأول إلى السهول الواطئة، وكيف تخلّت بسهولة عن خيراتها وموروثاتها الثقافية وهويتها التاريخية، ودخلتْ في شرك القوانين الوضعية التي صنعها المريدون والمرابون والمتشككون والزنادقة، وتحولت أفراداً مسوّمة بلا ظل ولا مضمون، تنساق وتخضع لتعاليم ومسلمات تتنافي وروح الفطرة ومبادئ الحياة التي نشأت عليها في تلك الأعالي الرحبة، ففقدت حريتها وتنازلت عن كرامتها وشجاعتها إلى الأبد، وصار منطقها الكذب ووسيلة تعاملها التملق والنفاق وعبادة الحواة - أصبحوا عبيداً يسلكون مسلك النعاج، ولا يدركون من خطوب الحياة إلا ما يُقذف إليهم من فُتات وبقايا الموائد، والطاعة العمياء لأوامر السيد دون أن يرفعوا رؤوسهم إلى أعلى، أنظر كيف تعصف مجريات الدهر وتُقلب الموازين بالأمم والشعوب والأفراد، عندما يتحدد فهم معنى الوجود وهدف الحياة على ما يؤكل ويُشرب ويُلبس، وتغيب عن أذهاننا الغايات السامية التي من أجلها خُلقوا وجاءوا إلى هذه الدنيا - ورأيتُ أيضاً أن «الدينار» هو السلطان وحاكم الزمان.. هو القوة والأمانة والشرف واللسان والمحرك لمقود العالم، وشاهدتُ أنماطاً وأساليب مختلفة بين بيع وشراء وتبادل مصالح في المحطات الكبيرة وما يجري فيها من أدوار.. الحكم غاية فئة وهدف شخصي.. لم يكن في الواقع حول مبدأ أو مذهب أو عقيدة.. بل إنه مجرد صراع سلطة وتجاذب ونفوذ وتبادل مقاولات .. باعتلائي مركب النفوذ، انفصلت عن كياني القديم، وصار نسياً في ضمير الجيل الغابر.. ولم يبق لي منه إلا هذا الهيكل العظمي المتهالك الذي لا يقوى على حملي.. وها أنا الآن واقف لاهث متوجّع،

حاني رأسي أسند جبيني على منسأة الندم – يا إلهي!. لِمَ أقول هذا الكلام؟ ولمن ينطق هذا اللسان؟..

تسرّب إلى كياني الخوف والاضطراب – أحملق فيما حولي – لا أرى إلا المسافات التي لا تحدد – وعلى حين غفلة لمحتُه. بدأ كالوهم وراء الغمام يظهر ويختفي، ثم تلاشت عنه الظلال، وصار شكله يأخذ في الظهور، وتتضح هوامشه، مسحتُ جفني ودققتُ النظر فيه عدة مرات – عجباً ما هذا؟! إنه شخص، يشبهني تماماً.. ماذا يعني هذا؟ هل هو مطرود مثلي؟ ولكن لِمَ لا يعيرني أي التفاتة؟ لا شك إنه أحس بوجودي – هل أناديه؟ أنا لا أعرفه – لا أحد فينا يدري من هو – ولا حتى من أنا، لكل نفس تاريخ ولا أدري تاريخ نفسي، لكي أعرف غيري لابد من أن أعرف من أنا..

وحشة الليل تخيفني والوحدة تقتلني والبرودة تحتويني من كل جانب.. من تراه يكون؟ ألا من مساعدة!؟. يبدو أن كل ما أراه حولي يتحرك ويميد – منساقاً إلى هذه الوهدة – إلا هذه الجبال – أو ذاك الذي يقف بعيداً نافراً متبجحاً يتحداني دون سابق معرفة، لِمَ تراه هكذا بهذه الصورة المترفعة؟ لِمَ لا يقترب مني؟ أليس هو من البشر؟. ووحيد مثلي؟ إنه أصغر سناً مني وأشدّ قوة – لا بأس– سأتنازل وسأجمع قواي وأناديه بأعلى صوتي .. «أنت.. أنت أيها الواقف هناك فيم تنظر؟ هل أنت حائر مثلي؟ رمتك دوامة الأيام؟ أنا شعرتُ بوجودك من لحظات – أحب غيري كما أحب نفسي .. أنت ..أنت!.. أيها الواقف – مدّ يدك، يدي ممدودة إليك.. أرجوك لا تخيّب ظني ولا تقهر رجائي..» يخرج صوتي متدرجاً، ويتحول إلى أصداء متلاحقة في الفراغ الواسع – ويتكرر النداء – وفي المرة الثالثة تحرك قليلاً ورفع أنفه متكبراً، ونظر لي بربع طرف دون أن يَلْفتَ لي وجهه ثم قال بصوت يكاد يكون مألوفاً لي.. «لا أدري لِمَ تناديني في هذا الوقت المتأخر؟ نسيتك، حسبتك متَّ من زمان – عجباً– لا أحسبُ أن العظام النخرة يعاد إليها اللحم والدم في عمر واحد.. من باع عمره في الطيش مسح ووارى كل كيانه المتأخر».

– أتأنبني؟.. أتعرفني يا هذا؟...

– طلبتني لأنك وحيد وخائف ولم تجد غيري، ولا تقوى على مجابهة الظلام – لقد غربت شمسك.. وحل ظلام ليلك.

- ما أوحش هذا الفراغ! أرجوك لا تبرح مقامك هذا - وإن تكرّمت اقترب مني حتى أبادلك الحديث وتشعرني بالدفء والأمان- أنت.. أنت بشر مثلي.. إني أحنّ إليك.. أنت مني.

- عجيبة.! أأصبحت تدرك الوحدة؟ وتحس بغيرك؟ وتشعر بدفء الآخرين؟ وتريد الاقتراب وتبادلني القول؟! سبحان الله!. ما أقرب الأمس باليوم - الأيام ليست لأحد. «المتغطي بالأيام عريان» حتى وإن كانت الطريق طويلة لا تنتهي، فإن للكائن الحي محطة تلزمه الوقوف فيها - أقول لك لماذا ابتعدت عني؟ طبعاً لا تجد الجواب المقنع - أنا لن أعود إليك، لأني نسيتُ لغتك - منطقك اليوم بلا حكمة وسيرتك بلا موعظة.. أنت رجل نزوات، مغمور في جبّ الملذات.

- أنت لا تشعر بما يموج في خاطري ودعاء وجداني وقلبي..

- قول من الخاطر وطفرة من طفرات الحنين العابر.. أنت فاسق.. أنت خائن.. أنت دمار.. عدت لا تصلح لشيء.

- لا يا سيدي أنا صادق النية وافر الشعور - من أنت؟ ومن أنت؟ أنت تعرفني جيداً.. ما أجمل مثل هذه الصدّف! هيا أريني وجهك ليطمئن قلبي.. هيا.. أقسم بالله إني صادق الشعور!.

- غريبة!! وتذكر اسم الله أيضاً؟!. وتلح بهذه الدرجة؟ فعلاً إنك خائف ترتجف..

- أنا إنسان.. أنا وحيد.. أنا من الصنف الذي لا يحتمل التفرد.. تغلّقت الأبواب في وجهي.

- نتيجة معهودة تحدث كل يوم.. هذا مصيرك ومصير أمثالك.

- كيف؟؟..

- عدت عندما توقف قطارك.. وأنزلوك في محطة مفترق الطرق - وتركوك بلا هوية.

- من أين عرفت هذا؟..

- من ملامح وجهك الحزين ومقامك الحائر.. تخلّت عنك القافلة وتشابهت عليك السبل..

- كلماتك جارحة جداً.. ألم يكن لديك.. أفضل منها؟!

- طبعاً هناك الكثير.. ولكن هذا الذي تستحق.. كنت تنطق بالعبر الرائعة والحِكم الصائبة – ولكن بكل آسف لم تعد تعمل بواحدة منها من سنين توارت.

- يا هذا!! إذن أنت قريب مني، وتعرف عني كثيراً – ولكن كيف لا أعمل.. صرفتُ حياتي كلها في الخير والعمل الجيد المتواصل؟..

- أسوأ ما في الرجل أن يكذب ويخدع نفسه.. منذ لحظات فقط كنت تقول في أعماقك أشياء كثيرة.. أنت كذّاب.. أنت كذّاب!.. مراوغ لا بركة فيك..

- يا هذا أتعرف حتى ما أخاطب به نفسي؟ أعرض عن أفكارك هذه – أرجوك – أنا لست من لا شيء – أنا رجل صالح ومن عائلة كريمة ومن الصنف الرفيع – أنا مُعلّم ومربّي الأخلاق الفاضلة في الجيل الجديد – لا شك في أنك على دراية واسعة بسلوكي وسيرتي الذاتية.

- لا تحاول مداراة عين الشمس بغربال – مهما تراكمت السحب، فإنها لا تقوى على تغطية وجه القمر – لا تخدعني – تعدد الصدمات وتوالي المفاجآت المؤلمة فيك وأمامك جعلتك لا تفرق بين الاختلاف ولا تميز بين القبيح و الجميل – أغلب ماضيك مثخن بالآثام – لم يكن رجوعك هذا فضيلة منك – بل نتيجة لمنطق أحداث مؤلمة – إنك مطرود.. مطرود.. لا وزن لك.. مطرود!!.

- أ أ أنا.. أ أنا.. أنـ...

- لا ترتجف.. التعتعة لسان الخوف – لا تقل شيئاً آخر– أنا أدرى بك من غيرك.. وربما حتى من نفسك كما قلت سلفاً.

- من أنت؟ من أنت؟ هيا قل.. لِمَ هذه المجابهة الصارمة؟ وهذا التجريح كأنك عدوي.. أعوذ بالله – لم أكن يوماً في مستوى هذه الاتهامات الظالمة.

- أنت صورة مشوهة لمخلوق بشري يترامى في دروب الضياع...

- لا لا.. أنت الذي تحمّل هذا...

- أنت تافه.. أنت دمية.. أنت.. أنت..

- آ!! إلا هذا! كرامتي فوق كل اعتبار.. إني أحذّرك.. لقد تجاوزت حدّ الزبى.
- ها.. ها.. ها... ربما هذا زمان تستطيع أن تقول هذا بغلظة اللفظ.. ولكن اليوم أنت قشة.. أنت بعرة في عص كبش - لا أحد يشعر بك ويقدّرك - حتى الذباب لا يرضى أن يلامسك احتقاراً في ذاتك..
- ألا تراني أبصر؟. ألا تراني أمشي؟. ألا تسمعني أتكلم؟. ألا تراني إنسان؟ لِمَ....؟
- لأنك من الحانثين - انحرفت بعيداً وتخليت عن ما عاهدت عليه..
- أنت كاذب أيها المتسول - أنت مدعي.. أنت أكذوبة وظاهرة غش...
- ما تعودتُ أن أقول قولاً بلا مضمون... أنت لص، أنت فاسق، أنت خائن، وبائع الذمم..
- إذا كنت رجلاً أقم البينة؟. هات ما يثبت - وأن لم يكن.. فإن حجتي قائمة عليك، ثم أحولك إلى من يعرف من يقوّم عليك الحدّ وكيف يثبّت لسانك المنحرف ويخفض وجهك ويحني جبينك، لم أعد أحتمل إهاناتك المتكررة أيها الصنم الناطق.. أنت صنم مغمور من بقايا الجاهلية - لسانك جامد يتحرك بطاقة النضائد.
- طيب!! إذن خذّ بمسلمات الحقائق المسجلة في عدة نقط تفرض دلالاتها.

لا تنكر إنك تتقاضى ثلاثة مرتبات مالية: من التعليم – من الأشغال العامة والمنحة الدستورية – كلها تسحبها من خزينة الدولة.. وأنت تعرف لا يجوز لك إلا واحداً..

في ذلك المساء، والشمس قد انغمست تماماً في جبين الأفق المحمر – وأنت تسير بسيارتك الجديدة الفارهة، رائق المزاج مبتهجاً فرحاً بما يموج في خاطرك، وآمال خصبة يانعة في عينيك.. ما كدت تشرف على منحدر، حتى رأيت سيارة منطلقة أمامك – وفجأة تفقد توازنها – ثم جنحت يساراً وارتدت يميناً، وانقلبت رأساً على عقب بمن فيها، وهوت منجرفة تحت الطريق.

خَفضتَ من سرعتك، واقتربت من موقع الحادث، وحاولت أن تنـزل– ولكن تراجعت عند أخر خطوة، وأنت تسمع جملة من العويل والأنين. أخفضت عينيك وطأطأت رأسك جُبناً وأشحت بوجهك– نظرت إلى الأمام وإلى الوراء، ثم انطلقت في اتجاهك كأن لم تر شيئاً ولم تترك وراءك أناساً ينـزفون دماءهم ويصارعون الموت – يترقبون منك عملاً جليلاً ونجدة رجل حنكته المواقف ومرسته الأيام وعلّمه التاريخ – لأننا في الواقع لا ندرس لمجرد الدراسة والحصول على الشهادات العليا، أو أن نثقف أنفسنا لمجرد الثقافة فحسب: «لا بارك الله في علم لا يقع أثره في حياتنا العملية والإنسانية كافة بما فيها الإنسان والحيوان والجماد».

من غرائب الصُدف أنك أنت الشاهد الوحيد في ذلك الوقت، ومن سوء حظ السيارة انقلبت وتوارت خلف صخرة كبيرة والمساء يلف بظلامه السريع. لم يدركها أحداً حتى ضُحى اليوم التالي، وأغلب ركّابها فقدوا الحياة في حينه، عدا طفلة رضيعة وأمها ماتت متأثرة بالبرد قبل ساعة من العثور على السيارة وُجدتْ على صدر أمها مما يدل على أن الأم ماتت بعد ابنتها – إذن أنت لست بسيد مجتمع يعّول عليه.

أغدقت على أنسابك الجدد المال الكثير – أهديت إلى أمها قطعة أرض وعقداً ثميناً من الماس الأصيل، وإلى أخيها سيارة فارهة. استغاثتك بك إحدى شقيقاتك، وطلبتْ منك مساعدة لعلاج ابنها الوحيد قبل أن تبتر رجله. سخرت منها وقهقهت عالياً، وأعطيتها خمسة جنيهات – نظرتْ إليك لوماً وعتاباً، وتراجعت دامعة العين – ثم رمتها على وجهك وخَرجتْ صامتة – وبعد فترة وجيزة مات ذلك الابن.

عندما طَرَقتَ الباب الكبير، ودخلت دوّامة الأضواء وهفا على سمعك رنين الهتاف، واستنشقت عطور النساء، واستقبلت من الغانيات كؤوس الطلاء، خلعت ملابسك وحارت عيناك عجباً – رقصت وتبجحت وغنيت بأعلى صوتك ثم طفقت تلعن بلا مبرر: لعنت الجلالة وانكرتَ الإسلام ووصفته كما وصفه أهل الكفر والالحاد «هو دين تخلف وإرهاب» لا أدري لماذا فعلت ذلك؟!..

- لا شك أنك سمعت عن الاستعمار الإيطالي، وماذا فعل في بني وطنك؟..
- كثيراً – ومازلتُ أسمع عن دوره الدرامي من مآسي وآلام ودموع طيلة بقائه في بلادنا.. وماذا في الأمر؟ أنا نادماً على ذهابه – يا ليته مازال.. ماذا أعطيتم بعده من تقدم وجديد؟. صياح في واد غير ذي زرع وتراجع إلى الوراء.. الأيام تنشر الفضائل والشمس لا تستر العبث، لا شيء إلا التصحر والاضمحلال.
- لا.. إلا أن أقول، أنت أخطر وأشد بأساً منه، عندما أنظر إلى وجهك ويديك يتراءى إلى خيالي قبح ما أنت عليه.. أيها الرجل أدان الباطل حقك وأبطل حجتك.. جريمتك في ثيابك تلاحقك حيث أتيت– أنت البؤس والدمار بعينهما – كفانا الله شرّك وأبعد عنا أمثالك.
- أنا! أنا! غريبة! ما هذا الوصف الكريه؟! وتمثلني بالاستعمار؟! لا لا هذا هجوم مُبَيّت عليه أنا لا أرضى بهذا أبداً – أنت مخطئ في شخصي.. لا تعرفني ستقاضيك العدالة.. أنا نقي الأصل ومن عائلة وقبيلة معروفتين في وسطنا الاجتماعي.
- القضية قضية نقاوة جوهر ومبادئ فاضلة قائمة على الثبات وحسن التصرف – أذكرّك

بحكمة القول، لا فرق عندي، من غازٍ أجنبي محتل مقبل إلى بلادي في مقام مسَتعمر يسانده العتاد الحربي، تدفعه شراهة القتل وشهوة الاستغلال، أو من ذلك الذي يبطن خلاف ما يظهر: إمام من صميم القرية مفوه بارع ويجلل لباسه البياض، يقف على رؤوس الإشهاد، يحاجج بآيات القرآن الكريم في النهار - وفي الليل يخرج في صورة خفاش أو «راسبوتين»[1].. يستغل سكون الشوارع وظلام الليل في نشر محاور الشر ونيران الحرائق من أجل إرضاء مآربه الشهوانية وحب السيطرة وبث الخوف في قلوب الناس.. الفرق في نسبة المواطنة.. ولكن الخلاصة واحدة - وبالتالي الاستعمار واضح والوقوف في وجهه والترصد إليه وأخذ الحيطة منه أقرب وأقدر - ولكن أنت وأمثالك الذين يقفون معنا في صفوفنا، يلبسون ملابسنا، يسعون بيننا، يتكلمون لغتنا، يمارسون عاداتنا ويتدينون بديننا - ولكن حقيقتهم على خلاف ذلك.

«ويعطيك من طرف اللسان طلاوة ويروغ عنك كما يروغ الثعلب»

الذي يربيني على الذل ويحرمني من حقوقي ويهين كرامتي - لا فرق عندي بين هذا أو ذاك بل ربما هذا أخطر.

- أتق الله.. أتق الله فيّ.. أنت تبشّع بي، وتحاول أن تجعلني في منـزلة لا تليق بشخصي وتاريخي - أنا مُعلّم أعلّم الجيل وعضو سياسي في البرلمان، من الذين يوجهون سياسة الدولة.
- أنت مدّعي.. لا تعرف حقيقة أمرك - شككت في مَوْروثاتنا الثقافية والتاريخية من تعامل وعادات وتقاليد وفنون ودين - لا تريد من وراء ذلك إلا أن نكون مجتمعاً أفّاقاً يقوم من لا شيء ويسير في طريق الوهم والتلاشي.

جعلت قصرك محجّاً ومقصداً تقصده زمر الضلال من الرجال والنساء لتعاطي الخمر، والمخدرات ومسرحاً للرقص الحر والإباحة الجنسية - ألوان أخاذة بهرت نظرك وسفّهت لبك.

(1) دهقان روسي - عاش في بداية القرن العشرين، وهو من المحاور الذين أوقفوا مسار القياصرة في روسيا.

مع ومضات النجوم الساطعة، تأخذني السيارة في جوفها مندفعة في طريقها متجهة غرباً. بعد مسافة نصف ساعة تقريباً، تنحرف جنوباً، على طريق ترابية تتخلل أشجاراً كثيفة وعالية تزيد من حلكة الظلام.. غابة ومزارع شاسعة، تظهر وكأنها وليدة الليل والخيال - إنها ضاحية من ضواحي طرابلس.. هدوء شامل وأنسام رقيقة معطرة برائحة الصنوبر والتراب الندي، مازالت السيارة تسير، مرّة تصعد قمة وأخرى تتلقفها وهدة. على حين غفلة، تراءى لنا منبعث ضياء- إنه سرب كبير من المصابيح المتوهجة، اقتربنا من الهدف المقصود «فيللا» كبيرة فارهة تقع على مكان استراتيجي مترامي الأطراف، يحيط بها سور جميل من أشجاره المزهرة - لا مبنى يجاورها عدا السكون والفراغ وسونفونية الهمس.

ودخلت الحافلة الصغيرة من البوابة بأمر من البواب - وعند رخام سلم المطلع توقفت وتهيأت الأبواب ونزلت منها على التوالي غيد في زمن الشباب، يرتدين الفراشية، وعندما وقفن على البلاط، انفرجت الفراشية على الوجوه، ظهرت وجوههن كالأقمار من الحُسن والجمال وينظرن إلى بعضهن وإلى الأشياء المحيطة بعيون كعيون المها، ويهمسن بشفايف من لون العناب، تناقلت أصواتهن وضحكاتهن عذبة رقيقة ممتعة كالموسيقى المليحة، تقدّمْنَ نحو الباب وكعابهن الرفيعة تطرق الرخام كطرقات الوتر البديع.. لم يكنّ الوحيدات، بل سبقهن كثيرات إلى هناك.. فيللا ذات تكلفة عالية، وإنها على الطراز الحديث في كل شيء، مزودة بكل جميل، صالة كبيرة للاحتفال، كافيتريا، بار وخط للهاتف.. ما أجمل هذه الفيللا! وما أفسح هذه المزرعة - ألم تكنّ لك؟!.. ألم تملك الكثير؟.. لِمَ أخفضت نظرك وأحنيت رأسك؟

تأخذ الغابة قسطاً من سباتها، وتبدأ الفيللا في نشاطها: تتبادل الأنخاب وتستفرغ الكؤوس، وتلتقي الشفاه بالشفاه، تُعزف الموسيقى، وتبدأ عروض الرقص.. تارة شرقي مثير للشهوة الجامحة، وأخرى غربي يحرك الأعضاء الكامنة، تكل الأجساد.. وتتراخى طائعة للرغبة. تنطفئ الأضواء وتُخلع الملابس.. وتهيم الأيدي تبحث عن الصدور الثائرة والنهود الشابة الناعمة.. فلا تدري من هي التي تتحرك بين يديك، ولا تعلم سهيلة هي في أحضان من.. تُرى.. في أي تربة نميتَ؟ ومن أي واد أتيتَ؟!..

قتلت خمسة: اثنين منهم بأم يديك - وثلاثة أوقعتهم في شباك خيانتك وشِرك أعمالك

المنحطة، فأُدخلوا في غياهب السجون المظلمة.. حتى قضوا نحبهم، وهم يحلمون كل يوم بالحرية ورؤية أهاليهم ونور الشمس.. ولا أعلم كم من الناس ظلمت وكم أكلت أرزاقاً ليست من حقك – طبعاً قبضت نظير ذلك ثمناً تافهاً، وأنت رأيته قدراً كبيراً. أنت ضحية الشّره القاتل – هل أدركت المعنى؟ وأنت واقف في هذا المساء الذي أوشكتْ شمسه أن تغرب. ههْ! لماذا تحملق في وجهي بهذه الصورة؟ نَسيتَ ذلك.. لا تحاول أن تهرب أو أن تنسى – كل جوارحك عليك تشهد ... ... ماذا؟!! تهز رأسك ناكراً – هذا لا يبرؤك ولا تحسب الناس عليك غافلة.. إن شئت أذكرهم لك اسماً اسماً وأطرح عليك القصة بكاملها! الدنيا كبيرة واسعة جداً، ولكن لا شيء يضيع ويختفي أثره فيها مهما صغر وطال عليه الزمن..

كنت تسعى من وقت طويل وبكل جهد إلى الوصول – ووصلت في الوقت الذي تريده – وحالاً ما كُلفت بها – إنها عملية شراء ضخمة من الحبوب وتوريدها من الخارج.. ذهبت بسلطان وفي الحين تمت الصفقة، نظير عمولة كبيرة جداً– علماً أن الشركة البائعة نفسها قد اخطرتك قبل البيع، على أن هذا النوع من الحبوب قد لا يخلو بعضه من تلوث إشعاعي أكيد يضر بالكائن الحي – فتبسمت وأغمضت عينيك وأغلقت سمعك.. ودخلت ضجيج البارات حتى طمس كل نداء وجداني وإحساس إنساني فيك..

أنت الآن تخاف من الليل ومن ظلامه الموحش – إلا أن فيما مضى يعتبر الليل سميرك وسلواك وفسحة مثمرة لمغامراتك – ففي ثناياه كنت تطرح خططك الرهيبة وفي ظلامه ترسل صراصيرك وخفافيشك لتمسك ولتصطاد ما تشتهي وتتمنى من ضحايا من النساء، وتأتي بهن إلى ساحات البغاء والمجون في قصرك: كم هتكت من أعراض كريمات كنّ لا يوددن ذلك!!؟ وكم قطعت روابط أسر كانت آمنة مطمئنة تتوق إلى الأصول البعيدة والراحة السعيدة.

نفخ الشيطان في أوداجك وأحاط بك الغرور من كل جانب – وأنت في إحدى الجلسات الخاصة، وفي أحد الفنادق الممتازة، صُلتَ وجُلتَ وتوعّدت وأقسمت – أن تنـزل

بصاحب من قال ذلك القول بالهلاك، وكانت مجموعة من أصحابك وندمائك تجالسك وتحاول أن تهدئ من غضبك وتلطف من سورتك المفتعلة، وكأنك سلطان على الأرض كلها – وأن سبب ذلك الفورة كلمة عابرة قالها أحد الجالسين وهو لا ينوي من ورائها إثارتك، ولكن أنت الذي أسأت الفهم أو افتعال أمر كنت ترمي إليه: لإظهار علو شأنك، وقدر قوتك ودرجة مكانتك أمام ندمائك – ضربته بنعلك وشتمته ولعنت الوطن والمجتمع الذي ينتسب إليه، ووصفتهما بالجبن والقذارة وأقسمت باليمين وقلت بعظمة لسانك: «لو أن الأمر في يدي لأعلنتُ عليهما حرباً مريرة تحرق الأخضر وتأكل العظم ولو أجد من يشتري لبعتهما بأرخص الأثمان .. حتى بألف دينار». تقصد الوطن والمجتمع اللذين أنت منهما إذا صدق فهمي... ولكن تبدو لا أصل لك كما قلتُ سلفاً.

في السنوات العشرة الماضية تقلّدت مراكز حساسة، في مؤسسات عامة ووظائف هامة في داخل البلاد وخارجها.. من ذلك المنطلق أتيحت لك الفرص الكبيرة، وفُتح أمامك المجال على أوسع أبوابه وتدخّلتَ في كل شيء وصلتْ إليه يدك، ومن أهمها أنك عكست موازين كانت سائدة وقتئذ ويعمل بها من ضمن موروثاتنا وعملت على إبطالها على اعتبارها أنها من القديم، لم تعد تُجاري تيار اليوم، ولكن في الحقيقة ما هي إلا صيحة هدم وتدمير ضوابط وخلخلة ثوابت: ساد الاحتكار وانتشرت الرشوة وراجت حركة أسواق السوداء وتجارة المخدرات، وحلّ مبدأ عدم المبالاة وترك الحبل على الغارب وتضاءلت فاعلية القيم وتدهورت الأخلاق عند الناس وتنكرت لروابطها المقدسة وأصالة بنيتها، انحنت همم الرجال وتلاشت نخوتها، وانساقت تتسابق بلا وعي على تجارة اليوم والساعة دون أن تعي خطورة هذه الطريق متخذاً مبدأ: «ماري جارك وإلا سكر باب دارك»..

- كفى يا سيدي كفى.. عززت شكوكي في نفسي - أنا دعوتك من أجل أن تحاكيني وتأخذ بخاطري، وتعينني على وحدتي وبلواي لا أن تثير همومي - الناس!. الناس هم السبب! أرجوك لا تؤاخذني - لا تأخذني بصورتي الظاهرة، أنا جميل أنا من أصل كريم قريتي ترتوي مطراً كل عام ولا تبرحها الطيور ولا تعصف عليها رياح الغبار..
- أنت؟! أيها الحانث.. أيها الغراب البشع.. أنت مثقل بالآثام.. أنظر إلى يديك، إنهما يشبهان مخلبي عُقاب.. ماذا بقى فيك؟ لا شيء، قبض ريح - حتى الحيوان الأبكِم الذي يعيش في مجاهل الغابة أدرك مغزى الحياة وقيمة الموجودات، وجعل لها نظاماً وضوابطاً استمدها من وحي الفطرة التي أوجدها الله فيه، توجهه وتحدد مساره فلا يأكل إلا بقدر ولا يتعدى إلا بحدود - سأستحضر لك الأكثر مرارة.. اسمع ... ...

ألم تكن أنت، ذلك الجالس في بهو فندق سانتا جوليانا في روما – كنت في ذلك الفندق الرشيق ومعك اثنين من الضيوف، تعرّفا عليك وانبسطاً لوجودك جالساً منفرداً.. يبدو أنهما صاحبا مكانة اعتبارية.. وقفا قليلاً ثم استأذنا وطلبا منك السماح أن يجلسا.. وأنت تكرمت دون أن تتأمل فيهما جيداً.. أحدهما كان يصطحب حقيبة دبلوماسية والأخر معدات صحفية.. يظهران لك وجه البساطة وعدم التكلف، وكأنهما من معارفك.. قدّم أحدهما علبة سجايره الفاخرة.. نما بينكم حديث متواصل ومتفرّع لا يرتكز على محور معين.. كنت كثير الابتسام، قليل الكلام، لأنك لا تجيد الإنجليزية.. أشرت إلى الساقي، وطلبت كؤوساً من الراح الرفيع الدرجة.. تعرفا عليك أكثر وقرءا نفسك وتعابير وجهك وحركة يديك وفضائل كرمك.. نظر أحدهما إلى أعلى وإلى أسفل، ثم ركز على وجهك في شيء من الجدّ والتفكير العميق – وقال بعد أن استعار ابتسامة ماكرة..

- ألست السيد ... ... يبدو أنك رجل معروف ومشهور أيضاً في الوسط التجاري والدبلوماسي وتملك حصانة الشرف الاجتماعي، ونعرف أن هذه الميزة ليست مقدرة حتى على القليل من الناس المعتبرين.. هكذا سمعتُ من روّاد هذا الفندق – ومن خصوصيات هذا الفندق أنه لا يتردّد عليه إلا القلة من علية القوم.. إنك من الصنف من الرجال الذين أميل إليهم.. إني أحبكم في الله.. من خلال جولاتي ومقابلاتي ما وجدتُ في الليبيين إلا اللطافة والكرم والتعاون والقبول والوجه الباسم الجميل.. إنكم لطفاء حقاً.. أنتم تختلفون عن باقي العرب الآخرين.
- لست أنت وحدك الذي يقول هذا باعتزاز.. يبدو إنك من مفخرة الناس أيضاً.
- لا تتركني ابتسم أكثر..
- المجد لا يخفي نفسه – يا ساقي هات بما سقيتنا – لقد فرغت كؤوس الطلاء.
- هل تشربون الخمر في بلادكم؟
- أحياناً...
- بلادكم كبيرة.. وفيها صحراء شاسعة..
- نعم.. وماذا بعد؟
- التجارة صفقات – هل أنت من الذين يتقصون حدودها ويجوبون رحابها وميادينها؟..

- ليس إلى هذا الحد ..
- يا ساقي تعال... ألا ترى كؤوسنا فارغة مهجورة!؟.
- تراها قمحاً أو شعيراً؟. أجباناً أو حريراً؟. أراها من أي سلع تجارتك؟
- لا من هذا.. ولا من ذاك – صفقة سهلة، سريعة – لا تدفع نظيرها شيئاً بل تستلم مائة وخمسة وسبعون ألف دولار...
- أهكذا دفعة واحدة؟! ما هذا؟..
- وبدون تردد..

تبسمتَ وانشرح صدرك فرحاً وطمعاً – تحركت وعدّلت من وضع جلستك وربطة عنقك.. وقلت مستغرباً ومتعجباً معاً:

- ما هي هذه الصفقة؟
- مخلفات وبقايا مصانع – تؤخذ وترمى في الصحراء بعيداً عن العمران.
- إذن مخلفات نووية – ملوثات ذرّة ومنطلق إشعاع؟..
- ليست كلها...
- كم؟
- خمسة وعشرون حاوية..
- لم لا تُرمى في بلادكم؟. كل بلد لديها صحراء وجبال.. وبحار..
- دفنّا الكثير منها.. هذه البقايا من عناصر الحضارة القائمة.. من المنطق والمعقول أن توزع على بلدان العالم كله– لأن الفائدة للجميع.. وكذلك الخسارة أيضاً على الجميع..
- هذا صحيح.. ولكن لم يقدم لنا شيئاً بلا مقابل بل بأثمان مضعّفة.. هذا قدر كبير من الملوثات..
- خمس وعشرون حاوية قدر كبير في صحراء تقدر بخُمس أفريقيا؟. وفي فراغ أبدي؟!
- مخلفات نووية!!؟.. مخلفات نووية لا تحتملها أرض ولا مسافة..
- تدفن في جوف تلك الصحراء بمقابل هذه الآلاف من الدولارات الساخنة.. هيا لا تضيّع هذه الصفقة.. البديل موجود.. عندكم أو عند جيرانكم.. وأقل ثمناً.. وبالتالي هذا لك أنت وحدك – ولا أحد يدري.

- كيف الأمر؟

- الآن الكمية على قارب في البحر.. يرسو القارب على أحد الشواطئ المهجورة، وتؤخذ الكمية بسيارات ومعدات وتدفن في جوف الصحراء.. ولا من رأى ولا من سمع.. لدينا كل التسهيلات.. إلا ضمان موقع التفريغ ومكان الدفن، وحماية وسرية العمل.. حتى يدارى كل بارز ويخفى كل شعاع، ويمحى ويغطى كل أثر.. طبعاً تعطينا خريطة البلاد لدراسة الموقع، والمنفذ الذي نسلك منه بمعداتنا وسياراتنا إلى الداخل.. وطبعاً أنت موجود معنا..

- ولكن هذا عمل لا يناسب وطنيتي.. فيه خيانة.. كسر ميثاق وتخلّي عن عهد.. جرحتا كرامتي وأحبطتا همّتي وقللتا من شأني..

- التجارة والمتاجرة.. والسياسة.. لا تعترف بهذه الأشياء التي ذكرتها.. أعطي بقدر ما آخذ أو أكثر.. هذه فلسفة سياسة اليوم.. خذّ و إلا أترك.. وإذا تركت فهناك من يأخذ.. لأن ليس هناك من يحاسب.. نحن نعرف هذا..

- ولكن هناك معسكرات، مصانع، مشاريع، نشر غابات، مدّ طرق...

- ها.. ها.. ها.. لا تخف.. خليك واقعي.. ولكي تعرف نحن الذين بنينا المعسكرات وبنينا المصانع وزودّناها بالمعدات ونشرنا الغابات وحددنا نوعية المشاريع وتخطيط الكوادر.. لا تذهب بعيداً.. أعْين المخابرات، كَمَرات المراكب الاصطناعية الفضائية لا يخفى عليها نملة تحمل حبة قمح في جحرها.. الخارطة من أجل مكان التنـزيل فقط، والدخول إلى المكان الملائم- هذا هو الذي يهمنا.

- «الله يعلم، وأنا أيضاً أعلم.. وربما أنت مازلت لا تعلم.»

- أنت... أنت أيها المطرود... نمت.. أو سرحت في مشاهد ماضيك الكريهة.. ربما كنت وقت ذلك لا تعلم عن سرّ هذا الدمار المتواصل - أعرف إنك مازلت تذَكر ذلك بكل وضوح- إنها من أكبر الكبائر- ساهمت باصطحاب بركاناً نشطاً وحفرة هائلة من الجحيم إلى وطنك الحبيب.. هالة من الإشعاع النووي المميت الذي لا يتوقف ولا يفنى، يسري

وينتشر مع كل هبّة ريح أو سيل من سيول الأمطار أو مياه جوفية وينتقل مع كل عود أخضر للإنسان أو للحيوان، ومع كل ما يؤكل ويستنشق- بركان من الدمار الخفي يسري إلى كل جسم حيّ.. لا يلزمه طقس، ولا تحدده مسافة ولا يعالجه دواء.. إلا من رحم ربّ - ضرب لا يحصى من السرطانات الخبيثة.. موت يفتت الجسم، عقم لا علاج له وأمراض فتاكة لا عهد لنا بها.

- ماذا أقول؟! ماذا أقول؟! يا لهذا المساء الغريب! أنت القاضي، أنت الادعاء، وأنت الدفاع.. وأنت المحكمة - إذن أنا من يرافع عني؟ من يحاميني ويغسل عن جسمي هذه الأدران؟..

- لا شيء غير الحق..

- لقد قلتُ وبّرأتُ نفسي.. ولكنك تجابهني بتهم ومشاهد لا تنصف ولا تتوقف.. أنا إنسان.. أنا إنسان.. الناس هم السبب..

- الإنسان بسلوكه ومعاملته الحسنة، بعيداً عن الغرور والطمع - الإنسان بعلمه وثقافته ومواقفه المشّرفة.. هذا هو الإنسان الموزون الذي لا تهزه تيارات العواصف.. صنّاع الحياة هم عشاّق الوجود ومدركوه.. ماذا أقول لك؟ أذكرك ولكن لا أود أن أعضك - لأن زمن العضات تجاوزتك وتخلّت عن مسارك.. صرت وهماً طافحاً.. زمان وما أقرب الأمس باليوم.. كأنها الساعة.. ألا تعود معي إلى الماضي؟. ذلك الذي صار زمناً في حكم القضاء ومجريات التاريخ.. والتاريخ نجم شعّاع لا يهرب ولا يخفى عن كشّافاته الساطعة أحداً.

تخرجتَ من معهد المعلمين مدّرساً، ثم مدّرساً ومديراً لمدرسة القرية.. صعد نجمك وتجاوز الأفق، لأنك سرت في اتجاه ميول أهل القرية، ضربت خُطىً واسعة في نشر العلم وبعض الثقافة، وساهمت في التقليل من نسبة الأمية، خصوصاً بين الذين تجاوزوا عمر الشباب وفاتتهم فرص التعليم المبكر، اعتدت أن تذهب إلى المسجد مبكراً خصوصاً يوم الجمعة، لتلقي درساً في الحياة، تثير المسامع وتحرض الفكر على الحركة واليقظة والوثوب من أجل الدخول في زمن اليوم، عسى أن يتغير وجه التاريخ، وحتى لا نبقى عالة على الغرب وسوق استهلاك لبقاياهم.. دخلتُ يوماً.. وجدتك في خضم درس منطلقاً كالسهم المارق،

تُقلّب الأحداث وتعرض المشاهد في شيء من الإبداع الفطري.. كان ذلك في آخر وقت قبل موعد الصلاة وآخر جملة.. «ودخلت تلك الفئة الهاربة المضطهدة، متسللة تحت جناح الظلام، خائفة على دينها الحبيب، ومنذ ذلك التاريخ استوطنت المسيحية نجران.. وهكذا الأمم وهكذا التاريخ.. وهكذا أيضاً صراع الأديان والحضارات.. والتفوق.»... ... ...

هل من سؤال؟ هل من سؤال؟ سأجيب.. وقت حضور الإمام لم يحن بعد.. هيا.. هيا..

- أنا كثيراً ما أفكر بيني وبين نفسي – هل نستطيع أن نحارب غُزاتنا، ونحن على هذه الحالة.
- ما معنى «ونحن على هذه الحالة».
- جذب، فقر وحيرة – من كسب اليوم قُوته، لا يعلم ما مصير غده.. نحن في ضياع يا أستاذ.
- سؤال كريم يا سيد عبد الكريم.. لِمَ نحن فقراء يا سيد عبد الكريم؟..
- لا أعلم – وجدتُ والدي فقيراً – وها أنا ربما أكثر فقر منه.
- وهل أنت راض على فقرك؟
- الحمد لله– الفقير حبيب الله.. والفقير هو فقير الدين...
- إذن لِمَ تسألني؟ ولكن لِمَ الفقير حبيب الله؟ وهل الغنّي عدو الله؟ من علّمك هذا؟
- الشيوخ وأئمة المساجد.. الجنة مأوى الفقراء.. هكذا يقولون.
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا يا سيدي أقول العكس.. بل مأواه جهنم.. لأنه لم يحس ولم يدرك، ولم يؤدي دوره الطبيعي في الحياة، التي وهبها له الخالق «اليد العليا خير وأحب إلى الله من اليد السفلى.. أي الفقير» الإنسان الذي عرف الله بعلم وإدراك.. لا يجوع لا يضيع ولا يخاف.
- لا إله إلا الله..
- محمد رسول الله.. أيوه.. أنت عمّي فرج.. تفضل عندك سؤال؟
- عبد الكريم بلحاج يا أستاذ ذكر كلمة الغزاة ثم تجاوزها.. أو تجاوزتها أنت..

- صحيح.. تفضل.. ولكن قبل أن تسأل.. ما رأيك في الفقر وأسبابه؟..

- الفقر.. الفقر! الفقر هو الفقر.. حيث يوجد الجهل يوجد الفقر.. هكذا حسبما رأيت وقدّرت.

- الفقر يا عمي فرج ليس قَدراً.. بل من صناعة الفرد.. أو الجماعة، أو الشعوب المهزومة في عقلها مهجورة عن تفكيرها وخائفة في قلبها.

- أنا أيضاً رجل من هذه القرية، واعتبر نفسي فقيراً مثل الكثيرين منهم.. إلا أنني أقوم بالمتاجرة مع بعض التجار في بنغازي.. وكما قلتَ يا أستاذ.. الفقر لا يوّلد إلا الفقر، والفقر يوّلد الجهل والهوان.. أهل الكفر والإلحاد يملكون كل شيء، وأحباب الله لا يملكون إلا القليل الضامر.. لديهم الطائرات والمدافع والبارود، والأساطيل والرجال المهرة.. والصناعات والمخترعات.. ونحن لا نملك إلا الفؤوس والحمير.. إنهم يتملكوننا ويملكون كل شيء عندنا.. ألسنا الذين فضلنا الكفر عن الإيمان؟.. بعد الإيمان..

- تقصد أوروبا.. أو الغرب بمفهوم اليوم..

- بتنا لا نستطيع العيش بدونهم.. حتى جذب الماء من أعماق البئر.. لا تتم إلا بمعداتهم.

- هذا يا سيدي نتيجة التخلف، وضريبة تراجعنا وخروجنا من ساحات الحركة والصراع لا بد من دفع الثمن غالياً.. فضّلنا القعود ومدّ الأرجل، ثم الانبطاح والخلود للنوم.. المفروض أن نكون عكس ذلك.. ولكن جبابرة حب الحكم والغباء، هم الذين شرّعوا هذا البلاء.. وأبعدونا عن ميادين النشاط والتطور، وأوقفونا بتخويفهم لنا وأبعدونا عن ميادين حركة التاريخ والمدّ الحضاري، وها هو الخوف يبسط سلامة سلاحه بين أعيننا وفي أعماقنا.

- ولكن هل نواصل النوم؟ ونُؤثْر السلامة؟

- لا.. بل دبّ الشعور في أجسامنا.. إذن اليقظة كل اليقظة.. علينا أن نمدّ الخطى برزانة وثبات حتى لا نتعثر ونسقط مرة أخرى، ونغسل وجوهنا بماء الصلاة حتى نحس بفاعلية الصحوة، ونسفي أكمامنا حتى نهاية المرافق.. نحن الآن لا نستطيع المجابهة وجهاً لوجه.. ولكن هناك طرق عديدة للمناضلة، بأسلحة بسيطة إلا أنها مفيدة.. لا بد من الدخول إلى

ميادين الصراع والمنافسة الحضارية، مهما يعدّ الظالم من قوة.. فهو في الحقيقة ضعيف.. **{وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ}**[1] .. الحرب ليست قوة سلاح، بقدر ما هي عزيمة وصبر وتدبير، وفنون في التكتيك وتخطيط بنظرة ثاقبة وتصميم صادق على النصر لاسترجاع الشخصية الاعتبارية والحقوق المسلوبة.. وغزوة بدر أجّل مثال وأصدق عبرة.. «لابد من النظر والأخذ من التاريخ لتستوضح الحاضر، وأن ننظر بتمعن وتوقع ما سوف يجري من إيحاءات المستقبل.. لا شيء مفيد ولذيذ يأتي بسهولة.. من مبادئ الحياة في ميادين اليوم: البقاء للأقوى».

كنّ قوي المراس متين العــرى وكنّ كاسراً قبــل أن تكســر
وإن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب
ومن لم يذد عم حوضه بسلاحه يهدم ومن لايَظلم الناس يُظلم

المُثل العليا والأحاسيس الإنسانية النبيلة مصطلحات مدونة في كل سجل إلا أنها صعبة المنال حركياً.. فلا أحد يعطيك جوداً دون أن يأخذ منك أكثر.. فهذه من مجريات طبيعة الحياة.. السذاجة الزائدة وحسن الظن بالآخر في كل المقامات والعقود.. حدود مطلوب تجاوزها.. لابد أن نعي وندرك الأمر بما كان وألا نرضى ونطمئن بما هو كائن، أو أن نطلق الأحكام على أعنتها والاستخفاف بما يمكن أن يكون..

الخصومة والجدال.. قوام الحياة.. ولكن لا أن نترك البناء ونلتجي للهدم.. النظرة الصارمة.. الصرخة القوية المحذرة.. القبضة العنيفة، والكلمة الرادعة.. قواعد ثبات في هذا العصر..

إذا هبت رياحك فأغتنمها فبعد كـل خافقــة سكــون
وإذا ذرّت نياقك فاحتلبها فلا تدري الفصيل لمن يكون

(1) سورة الأنفال: الآية 60.

أسفر ذلك اليوم على صباح لا ضباب ولا غمام يغشى سماءه.. كل شيء هادئ عزيز.. تغريد طير، نقيق ضفادع، هديل حمام، دعاء هداهد وأعمدة رقيقة من دخان المطابخ تتلوى صاعدة عالياً حتى تتلاشى في الفضاء الشاسع.. تنفست القرية مع تباشير الضياء الوافدة.. أزاحت الغطاء عن سوانيها المخضّرة وأشجارها الباسقة ومبانيها المبثوثة في أوضاع ومواقع تلقائية.. هذه العناصر مجتمعة تتشكل وتجتمع في بهرجة عفوية، تنسج مَعْلَماً دقيق المشهد، يطرب الخاطر ويلفت العين والشعور معاً ويمدنا بسخاء صورة في فسحة المكان لفتاة تنتظر في انكسار جذاب، ترتدي رداء، وبيدها عصا ترعى أغنامها وهي جالسة في سكون الذي يترقب من يطرق بابه – وإنها صورة! قد خالها الشعراء وتغنّى بها الرعاة.. هكذا تراها من خلال صراع الألوان والظلال، وأنت واقف على رأس الكثيب تنظر إليها من بعيد.. وتنـزل من فوق وئيد الخطى خوفاً من تقّطع النسيج وتلاشي ألوان الطيف واختفاء الظلال.. يأخذك مسرباً إلى منـزل فيه حركة ويحيط به النشاط، ويعّج فضاؤه بروائح الطبيخ الجالبة للشهية، ومن وقت لآخر تنطلق موجة من الزغاريد.

هكذا أنت وقت الضحى – وجهك ينطق بالبشائر، تتبختر مع زملائك المدرسين وبعض من طلابك، وأنتم في لباس الجرد الأبيض الرفيع الصنع، والطاقية الحمراء، والحذاء الأسود اللّماع، ساحة القرية لكم جميعاً، ولا يفوتني الّذكر عن ما يجري من خلال شقوق أبواب المنازل وما يصدر من وميض وشغف ينطلق من عيون العذارى.. كان ذلك أول عهدك بالمدرسة – ويعلم الله كيف كان شعورك!! وكيف كنت تحس وترى الناس، وكيف كنت تأمل وتتخيل المستقبل الزاهي الجميل!؟..

عند الظهر خرجتْ من بيتكم عشر قصاع بها طعام «البازين» بالقديد، وبلحم الإبل الطازج – خرجت كلها من بيتكم المعمور، وأخذوها إلى مسجد القرية، وليمة عامرة بمناسبة تخرجك في معهد المعلمين.. أقيمت الصلاة، ألْقيت الخطب والدعاء الصالح تقديراً لك واحتفال قريتك بهذا الحدث النادر.. كنتُ ساعتها عليك شاهد عيان – وقُدّمتْ إليك صحيفة القسم المقدس.. نظرتَ إلى السماء وعيناك تنطقان بلغة حافلة بالمعاني الكبيرة، ووجهك يموج زهواً.. رفعت يدك اليمنى بارز الكف على مستوى رأسك وقلت بالحرف الواحد: «ها أنا حاضر الوجدان مفتوح القلب جلي النظر – أقسم بالله العظيم وأشهد الحاضرين أن أكون

مخلصاً أميناً لوطني وشعبي، ولا أتوان لحظة في العمل الصالح من أجلهما وحمايتهما من أي ضرر أقدر على منعه ووقفه.. معزّة الأوطان في معزة الله - يعيش الوطن يعيش الشعب والله على ما أقول شهيد»..

كنتَ تعشق الوطن ومغرم بدراسة تاريخه- والتاريخ في مفهومك القديم، حركة الشعوب المتواصلة في مسار هدفية الحياة.. بلغت شوطاً طويلاً في تدريس التاريخ المعاصر، وتأتي بالقرين من الوحي القديم.. نقّبت عن جميل الأثر وحسن الذِّكر، ملكت قلوب الناس، وملأت مكانك وتجلّت مكانتك- ولكن أنت الآن لست ذلك الكيان الذي كنا نراه إنك وجود طافح من بقايا الصبا.

في بداية الستينيات من هذا القرن العجيب، كنت في أوج علوك وتقدمك وشهرتك بين أهلك وذويك، ولكن على حين غفلة تحركت الغيوم وعصفت رياح غريبة وجمّحت بك بعيداً، ثم رمتك عند أعتاب الأبواب المشرعة التي ترتجي من يدخلها.. لم تلبث أمامها إلا قليلاً ثم دخلت مسرعاً دون أن تلتفت إلى الوراء.. وحالاً ما غُبت في مفترق الطرقات .. أقول لك من يومها بعتني.. من يومها لم تعد تصدق أقوالي وتصغي إلى ندائي.. وجعلت بيني وبينك سدّاً.. ثم أخذ كل منا وجهة.

- بعتك!؟ ماذا تقول أيها الرجل؟ كلامك لا يذكرني بشيء من أمر نفسي.. أنت موهوم في شخصيتي.. أنا لستُ بحالم وأنت لم تكن رسولاً من الغيب.. أنت لا تعرفني من أنا، أنا لست الذي تدّعي..
- أنت بعينك أيها الهيكل المبعد.. ولي عن ذلك حجة الإثبات.
- هات ولا تقصّر إن كنت من الشاهدين.
- ألست الذي كنت تقول بكل اعتزاز ونبرة شاملة في مشاهد درامية رائعة ومثيرة.. لكي تعلّم الناس معاني الحياة الكبيرة: «يا ابن أخي، إن كنت تريد وجاهة ومالاً، جعلناك أكثر مالاً وأعز مكانة، وإن كنت تريد ملكاً وسلطاناً، مّلكناك علينا- بشرط أن تترك هذا الذي تدعيه، وإنه من عند الله، لقد جعلتنا هزواً وسخرية بين الناس». «والله يا عمّاه لو وضعوا

الشمس في يمني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أن أهلك دونه».

مبدأ ووفاء وعهد وإيمان من رسول الله عليه السلام وصحابته الكرام، وأحاطتْ به سوء المقادير، وتلبدت في سماءهم سحب الكفر والجاهلية وأمطرت بالعذاب.. وصمد وصمدوا وساروا في طريقهم المليئة بالمخاوف والهموم، متنازلين عن مغريات الدنيا في سبيل الله.. والمبدأ الذي اتخذوه على أنفسهم شريعة من أجل الرسالة التي عاهدوا الله عليها..

دوام أي حال من المحال.. وانقشعت الغيوم وسطعت الشمس.. وبزغ نور الله جليا واضحاً من جديد، يهدي التائهين إلى دروب الخير والإيمان إلى أبد الآبدين.. ولكم في رسول الله أسوة حسنة تقوّى العزائم وتشد القلوب.. وما تدبدب الأيام في صعودها ونزولها إلا ابتلاء وامتحان من عند الله لإثبات وقياس درجة الإيمان وقوة العزيمة.. كنت تشهدنا أيضاً على بعض المواقف المشّرفة التي صدرت عن بعض رجالنا المجاهدين في ميادين الكفاح أثناء حرب الطليان، إنهم رجال صدقوا الله على ما عاهدوا عليه لم يحاربوا من أجل رتبة عسكرية أو مرتب مالي أو تسجيل أسماءهم في سجلات الخلود، وإنما كان يدفعهم الإيمان العميق بالوطن ونقاوة الضمير وصدق العزيمة وقوة النفس.. كنت تقول بلسان حال أحدهم في مواقف مسرحية رائعة.

- «إن صوت الطبل يأتي إلى سمعي يا فاطمة!».
- ربما سمعتُ مثلما سمعت.. ولكن الليل شتاء والجو مطير، والصبح مازال بعيداً «وأنت يدوبك كيف وصلت، ملابسك وجردك مازالت مبلولة».
- ولو.. الحرب لا تعترف بمثل هذه الظواهر وهذه الأعذار.. العدو قابع ينتظر بروح العداء ونحن أيضاً ننتظره بإصرار، العزيمة والإصرار هما النصر، هما الرجولة، هما التاريخ.
- قد لا يكون صوت الطبل.. ربما هدير رعد قادم من بعيد؟..
- «إنه الحق يا فاطمة.. صوت الطبل في هذه الأجواء كدعاء الفجر.. إنه صوت مميز يقرع كل وتر في آذاننا.. حيا على الفلاح حيا على الجهاد الحرب في الحق خير من النوم الحرب في

الحق خير من الهروب، الحرب في الحق خير من الحياة، والارتكان إلى دفء أحضان النساء».

- الريح عاصف والمطر لا ينقطع.. فكيف تريد أن تخرج الآن؟

- وكيف خرج طارق الطبل؟! ألا يحس بمثلما نحس.. بل ربما أضعف حالاً مني.. إنها التلبية.. دعاء الواجب والوفاء بالعهد.

- في هذا الوقت المتأخر والجو الماطر لا يسمعه أحداً..

- بل المئات من الرجال تتجمع الآن في جامعنا في تواصل مستمر.. هيا ساعديني أجارك الله من كل مكروه.. صدور الدعاء في هذا الوقت.. إلا أن الطليان على مشارف قصر أحمد.

- ولكن!! ألا يكون لقصر أحمد رجالاً يدافعون عنه؟

- له رجال أشداء على الغزاة، يتداعون على الحرب.. ولكن قصر أحمد لنا جميعاً.. تكاثف الناس وتقاطرهم من كل صوب، قوة مدمرة وتخيف نفسية العدو وترهقه.. الوطن واحد يا فاطمة والأرض متصلة.. إذا كان الأمر لم يكن كذلك، لِمَ حاربنا في الهاني؟ ودافعنا عن طرابلس، ولِمَ حاربنا في القرضابية قبل أن ندافع عن قصر أحمد وعن مصراته؟ ألا تعرفين أن أرض الوطن واحدة؟! من السلوم إلى رأس جدير.

- أعرف.. أعرف.. ولكن. إذن.. هيا أبقى في فراشك حتى أهيئ لك شئونك وأعد لك لقمة تأكلها.

- لا تحيّرين نفسك وانشغالك في أمري في هذا الجو الممطر.

- أأتركك هكذا على الطوى؟..

- يكفيني من الطعام حفنة[1] من «الزميته» وطوبة[2] من التمر..

- أكلّ هذا من أجل الاندفاع إلى الحرب؟..

---

(1) مدّ.

(2) قطعة.

- ليس حباً فيها، لأن الحياة ثمينة.. وكذلك ليس منّاً منا.. ولكن واجب علينا نصرة الأوطان وتمجيد التاريخ للأجيال القادمة..

- هيا خذّ مكانك..

- إني لا أقوى على ذلك، عين الله ترقبني.. أعدّي متاعي بسرعة حتى لا يقولون تأخر أو تقاعص.. هاتِ «حلاطي» وبندقيتي، وبدون حركة مثيرة أعانكِ الله حتى لا يستيقظ أولادي وأهلي.

- ألا تريد أن تُسلّم عليهم؟..

- الحرب لا تعترف بمثل هذه الجوانب.. لو لم تكن أمراً مقدساً ما دخلتُ فيها.. ولو لم تكن دفاعاً عن بلادنا وأصول جذورنا وكرامتنا، ما جئتُ وما جاء غيري.. من؟ من؟ إلا نحن.. نحن الأصل.. نحن الأولى، ولا أحد غيرنا.. كل متناول.. كل أمر يشترى ويباع.. إلا الوطن.. ثمنه غالي لا يشترى إلا بالدم.. حياة الفرد من تراب وطنه وقيمة الأنسان في معزة وطنه.. ولا ينبت الرجال إلا في تراب المأوى ومسقط الرأس الذي انحدرت منه الأجداد والآباء.. الحياة ليست سهلة يا فاطمة، ليست كما كنا نراها ببساطتنا وسذاجة عقولنا.. إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب.. هيا الزمن يدفعني بسرعة بسرعة أعانك الله.

- حتى أنا؟!! ألا تريد أن تودعني؟.

- «الوداع يا فاطمة.. الأبناء من الأهل، والأهل وطن، والوطن أمانة مقدسة عندك إلى يوم الحساب.. »

- هل تذكر؟ هل تذكر؟ كنت تفعل ذلك بصدق وبنبوغ صادح متصاعد ووطنية متأججة وانفعال وصدق.. كنت تفعل ذلك لتقربنا إلى وهج الأحداث ووطيس المعارك وصدق السيادة ومقام الرجولة.. كانت تربية!! وكانت تربية!! مازلتُ أحس بلفحات نشوتها وأثرها وأثرها المعزز المتنامي إلى يومنا هذا.. ومازلتُ اتبع خطاها الثابتة ومعاييرها الرفيعة إلى هذا الوقت.
- أي والله.. مازلتُ أذكر.. إني أحن إلى ذلك التاريخ..
- قل كم أحنّ إلى ذلك المكان.. كم يكبرني ذلك المكان.. وكم أحنّ إلى تلك الشجرة التي لا تبتعد عن بئر السانية[1].. مكان وشجرة قد بعد عنهما العهد.. خاطر.. قد لا تحفل به أنت الآن.. وربما أثقل عليك ذكراهما.. إنها الزيتونة.. التي كانت، وربما مازالت مرفوعة الهامة منشورة الفروع متعمقة الجذور في الأرض.. كنت تدعوني مع غيري، وتفرش لنا حصيراً فوق جذورها الممتدة والمنتشرة، ونجلس بطيب خاطر، وتعد لنا الشاي، ونتجاذب أخباراً ونخوض أفكاراً، وتطربنا بجيّد المقال، وتضرب لنا أمثالاً عن تلك الشجرة ذات الجذور المتأصلة، وكيف تحاكي الزمان، وتجابه تقلّبات الحياة، تكرس مدّها وحنانها وتكترث الأحزان وتزدهر تحتها الأفراح، تُعطي وتأخذ، وتعطي، وتُساهم في صيرورة البقاء.. تعطي وتأخذ وتعطي.. وتحاول أن لا تنقص شيئاً من ذوبها وجودها وعطائها المستمر.. لأنها نشأة على مبدأ المنفعة وعاهدت على الوفاء، وأخلصت في منطقها وكلمتها تقديراً لحمايتها وحصانتها.
- هل تذكر ذلك؟

(1) الحقل.

- لا.. كلا...

- أراك تراجعت!. تراجعت عندما اقتربتْ منك الحقيقة.. لا.. لا تكذب، إن الليل والنهار عليك يشهدان.. أعرف أنك مازلت تذكر ذلك بكل حواسك الظاهرة والباطنة إنما تحاول أن تتناسى كما يفعل الضعفاء والخونة.. وقراصنة الفرصة، وزمرة الجبناء.

- لا تنجر إلى التعنّت.. من الذي يوقف لساني ويجبرني على الكذب؟.

- الحصانة التي أُهديت إليك، وصرت في مصاف الحاشية.. كنت ترى نفسك مبحراً بخيالك في بحر زاخراً بالأماني.. حصانة جديدة مبجلة بالمجد، زاهية بالألوان، مليئة بمتع الحياة.. كنت ريفي الحياة، ريفي التفكير، صادق التعبير.. لا ألوم الحصانة، ولا ألوم من يمنحها لأن هذا من أسلوب البقاء، ولكن ألوم وأُخاصم من يحملها.. خصوصاً أنت، لأنك في غنىً عنها.. تربيت في بيئة حية لا تأكل ولا تشرب إلا حلالاً طيباً، وأيدي متعاونة وألسن هادئة حامدة.. كنتُ أحسبك أعقل عقلاً وأحصف رأياً، وأحسن تقديراً للأمور.. خدعك الوطيس، فانفلت الزمام من بين يديك، فانقلب السحر على الساحر كما يقولون، لأنك لم تصل بعد إلى مستوى الحساب الدقيق، وتقدير الأمور بدقة متناهية.. وهذا لا يتم إلا بالمراجعة الدقيقة والتفكير العميق المدرك المتواصل.

- وما تغير من جانبي؟.. مازلت في طواياي...

- ها..ها..ها.. لا تجعلني أضحك عليك بملء في .. هل تسخر مني؟ أو من نفسك؟ إذن ماذا تفعل هنا في هذا الليل وهذا البرد؟ وأنت في هذا الوضع.؟ ماذا بقي فيك؟ لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد صرفت كل ما عندك من مُثل وقيم وتخليت عن الكلمة. وأمست كل صكوكك على الأحمر المدان.

- أي كلمة هذه؟ أي معنى تقصد؟ لا تتفوه بما ليس لك به علم ولا تصفني بما ليس في؟ إذا سكتتُ أنصتُ إليك لا يعني هذا ضعفاً أو خوفاً منك.. آمل ألا تتمادى أكثر من اللزوم في وقاحتك.. إني أتحداك بالطريقة التي تهينك وتوقف لسانك.

- أنت الذي ناديت تطلبني وبدأت في حوارك.. وأنا لم أقل وما سوف أقول.. إلا ما هو فيك.

- أي مُثل وأي كلمة تنازلتُ عنهما؟..

- سبحان الله! ألا تحس بما تضمر و لا تحترم ما تقول؟ فعلاً، لقد تجاوزت الصواب، واختلطت عليك الهواجس وتهافت الهموم، تفّرعتْ من أمامك السبل، ولم تفطن بعد لتسارع أيام عمرك.. تنازلت عن حصانة الله فيك، وتقلّدت حصانة البشر، وخضعت لبريق ومبجلات الأسواق، وعمدت إلى المظاهر واستأثرت السهولة وقرب المأخذ.

- لم التقي بك إلا الآن.. أنت لا تعرفني.. أنت غير محق.. أنت لا تراني إلا ظاهراً.. أنا جميل في كل شيء.

- قلت هذا كثيراً، الجمال خالد لا يتغير ولا يدركه الفناء.. ما أعمق الصدأ! وما أكثف الغبار الذي يغشيك!.

- وصفك وتحليلك ضرب من الظن.

- تنازلت عن مُثلك، عن أعماقك وثقلك، عن خصالك ونباهتك.. الاعتزاز بالنفس والثقة في الذات والتعامل بالفن والجمال.. كلها درجات عالية من الإيمان.. وها أنت أراك تخليت، وتحولت إلى جسد فاقد.. بل إلى قشرة ظاهرة فقط، لا يُلتفت إليه.

- أليس لك غير هذا القول السخيف؟

- لا أملك غير هذا .. يؤسفني تبجحي.. لقد ذكرتك والسيوف قواطعي..

- تراني جنيتُ؟.

- ربما يجاب إلا أنك حنثت.. بل كفرت بما كنت تؤمن..

- حنثت! كفرت!! كيف جرى ذلك؟

- الغريب في الأمر، أن منطلق الحياة سريع، وتعاقب أحداثها أسرع.. لذا ننساها بسرعة لأننا لا نتعقب دورها ولا نميز أثرها في مضامين حياتنا الإيجابية والسلبية.. ألم تقل يوماً أمام الملأ في قريتك، وهم متحلقون من حولك؟ وهم يحتفلون بتخرجك في معهد المعلمين؟ لأنك أصبحت معلماً تعلّم أبنائهم؟.. وأنت الوحيد وقتها في قائمة المتعلمين.. ألم تقل وأنت على رؤوس الأشهاد؟ «الحمد لله الذي وهب لي العقل والفؤاد وقوّم لي اللسان

ورفعني إلى هذا المقام؟.. اللهم فأشهد!! اللهم فأشهد!! فإنك الحق.. هدّه طريقي وهذا لساني.. وهذا تفكيري.. اللهم زدني علماً حتى أميز به ساعات الليل وحقائق النهار.. اللهم وسّع لي خاطري وأفسح لي مجال تفكيري وقرّبني بعقلي إليك.. اللهم اجعلني عَلَماً وعاملاً لأهلي ولوطني حتى أساهم في حمل الرسالة».

- نعم.. أتذكّر.. أتذكّر..
- وهذا الذي قلتهُ.. ألم يكن «كلمة».
- بل كلمات..
- وهل الكلمة رخيصة؟. إلى أن تُنسى وتفقد فحواها.. وتصبح صدى رجع كجدال الأسواق؟ الكلمة مقاماً عالياً وحدّاً قاطعاً وميزاناً دقيقاً. عجباً لقوم يقولون، وينسوا ما يفعلون. ما خلق الله الكون إلا بالكلمة والصدق «كن» **{كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ}**[1].

إذن الكلمة هي الكون.. هي الوجود.. هي الصدق.. هي التاريخ والمستقبل، هي البناء والحضارة، هي الرجولة والشرف والنبل.. هي وسيلة الفكر والإدراك.. هي منطلق ثبات وإيمان.. خلق الله القلم والحرف قبل أن يخلق آدم عليه السلام.. إذن لولا الكلمة ما وجد إنسان ولا جبال ولا بحار ولا صحاري ولا غابات.. الحرف سيد القلم والقلم سيد الكلمة والكلمة جوهر الوجود.. لولا الكلمة ما أحسسنا ولا أدركنا ولا تعلمنا ولا فهمنا.. قال الله تعالى: **{اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(5) }** [2].

يمجد الله الحرف، ويشرّف القلم ويثبتهما باعتزاز في كتابه العزيز، لما لهما من أثر كبير ومعنى بليغ في حياة البشرية: الحرف والقلم، مشعلاً القراءة وسناء الهداية - وأول ما نطق سيدنا جبريل عليه السلام بالقرآن الكريم على قلب محمد صلى الله عليه وسلم .. اقرأ .. اقرأ بسم ربك، لأن القراءة مبدأ الفهم ومنطلق العلم والعبادة ومعرفة الله والشعور المتسامي

(1) سورة الصف: الآية 3.
(2) سورة العلق: الآيات 1-5.

بكون الله. والقراءة قبل العبادة {**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**}[1] .

لولا القلم.. ما حاك الإنسان نفسه، ولا سجل أثره ولا كتب تاريخه.. الريشة قلم.. عود البراع قلم.. الفرشاة قلم.. الأزميل قلم.. الوتر والمزمار قلم.. آلة التصوير والتسجيل قلم.. والألوان قلم.. والقلم الصادق الأمين.. هو الذي يبقى أثره إلى أبد الآبدين[2]. إن من البيان لسحراً، ومن الشعر لحكمة .

- تُرى ما الحكمة في هذا القول السريع؟

- أو لم تعلم بعد؟!.

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

خدعك البريق.. حتى تنازلت عن قيمة الكلمة.. كذبت وخدعت الناس الذين صدّقوك وشيعوك وآزروك.. ولكن.. لا علو يبقى ولا وميض يدوم.. ماذا أقول؟ ماذا أقول؟ لقد خدعتك الثروة، ولعب بجوارحك مجد الثرى.. ذلك اللمعان الخطير والهوة السحيقة التي تدحرجت فيها من أعلى إلى أسفل.. الفساد المتواصل يولد الغرور، ثم السقوط، ثم النهاية الأبدية..

- من أنت؟ من أنت؟

- لا يهم من أنا.. لأنك أجوف تبيت على الطوى.. فأين منك الذي كان عندك؟ كان من المفروض أن يكون قصرك ميداناً مقدساً، فيه منبر عالٍ الشعلة.. شعلة الجندي المجهول.. أو مثابة رفيعة البنيان لتدريس العلوم والتاريخ.. عهداً ووفاء لهؤلاء الذين سقطوا وشفاههم ووجوههم تقبل التراب.. وباعوا أرواحهم وأجسادهم الطاهرة من أجل شعبهم وبلادهم ليبيا.. إن آلافاً سقطوا وماتوا ولا يدري بهم أحد حتى يومنا هذا.. إنه حق وديْن علينا.. يا أهل القلوب العامرة. ولكن أنت اليوم شككت في كل ما جرى على ميادين المعارك والحروب. لأنك أجوف – طبل لا ثبات ولا أصال لك.

(1) سورة القلم: الآية 1.
(2) حديث للرسول عليه الصلاة والسلام .

- وبعد.. وبعد يا أيها المرشد؟!.

- هكذا كنت تعلّم الناس، وتنقلنا من قصة إلى قصة ومن حكمة إلى أخرى، ألا وهي ذلك الكل المتكامل من صفات مكارم الأخلاق.. هي مسئولية عظيمة وأمانة كبيرة أثقل من الصخر وأكبر من الجبل.. ليس لها مكاناً محدوداً أو جذوراً مشهورة أو علامة مشهودة.. قد تجدها عند مزارع، أو عامل، أو موظف، أو في أي مجال من مجالات الحياة الكريمة: «الرجل.. أو الرجولة هي سمة عظيمة وهبة من الخالق ذات قيمة لا تقدر لمن يدركها ويتحسس حسابها ويأخذ بناصيتها.. الرجل قصة القرية، ورمز الشارع وعنوان الدولة وسيد العالم وليس رئيس العالم.. وأمشي في الطرقات واخترق الشوارع.. ويسرح البصر بعيداً، وألتفتُ شمالاً ويميناً أبحث عن ضالتي، لأن ضالتي ثمينة ونادرة الوجود خصوصاً في هذا الزمان العقيم».

مباركة أنت أيتها القرية إذا دخلتك ووجدتُ فيك حتى ربع قاطنيك رجالاً وقليلاً من الخالدات.

مباركة أنت أيتها المدينة إذا دخلتك ووجدتُ فيك عُشر ساكنيك رجالاً وقليلاً من الخالدات.

مبارك أنت أيها العالم إذا دخلتك ووجدت فيك حتى واحداً على مائة ألف من الذين يتحركون على أرضك رجالاً.. ولكن مصيبتي وخيبة أملي أن أقضي الوقت والوقت أجوب الآفاق شرقاً وغرباً حائراً متلهفاً ولا أجد واحداً منهم يمتلك تلك الصفات.. كل من ألقاهم أشباه رجال.. إنها مصيبة اليوم ولعنة التاريخ ومهزلة آخر القرن.. «الحق والخير والجمال» إنهم أصول الأخلاق والقيم الرفيعة.. تبناها معظم شعوب العالم القديم وجعلها من الفضائل والأفكار الكاملة وأدخلها في مناهجه التربوية والعلمية.. ولكن مع الأسف تخلَى عنها هذا القرن، وأن الذي بقى منها ما هو إلا حشاشة أو صوراً مشوهة بالقتامة: آلام الحياة وشقاء النفس وضياع في عالم المجون والخلاعة والغايات الغارقة في الإثم.. إن سمو الروح ونقاوة القلب وسماحة الوجدان، صارت اليوم ضرباً من ضروب التسكع اللفظي وسمة من سمات السذاجة، بعيدة عن مسار القواعد التي طرحتها الديانات السماوية ووداعة الضمير وحِكم الرجال.

الحضارة: لا معني لحضارة مهما وصلت وما صاغت من رقي وما كسبت من تقدم بدون مثل أعلى يحدو حدوها، يقوّم مسارها ويهذّب سلطانها وتطلعاتها.. لا معنى لحضارة إذا لم تجمّل الحياة على الأرض وتَبْسط عليها سبل الآمان وأجواء الزهو والبهجة والرونق، ماذا ترى اليوم؟ لقد تراجعت المُثل العليا وطُعنت الإنسانية في صميمها، واضطربت الفكرة الحرة وخافت وتراجعت التجربة عذراء دون حصدّ ولا محصول.. الإنسان وذاته الحرة.. فنحن نخدع أنفسنا إن حسبنا أن الأمور تتحرك ذاتياً، وأن الملائكة هي التي توزع الأرغفة على عباد الله، وأن كل المتاعب والمصائب تأتي من ذاتية الأقدار. نوعية الإنسان، ومدى قدراته على تحليل رموز الحياة وفكّ أحاجيها ومعرفة متطلباتها وآفاق تطلعاتها.. إن الرجل المناسب في المكان المناسب.. ولىّ زمانه، وصار الرجل المناسب في حكم سياسة اليوم.. رجل الطاعة العمياء، بصرف النظر عن أصله وفصله وأخطاؤه وجهله بالأمور وانحطاطه.. وبما أنه جاء من منطلق غريب، فلا يجد من يقوّم مكانته ويعزز ثباته إلا زمُرة من الغرباء مثله.. لهذا ظهرت القواقع من أصدافها وسربت الديدان وبرزت الطحالب والطفيليات من بركها العطنة تتحدى الجذور وتجابه الأصل.. لهذا تجردت ربانا وانحطت هامات النخيل وقصرت مسافات الطريق.. وغفلت السحب المطيرة عن سهولنا.

- فلسفة من روح مفرد.. ماذا ترمي من وراء جدرانها؟ لا أسمع إلا ثرثرة جوفاء.
- ليس في يدي شيء أرميه.. ولكني أقصدك أنت.. لا إنس آخر يجاورنا أو يقف بيننا.
- أنا صنف بارز في قائمة الرجال.. ولي تاريخ مجيد.. أنا فخور بما قدمتُ.. وأنت كذلك ذكرت عني كثيراً منه..
- ذنوبك اليوم غطّت حسنات الأمس.. الفارس لا يتراجع.. إنها الأخلاق التي نشأنا عليها والسلوك الذي قوّمونا عليه أيضاً.. أنت تخلّيت.. منذ أن دخلت مجالس التشريع وعضواً مهماً في البرلمان، تقلّبت ظروفك وانقلب مسار حياتك رأساً على عقب.. استأثرت بنفسك وفضّلت أقرانك.. عاهدت أناسك بعهود كثيرة.. ولم توفّ بواحدة.. حتى الحديث عن جلاء القواعد الأجنبية التي كنت متحمساً له وقت صباك.. تراجعت وآثرت الصمت.
- اكتشفتُ أنهم أقلّ مستوى مما يستحقون.. وبالتالي لم يأخذوا بأفكاري ويقتنعوا بأهدافي.
- ها..ها..ها.. أما قلت لك إنك رجل أفّاق طفيلي غريب.. تباً لك أيها البائس.. أيّ أهداف

تملك؟ وبأي أفكار ترى؟.. أنت أجوف، طبل.. الرجل يتصرف من وحي الفطنة والذكاء والثبات على المبدأ.. هذه هي الرجولة.. الرجل لا يخضع لنفوذ العاطفة ولا ينقاد إلى التجرد والتفسخ وسيطرة النـزوات.. من قال أنهم أقل مستوى منك.. إلا أنت.. وأنت من؟ وأنت من؟ .. وأنت من!؟..

- تخلُّوا عني ونسوني..

- لأنك تخلّيت عنهم أنت أيضاً.. وتنازلت عن قيمتك ومبادئك.. لهذا صرت لا تصلح لشيء.. الناس لا تقوّم معوجاً ولا تثبتُ فاشلاً تمادت فيه العلل وسيطرت عليه..حجتهم دامغة على أن ينسوك ويمحون اسمك من ذاكراتهم، ويسقطوك من التاريخ.. أتَذكُّرك جيداً كيف كنتَ وكيف جرت بك الأقدار؟.. وكيف أصبحت الآن؟.. وهبك الخالق قدراً من الأمانة، ولكن لم تحتملها ففّرطت فيها.. ألم تكن مُعلماً تهب العلم وتنهض بالعقول وترشد إلى الخير؟.. لأنك كنت تسمع صوت الملائكة، وتتحاور مع الطيور وتتخاطب مع الأرض وتستنشق عبيرها.. أهل قريتك ومن جاورها يحبونك.. دائماً وأنت في عزائم وولائم، وسيّد في كل عُرس أو مقام فرح ومجلسك ما بين السادة والأعيان.. كل عائلة تتمنى أن تناسبك وتزوجك أجمل بناتها..

- ولكن الأيام لا تبقى على وتيرة واحدة، يتقلب الدهر وتتشّعب الدروب.. فننساق مع أحداها.

- هنا تحل العبر وتتقدم الحِكم، ويبدأ عمل العقل والحواس، ولكنك انجرفت مع الأحلام وخدعتك الثروة واستدرجتك الكراسي الوثيرة وعبارات الدهاقنة والمنافقين وأهل المصالح.. احتضنتك الحياة الناعمة واستطعمت الذل واللامبالاة، وتعودت على ما كنت تكره.. نسيت وجودك واسمك الحقيقي: «محمود بدل حمُّودي» ، ونسيت زوجتك الأولى وأبناءك.. ألا تتراجع بخطاك قليلاً؟! ألا تتذكر؟!..

- زوجتي الأولى!؟ أيه!! أي والله صحيح لي عائلة وأهل.. ولكن هذا كان من وقت بعيد.. لو أنني لا ارتعد من البرد.. لقلتُ أنها أضغاط أحلام.

- من خمسة عشر عاماً.. لا تنسى الرقم.. إنه مهم..

- خمسة عشر عاماً!! إنه لأمر مخجل.. يا له من عار.. تُرى ماذا أقول؟ وأي عذر أطرح حتى أبرئ نفسي.. من يعولهم إذا هم على قيد الحياة؟.. سمعتُ بموت والدي وأمي من وقت طويل.. ماذا أقول؟ ماذا أقول؟ وكيف أقابل أبنائي وأُذكر نسبتي إليهم؟!.

- عجباً..! صرت تشعر بالخجل؟! ما أغرب بني آدم!..

- أنا خَجِلٌ من نفسي.. ولكني في حاجة إليهم.. وأرغب في أن أراهم.. وأن أضمهم إلى صدري.. لابد أنهم كبروا وصاروا رجالاً ونساءً.. ولكن من أنا؟ وأين أنا منهم؟.. إنهم بلا شك لا يقبلوني.. وخصوصاً وأنا على هذه الهيئة المزرية الحقيرة.. ولكن الدّم النقي لا يتحول إلى ماء.. هكذا تقول الحكمة.. الدم النقي!؟ الدم النقي! أين هو الدم النقي؟!. ربما ينكروني ويضحكون هزواً بي.. لا لا.. إذا هم مازالوا في القرية بلا شك سيقبلونني.. أقول لهم وعيناي إلى أسفل: «لا تؤاخذوني بما أنا فيه».. تكسر صاري مركبي وتمزق الشراع وأنا في وسط اليّم بين معترك الرياح.. «ما أنا إلا أبوكم».

- مسكين أنت.. لقد كبرت وشاخ دماغك.. كلامك هذا يضحك القرود، إذا جاز للقرد أن يضحك.

- فعلاً فعلاً.. إنني أخرّف.. ولكن الحياة على هذا النمط قاسية مكفهّرة.. وحزينة.. آه! يا الله.!.

- لماذا تمسح وجهك بكفك من حين إلى آخر؟ هل تراكم عليه الغبار؟ أو أنها عادة موروثة؟ أم هي دموع؟

- اليوم طردتني سُهيلة من منـزلي الكبير، الذي سجلتُه باسمها هدية زواجي منها، انكرتني وأبعدتني عندما رأت ثروتي ضاعت وتلاشى لمعان مجدي.. مسكتْ يدي، ولم تتركني ارتدي ملابسي وأتناول جرعة ماء.. حدّقتْ في وجهي بحقد وأومأت رأسها آسفة وشدّت على نواجذها غاضبة.. ودفعتني بعنف خارجاً، وأغلقت من ورائي الباب بالمزلاج.. ما أقسى هذا!! ومنها خصوصاً.. آه!. كم أنتِ جميلة ومثيرة.. ومتطورة!! عشتِ معي سبع سنوات، وكل سنة بقصة أجمل من سابقتها، إنها أخصب وأروع السنوات.. «جعلتك ترفلين في ديباج الثراء وفسحة النعيم.. زرنا بقاع وأماكن شتى حول العالم، كانت بالنسبة إلينا من الأساطير وعالم خرافي الرؤى.. ولكن حققناه، فَطْرنا إلى

الصين، وزرنا آثار اليانكا والألدورادو، وشاهدنا وسمعنا شلالات نياجرا والكونغو، وسافرنا على متن أحد اليخوت على طول المسيسبي، وقضينا شهراً ونصف عند جبال كالمنجارو وشهر العسل بين سواحل الريفييرا وجبال هايدي في الريف الألماني».

كانت سُهيلة سكرتيرتي الخاصة ومديرة أعمالي.. ثم تزوجتها عن حب متبادل.. وها هي الآن ترميني في الزبالة بلا حذر ولا ذرة من وفاء، وتلْتفتُ عني ككرسي بائد لم يعد له قيمة.. بعد أن مصّت دمي وثروتي.. إنها المرأة العنكبوت والسيدة الجحود والأنثى اللعوب.. نشلتها من فقرها وسوء حال عائلتها التي كانت مغتربة في أحدى البلاد العربية.. ومن يجعل المعروف في غير أهله... ... ...

- الآن كل شيء فات وانقضى وكُتب على جبين زمانك.. لا فائدة من اجترار الحِلم..

- أرجوك لا تعيدني إلى تفكيري.. لقد سكن الحزن والآسف في كل جسمي.. اقترب مني، فأنت بلا شك تعرفني جيداً.

- أجل كنا معاً في قالب واحد، نسير مع دفع الحياة، أحرسك وأشاركك الرأي.. وتبادلني الحوار في مواقف متواصلة.كثيراً ما كنتُ أنبهك وأقنعك لأمر لك أو عليك.. وبقيتُ معك حتى بعد أن بعتني.. أناديك وأخاطبك بأعلى صوتي محذراً خوفاً عليك من السقوط، ولكن أخيراً صرت تصغي إليّ بعقل غائب وإحساس منقلب.. بعت قيمك العظيمة ونصّبت كيانك على عرش بالٍ وقيمة دراهم جاءت من مصبّات غير شريفة، وذهبت على رقاع القمار.. هكذا صار وأمسى مجدك الكاذب.

- الناس!! الناس! هم الذين خدعوني ودفعوا بي في عالم الوهم، وقلبوني وغيروا مسار حياتي.. هم رأس الفتنة وعُقلة الفساد.. أغلبهم بيئة وباء وقذارة.. مسخوني.. ودفعوني إلى الانحراف، وجعلوني أتوهم أني في مصاف الكبار.. فسحوا لموكبي الطريق هاتفين.. ومهّدوا ليّ الصّعاب وأغمضوا الطرف عن تحللي وأخطائي، وأقْفلتُ كل ملفات خطاياي السابقة، فتحوا لي أبواب بيوتهم وتركوها مفتوحة تحت تصرفي.. شرّعوا لي في ما ليس لي فيه حق.. كل ما يصدر عني ويأتي مني لطيف ومقبول وله عذره، حاجاتي تنقضي في لحظات.. يأتي إلى منـزلي صناديق من عسل الجبل الأخضر النقي.. لحوم الحيوانات البرية وأجود أنواع الأسماك لا توقفها الأزمات، وسلال من باكورة الفواكه والبقول.. حتى

«الترفاس» صناديقه هو أيضاً كانت تدخل داري باستمرار أثناء موسمه، علماً أن جانيه لا يستهين بواحدة يلقيها في فمه لندرته في بعض الأحيان وارتفاع ثمنه.. كل ذلك يقدّم لي بإلحاح منهم وبدون مقابل. أوهموني أنهم سادة كرم وجود، لا عبيد وقفوا على خدمتي من أجل قضاء حاجاتهم والتقاط الفتات التي تبقى في أطباق موائدي.

- أنا معك.. فعلاً إن هؤلاء نمط تجذرت فيه العبودية والحقارة.. لا يقوى على العيش إلا بهذا السلوك.. وأنت.. ألم تكن واحداً منهم؟ بل من أكبرهم.. مهما عملت عن مداراة الحقيقة والاختفاء وراء براعة البيان فإنك لا تستطيع الهروب من وهج الشمس وقوة سطوعها.

- لا لا.. أرجوك لا تقل هذا.. أنا لستُ منهم.. أنا قمتُ بأعمال جليلة في الماضي والحاضر وحاولت أن أحرر الناس وأن أخرجهم من حظيرة القِدم والتخلف، وجدتهم يرفضون ويرتضون بما وُجدوا هم عليه ويكرهون الصعود والتطلع إلى الفضاء ورحب الآفاق.. حتى لايستنشقوا الهواء النقي.. من مسيرتي الذاتية، استنتجتُ أن القناعة والتشبث بالقيم أكثر من اللازم يفسدان التقدم ويؤخران قيام الحضارة.. وأنت حرّ قبلت هذا؟. أم امتنعت؟... ...

- قف.. هذا سند ضعيف وفكرة مبتورة واستنتاج قاصر لا يقنع أحداً.. ارجع معي وسرّ على طول مسافة مدّ الحضارات الإنسانية.. وأذكر حضارة واحدة قامت وامتدت واستقامت على غير قيم فاضلة ومُثل عليا؟.. أي حضارة قامت على الوشاية بالباطل وبيع الدماء والذمم واقتراف الإثم؟.. أي حضارة صعدت ومدّت ركائزها على خداع الناس وخيانة الأمانة وتوريد بضاعة ملحة لحاجة الناس تعتبر من ضروريات الحياة، تأتي وتحمل في طياتها السم الزعاف والموت المحقق؟.. أي حضارة قامت على نشر الرذيلة وتجميع قاذورات ونفايات الغرب والشرق ونثرها في بيئتنا النظيفة، في فضاءاتنا وبين ربوعنا؟.. أي حضارة قامت على الدسيسة والهوان وبيع الشرف المقدس واستغلال الجانب المالي والسياسي في التلاعب بأعراض الناس واستذلالهم؟.. وكذلك المساعدة على ظهور طبقة اجتماعية جديدة من العبيد والنخاسين، تتربى على الخنوع المفرط والطاعة العمياء، ينشأ من جريرها جيل جبان جاهل غير ديمقراطي، فاقد الإرادة الحرة، لا يقوى

على الوقوف في الساحة بمفرده وبعيداً عن روح الانسجام والتعاون.

- لقد اضطربت قدماي، وتضاعفت دقات قلبي تعباً يا سيدي.. لم أعد أقوى على الوقوف هكذا.. بين صادر وواردٍ.. استحلفك بالله من أنت؟ من أنت؟..

- أنا!!؟.. أنا أنت! صورة طبق الأصل منك.. إلا أنها من الداخل.. أنا.. أنا ضميرك!..

- ماذا؟!! ماذا؟ أنت ضميري؟! وهل أنا بلا ضمير؟. ما هذا القول الغريب؟ أعيش بلا ضمير!!؟

- من عشرين عام.. من عشرين عام أو يزيد..

- كل هذه المدة؟! وأنا بدون ضمير؟. أعيش بلا ضمير!!؟... كيف يحدث هذا؟ ومن المسئول؟..

- أنت ولا أحد غيرك.. انخدعت.. مرّ زمانك دون أن تدري، ومرّت عليك التجربة، وخفقت في الامتحان لأنك كنت غارقاً في الوميض وترى بلا بصيرة.. حسبك الله، جسدك الآن بلا إحساس وقلبك بلا دم..

- هل يُعقل هذا؟.. قلبي يخفق بلا دم!. آه!، يا الله!. فعلاً.. لا أنكر ذلك.. منذ مدة وأنا أحس بهذا.. عرضتُ نفسي على أطباء مشهورين.. ولكنهم لم يجيبوني بشيء.. ربما لم يكتشفوا هذا ولكني أشعر أن خفقان قلبي يختلف وينبض بلا دم.. أرجوك.. أرجوك اقترب مني بسرعة وعُد إلى جسدي وأبعث فيه أحاسيس الحياة الطبيعية الدافئة من جديد.. أعطني قطرات من دمي الأصيل.. أرجع لي نقاوتي وطُهري.

- لا لا.. أبداً.. الأصيل يبقى أصيلاً لا يتغير، والرجل يبقى رجلاً ملتزماً بمبدأه إلى أن يموت.. وفي الحقيقة الرجل لا يموت.. لا يمكن هذا الذي تريده أن يكون.. لقد انقضى.. أنت هارب من زمانك، والهارب مثلك لا يعود.. لماذا تنظر إلى أعلى؟ وتتأمل في الفضاء؟ أَتَرْقُبْ النجوم؟ لقد توقف الأثر وتلاشت المعالم، ضاعت طريقك وجاء زمن الوهن واقتربت نهايتك.. إنها المحطة التي لا يتعدها القطار.

- لا لا.. أرجوك.. لا تقل هذا.. توقف عن العرض التاريخي..إني أريد الرجوع.. مازلتُ أريد نفسي.

- خلاص.. لا تبديل لمشيئة الله.. جئت مع آخر صوت من آخر صدى.. مرّ الضحى وفاتك الزوال.. وها هو أمامك قد اقترب المساء من أن يلامس جبين الليل.. بكل آسف.. تأخرت كثيراً.. والعمر لا يتكرر مرتين.. جفّت الأقلام ورُفعت الصحف..

الوعد الـمـر

..... يموت الشجر واقفاً وظل الشجر لا يموت.

... . ولاح من الطي، فارساً يرتدي جرداً أبيض كزبد الموج، مشرق الشباب جميل المحيا، مرفوع الجبين شامخ الأنف - وصار يكبر ويكبر... حتى غطى هامة الجبل الذي خلفه....

الشمس غاربة لم يبدُ في الأفق منها إلا موضع إصبع، رياح فصل خريف مبكر، غيوم كثيفة مازالت مُحَملة بغبار ودخان الحرب، مراكب حربية وتجارية قديمة تمخر العُباب في نشاط مستمر بين الساحل الإيطالي وشمال أفريقيا.

أمواج عاتية ترتطم بعنف وتتكسر وترمي زبدها على صخور بوابة ميناء قديمة متهدمة. فوق الرصيف الحجري المتهالك، عند منعطف، تقف ثلة من الرجال بلباس بالٍ وبتعب ظاهر، حركاتهم الجسدية تعبّر على أنهم كانوا يفرغون حمولة مركب شحن كبيرة، رجال بُنيت أبدانهم من طينة تختلف عن الكثيرين ممن يحيطون بهم ويمشون معهم. يتركون الميناء في عجلة وبدون أي إلتفاتة. من منعطف شارع ترابي ينقل إلى الفراغ، ينعطفون يساراً ويدخلون شبه معسكر، من بوابة بدون باب، كل ما فيه قديم، لا علامة لحركة إلا آثار عجلات عربات مطبوعة في الطين الطري، يقف عند عتبتها اثنان من الجنود، ينظر الاثنان في آن وفي اتجاه واحد إلى الداخلين، يؤمان برأسيهما دون كلام ودون أن يقوما من مقعديهما، وتبقى البوابة في سكونها الممل وموقعها المتطرف. في وسط المعسكر ساحة فسيحة تشغلها بقايا جدران وخرسانة مهدمة ودبابات ومدافع مهشمة وحطام من الحديد البالي إضافة إلى أنها ساحة غارقة في الأوحال والبرك الآسنة تحيط بها شبه غرف من جوانبها الثلاثة وإليها تفضي أبوابها الخشبية البالية مركّبة بالورق المقوى وصفائح الحديد والخشب البائد ومقسمة بالآجر الناري وسقوفها تبدو مهترئة تظهر عليها دوائر من آثار القطارة. ينحرف أحدهم إلى جهة إحداها ويبدو أنه مشغول البال مُنغّص الخاطر، يدفع بابها بقدمه، يستقبله الظلام ورائحة عفونة، جوارب مستعملة لم تُنظف، يضع ما بيده على الأرض، يَشعل عود ثقاب، يتوهج نور فنار كيروسين معلق على الحائط في وسط الغرفة، يسري النور ويترك للنظر الفسحة والتنقل بين

الأشياء والجدران المسودّة من أثر الدخان والغبار وآثار سحق حشرات البق والبراغيث، زد على أنها لم تُبيّض إلا مرة واحدة. ما تكاد تتقدم قليلاً خلف الباب حتى تصطدم قدماك بفراش مطروح على التراب محشو بالأعشاب اليابسة وورق الأشجار المليئة بالبق والقُمَّل والبراغيث، عليه بطانية بالية سدت مسامها الأوساخ والعرق، وطُرحت من حوله قطع من الكاغد والكرتون. عن يمين اتجاه القدمين حفرة معبأة برماد نار وحولها عيدان من الحطب نصف مستعملة، بُرمة وصينية من الصفيح، في أقصى اليسار، في زاوية معتُمة تقبع صرة من الملابس القديمة القذرة العفنة، وبُلْغَة[1] تكرمش جلدها بفعل تعاقب الأيام عليها وعدم استعمالها، على الجدار، يمين الفراش عود مدقوق كمشجب تتدلى عليه بعض القمصان المرقعة وقطع من القماش وعباءة قديمة تعرّى جدادها، مَحْرَمَة وطاقية مرفية من القماش الأبيض، إلا أنها مليئة ومرصعة بنقط فضلات البراغيث والبق، وعلى يمين الفراش علبة من الكرتون يشم منها رائحة بقول متعفنة!

لم ينبس ببنت شفه، يتراجع قليلاً إلى الوراء، ينظر حوله، يفرك يديه، يحك رأسه وجلده، ينظر إلى أظافره الطويلة المتسخة، يتأمل قليلاً، يرفع عينيه إلى السقف، يبدو أن أفكاراً ومفردات عديدة تواردت إلى ذهنه، يلتفت إلى الباب، ثم يخرج ويتجه ماشياً إلى غرفة أخرى غير بعيدة، بابها موارب غارقة في ظلام المساء، يتقدم ببطء، يدفع الباب بلطف ويدخل برفق مسمياً بسم الله، تقابله عَتَمَة وتصدم أنفه رائحة حادة كريهة من البول والبراز، يفرك أنفه، يمدّ رقبته، يلتفت يميناً ويساراً، يتأوه في أعماقه، ينادي بلين، يجيبه بعد تكرار، صوت عميق متحشرج بالحزن يشبه الأنين، يترك الباب ويتقدم خطوات، يشعل فتيل مصباح الكيروسين، تأخذ الأضواء في الانتشار، وتبدو الجدران القذرة وصور الإهمال ونقيق البؤس والفقر. هذه تزيد عن الغرفة السابقة قذارة وإهمالاً وإن تساوت في وضعها ومقتنياتها، لاشيء يزيد أو ينقص إلا الفراش، فهذا يمتد عليه جسم رجل مغطى ببطانية وجرد مسحت صوفه يد الزمان ولا يظهر منه غير وجهه الهزيل وأسنانه البارزة ولونه الشاحب، يغمره الشعر الطليق وطالت لحيته التي اكتساها الشيب، يتنفس بصعوبة ويفتح جفنيه بقلق ويئن من أعماقه أكثر مما يظهر في صوته، يدل هذا على أن مرضه نفسي أكثر منه عضوي، وفي كلتا الحالتين فهو شديد المرض!

(1) حذاء محلي.

اقترب منه متفحصاً قائلاً له بإحساس ذوي القربى وشعور إنساني لإثبات الذات ورفع المعنويات:

- عمي جمعة.. كيف حالك اليوم؟ كيف حالك يا عمي جمعة؟
- كيف قبل يا وليدي، كيف قبل، الحمد لله على كل حال، توّا نهار وإلا ليل؟
- ليل.
- تساوى الليل والنهار عندي وانحصر المكان، ما أضيق الدنيا في نفسي، الله.. الله، الدنيا هواء.
- لا، لا.. وجهك ناير اليوم يا عمي جمعة، إن شاء الله بدأ الشفاء عليك.
- إن شاء الله، أنا أعرف الناس بحالي، حالي يا ولدي «حال القهره وحال البعير اللّي انكسر لَهْ ظهره، واحد حفر حفره وواحد نحره، وواحد خذا الشاقور وإدّ ناله، يا من نشد عن حالنا كيف حاله، حيين لكنها حيا مذباله».
- لا يا عمي جمعة، لا تيأس من رحمة الله. أحُس كبدي تتقطع وبطني تتمزق وين نسمع منك هذا الكلام الخالي من رفع الهمة، أنت نور في عيوننا ونار في صدورنا، أنت جبل عالٍ نلجأ إليك كلما أُغلقت نوافذ الأمل في نفوسنا وسُدّت مسارات آمالنا. يا أيها الطود الكبير أرجوك لا تتزحزح.
- معليش يا وليدي، نحن بشر.. همومي فاضت على لساني، والمرض أضعف ثقتي في نفسي، الغربة والأسر والإقامة الجبرية، كلها مشاهيب نار تُذل النفس الكريمة وتُحني الهامة المرفوعة وتُخرس اللسان الصّداح وتُعمي البصر!
- كلامك اليوم مختلف يا عمي جمعة، كنت قوياً في كل شيء، أحنيت الحديد وكسرت الصخر، أنت مثال للأصالة والرجولة، وأنت سيد كبير من سادات الوطن.
- لكن آخر عمري جسد متعفن مرمي في الزبالة بين الذباب والقُمّل، حزن وألم وهمّ. يا الله أنت ربي ورب كل الناس وأنت أعلم بما في نفسي مني، قرّب لي طريق الخلاص على الأرض أو في السماء، يا عزيز لكل غريب، ودليل كل مسافر.. أعنّي على بلواي ولا تؤاخذني بهفواتي. أحمدك على ما أنا فيه.

- هل جاء الطبيب اليوم؟
- الطبيب هو الله.. الطبيب لا يزور الموتى! الأسبوع الماضي زارني الطبيب وقال لي قبل أن يمشي ويسّكر الباب: «جمعة، أنت فينيتو[1]».
- لا تأخذ بكلامه.. أمّال العمر في إيده!
- الطبيب هو الله. كان يكلمني وأنفه بين إصبعيه.
- الأوغاد، الأوغاد الكفرة، حتى زيارة الطبيب لمريض قطعوها.. تفوه، المفروض مكانك في المستشفى موش في هذه الخربة اللّي كيف بيت الراحة، قاعد هكي بلا دواء ولا مأكله، لعنة الله عليكم يا كفرة يا منحطين! يا مُذلي الشعوب ويا لصوص خيرات الأوطان.
- ذئاب جائعة، لا عندهم شفقة ولا رحمة، هوام تمشي بلا قلوب، المستشفيات لهم وحدهم، ما عندهم عطف ولا شعور إنساني، فرّقوا بين الزوج وزوجته والأب وابنه والمواطن ووطنه بدون وجه حق، اليوم عندي أكثر من عام وأنا طريح الفراش، كسرّ البرميل ظهري وين طاح عليّ مليان وأنا مطبّس نرفع في شكاير القمح، كانوا ينظرون إليّ وأنا ممتد على الأرض أتلوى من الألم بينهم، يا طليان يا كفرة، لعنة الله عليكم، اليوم في خدمتهم سبع سنين، ضاعت وضاعت قوّتي، كانوا يلقبوني بالحصان كيف ما كان عندي من صحة وعافية!
- وشجاعة وقوة وعزيمة، وحب الوطن.
- وفي رمشة عين ضاع كل شيء وانساح على أرض لا تجود عليّ بشيء، كما تراني راقد على جنب واحد ما نقدر نتحرك إلاّ ما يحركوني، والقمل والدود يسرب فوقي وتحتي وما يحوّله أحد، أنا غريب يهجّر إلى بلاد الغربة، أُخذتُ على حين غفلة وأُجبرت على الرحيل إلى إيطاليا وأنا معزتي في كياني ومكاني وفرحتي بين أناسي، الله لا يسامحك يا شيخ القبيلة، يا عبد الحميد الغرغار، قاتلك الله وأماتك على الكفر، كان زهت لك في الصبح لا تنسى ظلام الليل القادم في العشية.

(1) كلمة إيطالية تعني: أنت انتهيت.

- «الرِّجَا في الله والخير مِنَّهْ موش بعيد، يفرّجها يا عمي جمعة».

- يفرّجها.. اليوم سبع سنين كمّلْناهن ما لاح بينّا ولا جاء من بعيد انباه، سبع سنين منفيين عن أوطانَّا مفصولين عن عايلاتنا بدون وجه حق في بلاد الطليان، ولا ندري ما يجري الآن، النفي كلمة لا نعرف لها إحساساً ولا معنى واليوم ظهرت علينا بوجه بشع وصورة قاسية وأصبحت قضية كبيرة متأزمة في نفوسنا وسلوكنا.. طرابلسيون منفيون إلى دولة كبيرة أخذت بلادنا بين يديها وها هي تأخذنا نحن في جوفها، إيطاليا شعارها القهر ومبدؤها الكفر والكذب والتفرقة بين الناس، كل ظالم هالك، انطفأت فيّ روح المغامرة والجسارة، لقد سقط نقابي وطاح جردي عن رأسي!

ما ترى في قولي هذا يا أسعد؟ إني طريح ومُقعد، إني عاجز أعيش زمن الوهن!

- مازلتَ جبلاً شامخاً في علاك، سيد القوة والرأي السديد، مشعل وهّاج ينير ظلام النفس ويثبّت أقدامنا على دروب الأمل والتطلع إلى الخير. لقد علمتنا أن القوة هي قوة النفس وأنّ التحول إرادة متفاعلة وعزيمة ثابتة، ولا يضيع حق وراءه مطالب!

- أجل.. من واجبي أن أعلمكم وأرشدكم لأنني أكبركم سناً وأكثركم تجربة.

- وشأناً وعلماً، كلامك فضائل وتوجيهاتك بشائر خير.. أنت المعوّض.

- يا أسعد، أسعدتك الأيام، إنهم جبناء، عظمتهم شكلٌ ونظرتهم وهمٌ! إنهم لا يستندون إلى حسّ شامل وإلى شيء ثابت، عظمة العتاد الحربي والشموخ بالصولجان هما في الحقيقة أبواق نافخة وطبول جوفاء لا يصدرون عن عقيدة راسخة مستنيرة. وسوف تثبت لك الأيام ما أقوله مع اختلاف الليل والنهار.

- نعم.. نعم، صرت أدرك هذا وأتحسس التفاصيل، لقد أذهلتني قوتهم أول الأمر وعَظُمَ شأنهم في عيني وجذبني ضياء وومیض مدنيتهم حتى أنني قاربت أن أحاكيهم ولكنني توقفت ورجعت!

- كيف؟

- ليلهم كأس وعبث، سادة في لباسهم وعلى أجسادهم، وعبيدٌ في قلوبهم، كنائسهم ومعابدهم طقوس بلا مضمون ورنين أجراس ونواح ضارعات!

- ومع هذا أقدمت علينا متعالية وحاربتنا جَوْراً وبهتاناً عندما استضعفت أمرنا واستصغرت شأننا، وسيكافؤها الله بالذل والخنوع منا نحن أو من بأس أمة أخرى أقوى منها ثباتاً وعتاداً!

- وتتكسر إن شاء الله دولة الظلم والقهر.

- ولكن الله خلقنا بنفس القوة والتكوين، هم ساروا إلى الأمام ونحن توقفنا، والتوقف عن السير تراجع وتخلف، فمن الذي يقع عليه اللوم وما هي حجتنا؟!

- العلم والإيمان.. العلم والإيمان يا أسعد.. والحياة يا إيطاليا أيام، والأيام كالموج هذا يرفع وهذا يواطي، على الله يأتي الصبح وتعود حياتنا مشرقة عامرة بالبهجة وتعم الفرحة المنتظرة وتعود إلى حناجرنا أهازيجنا وأغانينا وترجع طيورنا المهاجرة وتزغرد المياه من جديد في سواق سوانينا.

- أماني كبيرة وأحلام عريضة تأخذنا إلى هناك. يا ريت يا عمي جمعة!

- نِعْمَ المولى ونعم النصير، ولكن لابد من مواصلة الحرب والثبات على روح العداء لها، والوقوف ضدها في كل ميدان تخوضه، لابد من خلع الرداء القديم. الركون إلى الزوايا والمساجد والأضرحة وطلب العون من سيدي فلان وسيدي فلان، والتضرع إلى الله من غير عمل وحركة وثبات على المبدأ، كلها أمور لا تكفي وحدها، لابد من الأخذ بالأسباب والتعبئة ورفع الهمم وشحذ النفوس وبعث روح الجهاد والنضال والخروج من مغاليق الجاهلية والانفتاح على منابع النور ومصادر العلم ووضع النقاط على الحروف الغائبة والغامضة. كل هذه أمور ملحة وضرورية للغاية وتُعتبر في علم الاستراتيجيات من أقوى أصناف العتاد الحربي لمواجهة وطرد العدو المغتصب حتى لو ملك أقوى أسلحة الأرض!

- هذه حقائق ثابتة ونظرة عميقة مباركة ولكن لا تغضب ولا تكدّر نفسك أكثر مما تحتمل، أنا أحسُّ وأتلقف كل ما تقوله من حِكَمٍ وعظة في مشوار الحياة. هيا توّا خلّيني نحركك شوية وأنظف لك جسمك من النجاسة ونبدلك «سويريتك[1]» وانحولك الكاغد من

(1) قميص.

تحتك، هيا لا تتحير، لا هروب من واقع أنت فيه، اتق الله.

- هذا كثير عليك يا ولدي، المقادير فرضت عليّ سلطانها وفرضته عليك أيضاً.

- هذا من صميم واجبي، عملي هذا يمثل معزة الوطن في شخصك الكريم، الوطن والوطنية لا تكون نسبة وانتساباً أو خطابة حامية على منابر ومنصّات الأسواق المنعقدة، الوطن والوطنية أبعاد وآفاق من جلائل الأعمال والأفعال لا تقوَى الألفاظ اللغوية على تفسيرها، كل ما أقدمه لك هو قليل.

- حيّاك الله يا أسعد.. بارك الله فيك.

- أنا كيف ولدك يا عمي جمعة.

- أعرف هذا دون أن تخبرني، في الأيام السابقة خُفتُ عليك ولكن الآن طمأنتني وأرجعتني إلى نفسي واستقراري لكن حذاري أن يشدوا يديك ويستولوا عليك، ابتعد عن أنسام العطور المثيرة وغواية سائحات الليل وابتسامات الإغراء في ملتقى البارات، إنك مسلم ومُستهدَف ومسئول أمام الله، وعين الله لا تغفل عن أحد، وكل مولود شارٍ وبائع، وقيمة الشراء في هذا الخضم أفضل من ثراء البيع والعمر ساعة وإن طال يوماً. نقاوة العنصر ومستويات الرجولة غالباً لا يظهران إلا في صهد النائبات والمحّن الشديدة. يذهب كل شيء وتتحول الكائنات إلى تراب ولا تبقى إلا الأعمال الجليلة لأصحاب النفوس الكريمة والأيادي المنصفة البديعة. فالوطن يا أسعد...

- قضية حية مسلَّم بها، لم ولن تغرب يوماً شمسه عن سمائي، فهو دائماً في صدري وفي عيوني وعلى طرف لساني، الوطن كون كبير يجري في دمي وتتحرك أفلاكه في كل اتجاه في خلايا جسمي فلا يضيع مني حتى وأنا في عالم النوم.

- يا أسعد.. يا أسعد العمر، حاولت مرات عديدة أن أجعل لنفسي طريقاً وأن أعود ولكنّ أسوار الحصار جبال عالية وبحار واسعة، ومع ذلك لم أفقد الأمل، دائماً أرى دروب عودتي تمتد محاور ساطعة على البحر الزاخر، ولكن هزمتني الأقدار وخدعتني الأيام فأنكسر ظهري وعجزت عن الحركة.. لا إله إلا الله. أنت خالقي وأنت أدرى بنفسي مني.

- أنت رفيع المقام يا عمي جمعة، أنت لست كالآخرين، إن الله يحبك يا عمي جمعة.

- أنا مؤمن وغيور على كرامة وطني، ومظلوم، أحب المواجهة والدفاع عن حقي، لقد بقيت وجماعتي حائطاً قوياً يشد بعضه بعضاً سنيناً وسنيناً لم نتغير عن بيئتنا وعاداتنا وثقافتنا التاريخية.

- معظم الجماعة التي نعرفها بادت ملابسهم القديمة وتقطعت وتحولت إلى خرق بالية فاستبدلوها بالجبة والبوطويل[1] والبرطيلة، كانوا غير راضيين عن ذلك، سمعت أحدهم يوماً وهو ممسك بطرف عباءته البالية ويقول بحنين بالغٍ: «هذا ما بَقِيَ لِيَ من أثر الماضي، أشم منه رائحة الوطن والشعور السعيد»! وسمعت آخر يغني بنبرة حزينة وهو في الحُلة الإفرنجية:

هومي[2] يا أمي عليّ هومي القلب مسلم والفريسة[3] رومي[4]

- صدق، هذا رجل يحس، له قلب، ويشعر من وجدانه لا من جسمه!

- لم أحس بقيمتك الكبرى وعظمتك إلا عندما ابتعدتُ وفقدتك، أنت عصب الحياة وروح الوجود ومملكة السعادة، لن أتنازل عنك يا هبة الله ويا رداء الستر ويا مجمع الأهل، والأحباب. أيها الوطن السعيد الذي لا يتجزأ ولا ينفصل.

- الحمد لله.. الحمد لله.

- هل استحسنت قولي؟ هل تراني قلت ما عبّر عن إحساسك يا عمي جمعة؟

- نعم.. هذا ما كنت أتمناه منك وأن يتفاعل فيك، أسعد.. أنظر إلى يدي ماذا ترى؟ أنظر جيداً.

- خاتماً رفيعاً من الفضة.

- كيف هو؟

- جميل جداً، بل إني لم أر مثله من قبل، صائغ بديع ذلك الذي صنعه واشتريته منه.

---

(1) سروال.
(2) توهم وتخيل.
(3) الجسد.
(4) الفريسة رومي تعني: الجسد رومي بلباسه.

- انحدر إليّ من ثاني جد وقدمه لي والدي عندما كنت يافعاً مثلك ومنذ ذلك الوقت لم أخلعه من إصبعي، أمنيتي كانت أن أعطيه لابني كنقل متوارث، ولكن ها هو الأمر كما تراه الآن، اختلفت المجريات ولكن لا أريد أن تتضارب المُثُل وتتبدل القيم، اخترتك أنت وقررت أن أعطيه لك، هيا خذه إني خلعته.. أنت الآن أبني. واعتبره سيف القداسة والمنعة.

- تعطيني خاتمك؟ ماذا تقول يا سيدي!؟ هذا لا يجوز، إنه يخصك وحدك فكيف تعطنيه؟ إنه إرث العائلة ومن ذكرياتها الجميلة، إنه تاريخك وتاريخ أجدادك فكيف تعطنيه؟

- في مثل هذه الظروف نحن واحد، أنا الآن يا أسعد تجاوزت مرحلة لِبْس الخاتم ولا يفيدني في شيء، بلادك ترتجي، تترقبك وتناديك بأعلى صوت، عليك أن تملأ قلبك بالآمال الرحبة والأحلام السعيدة، توخّى الخير دائماً في كل خطوة تخطوها وتوقع النجاة في كل لحظة وحرّض على الانفعال وشحذ الهمم واعمل على هدم جدران الخوف وترقب لحظة المحاولة الكبرى وامتطاء صحوة جواد الزمن المثمر، العبرة يا أسعد في الإرادة الجادة لارتياد سلم الصعود، وهذه كلها لا تأتي إلا من مخلص أمين عميق الإيمان يحس بنبضات ضمير الوطن ويرى بعيونه.

يا أسعد.. ليس كل من يذكر الله متين العُرى عميق الجذور حَسَنْ الطوية، كثير من أناسنا لا يعرفون معنى الوطن ولا يثمنون قيمته كما نثمّنها نحن ونؤمن به، يتكالبون على خيراته ويتنافسون على امتلاك ساحاته، ولكنهم في النائبات يتخلون عنه جبناً وطمعاً، وإني أذكر ذلك الشيخ الذي ترك الرمز ولبس الشعار، ذلك الذي ناصبني العداء ولا أرغب في عداوته، ولكن إرضاءً لسيده تخلى عن كل شيء جميل بيني وبينه، ولكن بالرغم من ذلك يبقى الوطن بيننا، وحجتي سلاحاً في يدي.

يا شيخ القبيلة اتق الله في حقي، على الأقل اترك هذا الأمر إلى يوم آخر، اليوم كما تعرف هو موسم نصف شهر شعبان، وإني مكبّر لعائلتي[1] وإنها تترقبني على عجل، قال في وجهي

(1) موسم أو كِبيرة يعني: يوم يحتفل به المسلمون في المناسبات الدينية. ومن حق وواجب وليس العائلة أن يشتى اللحم والخضار والتمار بهذه المناسبة.

حانقاً: لقد حُسم الأمر كما قلت لك يا جمعة يا بن يوسف. كان يقول ذلك وكأن في يده أمر الموت والحياة. هؤلاء وأمثالهم تجدهم في كل زمان ومكان، وتراهم دائماً في مقدمة الصفوف لعرض الخدمات للسيد واقتناء الجيّد ومسايرة الباطل، يا أسعد، الوطن لا يتجزأ ولا يجوز فيه الحل الوسط والمداهنة من أجل أغراض شخصية أو مطلب يخص فئة أو قبيلة.. أحذر هؤلاء إنهم مرض قاتل، ومصائب أيام، ولعنة التاريخ. من أجل هذا أربّيك وأعطيك خاتمي لتعود فارساً منقباً متيقظاً ثابت الخطوات ويلتف حولك الرجال وتعزف أمامك معزوفة النصر إن شاء الله. احذر أمثال هؤلاء.. احذر أمثال هؤلاء.. فإنهم بيئة فساد..

- خاتمك تاريخك ومجدك. كيف ترى هذا يا عمي جمعة!؟..

- التاريخ هو الوطن، والوطن نحن جميعاً.. وتغرس الفسيلة.

- في خبايا نفسك مطلب كبير أو شأن عظيم مازال يدعوك إليه بشغف، كثيراً ما أسمع منك هذا الاسم تذكره برجاء، ماذا تقصد بكلمة فسيلة؟

- فسيلة؟! ألا تعرف الفسيلة؟ عندك حق، إنها هناك. هناك...

غاب لحظات مغمضاً جفنيه ثم عاد ورمقني بحدة ثم قال بصوت متحشرج بالحزن ومطلِل بالدمع:

- مازلتُ أذكر مشهد ذلك اليوم بكل حرارة في نفسي وانفعال يضطرم كأنه في هذه الساعة ووهج شمسه مازال يلفح وجهي، كان الوقت زوالاً والسوق مازالت حامية في شدتها بين برّاح ودلاّل وبائع وشارٍ والكل في هدير النشاط توقفوا بالقرب مني وأنا قائم بين الناس أبيع ما تبقى لديّ من خضار، بعد أن اشتريت كل لوازمي، ونفسي تلح عليّ وتتوق إلى بيتي، لم تثر اهتمامي تلك المفاجأة ولم تشد انتباهي إلا عندما سمعتهم يتحدثون بصوت مرتفع ويذكرون اسمي.

- ها هو «ها هو واقف يبيع يا سنيور[1] مازيني» مازال ما كملّش، إنه نشط وملتزم، كان تبّوه راه قدامكم، ما تخلوشّي إيروحّ.. راه معادش تقدروا عليه.

(1) كلمة إيطالية تعني: يا سيد.

- أو.. سالوتي[1]«سنيور جمعة»، أنت على دراية وصواب، اختيارك ذكي، مثل هذا الصنف نريد يا شيخ القبيلة، أنت مخلص في عملك، هكذا.: «طويل القامة، رشيق، تجمعت فيه صفات كثيرة، قوة الجسد، جمال الوجه، سمرة أهل البلد، والشجاعة على ما يبدو، بنات إيطاليا ينجذبن إليه بسرعة، حتى في الشارع وفي رابعة النهار، تحياتي يا سنيور جمعة، أقدّرك وأحترمك يا شيخ القبيلة، أنت شيخ كبير».

- هذا واجبي يا سنيور مازيني.

- أنت مخلص لإيطاليا.

- إن شاء الله .. هذا من واجبنا يا سنيور. الله يقدرنا على إسعادكم ومساعدتكم.

اقترب الشيخ مني أكثر، منبسط السريرة، نظر في وجهي ملياً ومدَّ لي يده مصافحاً، كلمتُه قبل أن يذكر لي أمراً يريده.

- ما هذا الذي يجري أمامي وفيه ذكر اسمي يا شيخ عبد الحميد؟!

اقترب من أذني هامساً بنبرة المنتصر وبلهجة الإكبار. بإحساس النسبة.

- مبروك يا جمعة، أنت من أولاد الأصول، أنت تعرف محبتي وقدركم عندي، حصلت لك مكان مهم يطيّرك من الفرح.

- خير إن شاء الله.

- سجلت اسمك في قائمة المسافرين إلى إيطاليا بيش تمشوا وتخدموا فيها. هم يبحثون عن الرجال الأقوياء مثلك.

- والإيطاليات ما يلدناش التريس؟ وهلها وين مشو؟ إيطاليا يخدموها ناسها، ونحن وين نمشو، من يخدم بلادنا؟ لا.. كل واحد في بلاده!

- يا جمعة صلي على النبي، تمشو وتروْحو كل ثلاثة شهور مرة لمدة سنتين، موش كل واحد يختاروه يخدم في إيطاليا، والله العظيم عندك فيها خيره، غير أنت الله يهديك..فكّر كويس..

(1) كلمة إيطالية تعني: سلام.

- كثّر خيرك يا شيخنا، ولكني أُقدّم اعتذاري لا أريد خدمة الكفار مثل كثير من الناس الذين باعوا دينهم ودنياهم! هاوينا أولادك سجلهم بدلاً عني، إذا كانت هي ميزة خاصة وتفضيل كبير أنت أولى بها.
- خدمة الكفار؟! هذا كلام عيب لا يرضى به الطليان، كلام حار لا يقبله الطليان، أنت لا تقدر ولا تحس بالتبعات، إيطاليا قويرنو[1] يا جمعة يا بن يوسف قويرنو!...
- اللي يركبها يعرف كيف يسوقها يا عبد العبيد، قويرنو وإلا حويرنو أنا لا أريد وأنا كَلْمِتي ما إطّيح في وطا.
- هذا مسّ في شخصيتي يا جمعة، هذا عيب كبير منك واطيتني قدام الناس.
- لا تكبّر شخصيتك على تصغير شأن غيرك، الدنيا ما دامت لحد وكل يوم تظهر شمس جديدة، أنا حر، وبالتالي أن لم أذكرك بالّسْمْ يا شيخ القبيلة، قلت مثل كثير من الناس، أنت تعرف أني لست محتاجاً إلى عمل وكل نشاطي وجهدي ليلاً ونهاراً لا يغطيا نصف مساحة سانيتي، لكن أقول لك، لا يجذبني زها الألوان ولا يغريني سحر اللسان أنا متشبع من أصلي وعيوني مليانة خيراً وعزاً، أقدّس الكرامة واعتز بالرجولة، أنفي لا يشم إلا الهواء النقي، لقمتي نظيفة ولباسي جديد طاهر، أقول لك يا شيخ القبيلة، معيشة يوم في بلادي بين أهلي وناسي، أفضل لي من إقامة عام في بلاد الناس ولو كانت قطعة من الجنة.
- يدي ممدودة لك يا جمعة يا بن يوسف هيا قبّلها وأرخي ما في يديك.
- استغرب منك هذا القول ألا ترى نفسك في سوق وتسمعك الناس؟ متى يحاكي الجندب مقام الصقر؟!. ها.. ها.. ها..
- البيع والشراء ما فيشي عيب، السانية يا جمعة، نص السانية، هل فهمت؟
- تفوه عليك وعلى أمثالك، ابن حرام، هذا الرومي أفضل منك .

(1) كلمة إيطالية تعني: حكومة.

- أنت تبي العصا، تعال أنت، أعطي السوط لتَّنينتي[1] خليه يروض هالحمار.
- يحاول الضبع في بعض الأحيان أن يكون أسداً ولكن طبيعته لا تتركه يتجاوز حده، رقبتك قصيرة وظهرك أحدب فلا تتعدى حدودك، لأنك ضبع إني أنظر إليك تحت هذه الشمس وبين هؤلاء الناس وأكاد لا أصدق ما أرى وأسمع.
- ماذا تقصد يا ولد يوسف؟
- الضبع، الذي هو أنت، آكل الجيف وبقايا ما تركته النمور، لِمَ تطلب من التنينتي جَلْدي؟ تناول السوط واجلدني بيدك أعمق ألماً وأشد وجعاً منه، اضربني على يدي، هذه التي كثيراً ما صافحتك، وعلى وجهي هذا الذي يبتسم لك كلما لاقاك، ولعنة الله عليك، عشت من خيراتنا وكسبت قيمتك ومشخيتك من مصاحبتنا وطول عشرتنا، لم أنس أيها الضبع ما كنت تقول لي: « آتي إلى مربوعتكم وأنا مغمض العينين يقودني أنفي وأجلس مع الجالسين، أعرف مكونات سقف مربوعتكم كم فيه زنورة وجريدة نخيل. ولكن لا رجولة من لئيم ولا وفاء من زنيم، بيتك بلا أبواب ونساؤكم بلا عقود وبلا فاتحة يا شيخ الخيانة والهواديق».
- عيب يا جمعة نحن في سوق وبين الناس.
- أعرف، ولقد قلت لك ذلك، من فتح باباً قد لا يستطيع إغلاقه ثانية، فأنت البادئ.
- أخجل وتحشّم وقدّر السوق.
- أنت الذي فعل العار، خزي عليك، لولاك ما عرفني هذا السنيور ولا عرف غيري ولا تمكن من طُرقنا ومساربنا وبيوتنا وأسماء عائلاتنا ولا حتى استقر في أوطاننا، إني أعرف جيداً أنك من فعل هذا لكي تثبت للناس أنك صاحب سلطة تخيف وفعّال لما تريد، إنها حياة الضعفاء، أعلم أنك لن تأخذ مني شبراً واحداً!
- ما قمت إلا بواجبي يا ولد يوسف، أنا أعلّم وأنظّم الناس، نحن محتاجون إلى إيطاليا.. إيطاليا «قويرنو» ما يقدر عليها حدّ! قويرنو يا جمعة يا ابن يوسف.

(1) رتبة عسكرية إيطالية تعني: ملازم.

- العبودية متأصلة في جذورك والخيانة في أصولك وظهرك عريض يمتطيه كل راكب ودرجات سُلِّم لكل أفَّاق، خوّان نكّار لا نسب ولا قيم لك، انحدرت من طرطور ولا يأتي من صلبك إلا طرطوراً مثلك يشب ويترقب دوره، يعيش على فضلات من فُتات الذل والسقوط ينتظر لحظات الركوع والانبطاح، ما أهينت أمة على وجه الأرض لا تركع في سرها وعلانيتها لغير الله! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ما كاد ينهي عبارته هذه حتى لطمه الشيخ على وجهه بعنف وتوالى عليه السوط بضربات متلاحقة من طرف التانينتي!

- الله الله!! تُهان الرجال من أشباه الرجال وتُضرب التريس وهم في معزة أوطانهم، يا أرض بلادي لا تضطربي لوماً ويا نخيل الساحل لا تميد حزناً وأسفاً فإن هذا الزمان مشحون بالظلم.

- هيا اترك ما عندك واتبعنا، راه السوط مازال في يد السنيور.

أخذني «التانينتي» ومجموعته من عساكر الشرطة. قاومت وكدت أفلت منهم، ولكن تغلبت كثرتهم على مقاومتي، تجمّع الناس من حولنا وكثر الصياح والسؤال، خيره.. خيره، شي دارلهم؟ هيا اهجموا عليهم وخلصوا الراجل منهم راهم يهلكوه. خاف السنيور أول الأمر وكاد يهرب مع عساكره ولكن الخوف والتخويف من روافد ظلم هذا الزمان، أعيرة نارية انطلقت إلى الفضاء من بندقية أحدهم، هاج الناس وماجوا وتلاطموا مع بعضهم، سمعتهم يقولون لي من بعيد، امشي معاهم مايدرولك شي هالكلاب ما تخليهمش يضروك، برّا معاهم، وبدُل هالساعة بساعة أخرى.

وبدّلت تلك الساعة بساعة أخرى، إلا أنها طويلة وغيّرتْ مسار حياتي كاملاً وساوت عمري كله، يا ليتني قاومت حتى النهاية ومتُّ في سوق قريتي بين أناسي وأهلي وعلى أرض غذتني وغذت أجدادي وحافظت على تراثي وميراثي، سحبوني من السوق ورموني كما يُرمى الكلب الشرس في ساحة حوش يحيط بها سور عالٍ مع كثير من الناس في مثل حالتي في خوف وتذمر وقهر، بعضهم يدعون الله ويسبّحون وبعضهم يهاجون ويثيرون الحميّة وبعضهم يضربون الكفّ بالكف ندماً وأسفاً. بتنا ليلة لا يوصف طولها وحزنها. في عشية اليوم الثالث أخذونا في صفوف حتى الميناء حيث يرسو المركب، ركبناه وحشرونا فيه كالغنم

المجلوب لبيعه في السوق! لا أستطيع وصف الحالة وهي تموج في نفسي ولا كيف أعبر عن الساعة الحزينة التي تحرك فيها المركب المشئوم إلى داخل البحر.. زمن مخنث تنقصه الذكورة الكاملة، يا زمن الفحولة لقد حلّ زمن قهر الرجال، وداعاً يا زمن الرجال، وداعاً يا بلادي، وداعاً يا أهلي وأجدادي، وداعاً يا قريتي العزيزة ويا أناسي!

كل ما حولي يضطرب وكل من حولي يدعون الله ويبتهلون إليه ويتوسلون بالأولياء وبسيدي عبد السلام، كل الأفواه «تشْرَغتْ[1]» والدموع تنهمر والقلوب «تعيّط»، سوق قائمة في وضح الضحى ولكن بوجه آخر وفي مقام آخر، الدعاء والبكاء والأنين والكل ينوح بملء فيه، إلا الإيطاليين تراهم وقوفاً يتفرجون ويضحكون! آهٍ يا أيتها الشمس الغاربة ما أغرب ما يجري وما أشرس الإنسان. ولكن نحن الذين تخلينا عن أصولنا، وها نحن ندفع الثمن مضعفاً.. ياويلاه!! هكذا لقد تخلينا عن قيمتنا واعتبارنا، عندما تخلينا عن الوضوح والمكانة، ودخلنا هامش الظل لنستريح طلباً للنوم.

الموج يرفع ويواطي والساحل الحبيب يبتعد ويختفي من أمامنا شيئاً فشيئاً وراء البحر حتى صار خيطاً رفيعاً يزيغ في قلب الأفق ورؤوس النخيل تميد وتودعنا بتلهف شديد، كأنه الوداع الأخير، بقيتُ أتابعه في دهشة حتى غدا مع الشفق الأحمر، كان آخر مشهد ودعته عيني وانطبع في قلبي، وبقيت صورته حية معي حتى هذا الوقت، رجل «يَجبذْ على سانيته» هادئ البال لا يشعر بنا ونحن نناديه ونومئ له بأيدينا مودعين الوطن العزيز الغالي. بالسلامة يا عمي الجبّاد بالسلامة، اترك السانية وحارب الكفار.. خذّ منا هذه الأمانة. اترك السانية وحارب الكفار والذين يعاونون الكفار...

دخلت في معارك مع الأمواج العالية، تساوت الأبعاد وتضاربت الألوان وامتزجت الأصوات وبُح أكثرها وجاء الظلام من كل صوب وانطبعت السماء بالسواد، صرت لا أميز بين هدير البحر وما يعج في بحور نفسي، أصابني الدوار ووهنت مفاصلي وعجزت قدرتي عن الحركة واغرورقت عيناي بالدموع، تدحرجت بعضها وعلّقت الأخرى بين الخط الرفيع الذي يفصل ملتقى الجفنين، تراءى لي والدي يمشي نحوي، وفي يده الفسيلة، يدقق النظر في

(1) تنادي في خوف وبصوت باكي.

وجهي، يحرك شفتيه ويحاول أن يتكلم، ثم يختفي ويظهر ولدي يوسف واقفاً عند الباب ينتظرني بصبر نافذ يترقب مني «الشاكار[1]» وَعَدْتُ هذا وَوَعَدْتُ هذا، إنهما وعدان حملت ثقلهما على كاهلي، حرمتني الأقدار وتقلب الأيام.. إنه الوعد المر!

أبحرت المركب تحت سماء مجهولة وعلى يَـمّ متقلب المزاج، «عيناي إلى السماء ولساني يلهج ابتهالاً إلى الله، لأول مرة أشعر بالخوف الحقيقي وأحس بالضياع، كم تمنيت على الله أن يأخذها على حين غفلة إلى قاع البحر أو أن تهشمها مدافع فرقاطة معادية تقلب عاليها سافلها.. يا الله يا كريم!»

- عمي جمعة، ارتاح شوي، هدّئ أعصابك، كثرة الكلام تتعبك، وأنت مريض وهذا الحديث مهوش جديد علينا.

- صدقت، كلام قديم، ولكن أين الجديد؟ لو تعلم يا أسعد ما يجوس في نفسي وما يفور بين ضلوعي لازددت عجباً، كلام قديم ولكنه من حياتنا وفلول ذكرياتنا، تلك الذكريات والقيم التي لا نستطيع أن ننفصل عنها لأنها عناصر البقاء والثبات ومنطلق الوجود، هذا الكلام يتحرك نابضاً في أعماقنا ويسري في وجداننا، إنه ذلك الذي يحمل الأثر الذي يبقى في كل شيء جميل حتى تبني عليه الأجيال المقبلة هيكل تاريخها وصدق اتجاهاتها ومحاور دروبها ورؤية مستقبلها، تلك الأقوال منا وإلينا، هكذا تُشيّد وتُشاد سلالم التاريخ، لقد علمتني الأيام يا أسعد أن الأمم حضارات وتاريخ، فيسقط من يسقط ويبقى من يبقى ويعلو من يعلو، ويبقى الذي يعلو وفي نفسه الحب والصفاء يخفّقان كعلم أمة زاخرة بالحضارة. إن الكريم سحابة غيث وظلٍ رحيم تجوب القلوب وتسقي الضامئ. عندما تعود يا أسعد إلى تلك البقاع الحنينة كن رمزاً، كن جيلاً عالي الجبين كريم النفس، ادخل في الناس بلسان صادق وقلب مفتوح، عشّ معهم وبينهم، خذّ منهم باعتبار ولطف وأعطهم بمروءة حتى يقوى رباط الحب والحنان بينك وبينهم لأن هؤلاء هم الأهل الذين يمدّونك بقوة الدفع ويحمونك من الخلف وينصرونك وقت النائبات. واعلم أن النفس أمّارة بالسوء وأن الغرور من محاور الكفر، إذا انبسطت لك الساحة وزها في

(1) نوع من الحلوى.

عينيك موكب الربيع فلا تجنح بعيداً حتى لا يظنوا بك الظنون ويتراجعوا عنك وربما عزلوك من نفوسهم فلا مقام ولا وجود يذكر لمن تركه أهله وذووه حتى وإن كان بيده صولجان العرش وقوة الدولة فإن مصيره السكون التدريجي والموت الأبدي، لأنه فقدّ الوميض الذاتي. حرّك كل الناس واجعل قضية الدفاع والجهاد حياتهم ونصب أعينهم ليلاً ونهاراً.

- كلامك يدمي جوارحي ويجيش عبراتي، لا أعرف أنك بهذا القدر الثمين.
- إنه التكوين، إنها التربية يا أسعد، إنها التربية التي تُبْنَى عليها سواعد الرجال. لا تجعل أهلك يستكينون للعدو وتتبلد حميتهم، حتى لا تحيط بهم مقابض الهلاك - لا تتركهم يستكينون - دائماً في استنفار - الراحة تبلد الذهن وتفقر الدم.
- ظهر عليك الضجر، انْقَاعْدَكْ شَوي على ظهرك؟ أنا نْشُو فْهَذاَ إرِيّحَكْ.
- لا.. لا، وين نقدر، توقف جسدي عن قدراته ورغباته، أنا خلاص يا ولدي، إن شاء الله على الخاتمة والشهادة، العمر واحد وثمين ولا معنى له إذا لم يؤد الرسالة.
- بعد عمر طويل، وفي بلادك.
- عمر طويل؟! وبهذا الوضع؟! عمر بناقص منّه، حتى وإن عدتُ إلى قريتي الآن فإنها عودة بلا قيمة، وقيمة الجسد اليد والرْجل واللسان.
- اتق الله ولا تيأس من رحمته.
- لا إله إلا الله، ولكني أَعَرفْ الناس بحالي وبنفسي، الرجوع إلى الوطن صار حلماً ووعداً لا يُرتجى، لقد كثر همي واشتد غمي وأصبحتُ ثقلاً عليكم وعناءً متواصلاً وأضراري كثيرة.
- استغفر الله العظيم، لا تجعلني أبكي وأحزن، إن الله يرى ما بفكري وقلبي. هيا توّا خليني نعدّلك[1] طويسة شاهي وبعدين اندير العشاء، شي تبي تاكل يا عمي جمعة؟

(1) يعدّ.

- خاطري في عيشّ[1]، إذا كان ما يتعبكش يا وليدي.
- تعبك راحة يا سيدي.
- و.. وكان ما عندكش مانع قول للجماعة يجوا عندي الليلة، نتعشوا ونسهروا مع بعض، أكثر من سبع أيام ما ريتهم، متوحشهم ياسر ياسر.
- حاضر، امّال توّا خليني نمشيلهم وبعدين نطيب العشا في داري حتى لا يضايقكم الدخان.
- باهي، هذا كويس، الله يأخذ بخاطرك ويسترك ويوسّع عليك.

خمسة من أبناء الوطن العزيز يسهرون في دار عمي جمعة وهو ممدد بينهم بمعنوية مرتفعة ونفس حية يحادثهم ويناجيهم، يضحك أحياناً ويغيب أحياناً أخرى، لاشك في أنه مسافر في الخيال يتنقل بين محطات في الزمان وجبهات مؤثرة وتصرّم المواقف وانحصار المكان.

- «خيرك يا عمي جمعة؟ شي تحس؟ فيه شيْ يوجع فيك أكثر من قبل؟»
- لا يا أحبابي، اللي عندي من قبل لا يترك مكاناً لوجود آخر، اللي حملته لا يتحمله جبل، ثقل الوعدين على جسمي، كل يوم يزدادان وزناً، واحد من والدي والآخر من ولدي، صوت والدي لا يتوقف رنينه في أذني وكأنه الساعة وكأنه النداء المتواصل، ودعاء يوسف وصورته الباسمة ووجهه الفرح، مازال يناديني في انتظار متلهفاً لقدومي يترقب حفنة الشاكار، كأنه في هذا الوقت، ما أحزن هذه الذكريات في نفسي. وعدان صارا وقفاً عليّ، دريني يا مصائب الدهر دريني، أوقفتني المقادير، أوقفني البحر وهزمتني مصائب الزمان، والدي رحمه الله شيخ كبير وأنا ابنه الوحيد، وُلدت له بعد طول انتظار، كان رجلاً مباركاً يحبه كل الناس الذين أعرفهم، وكان فقيه جامع القرية وقاضيها ومرشدها. وعدته بسابق يمين قبل أن يموت، أن أغرس الفسيلة على رأس «المجر[2]» عندما تبلغ من العمر أشدها، هي وليدة «وْشَكة[3]» الجابية، وهي الفسيلة الوحيدة، هذا ما أنجبت، وهذا ما

(1) بازين (أكلة ليبية تقليدية).
(2) الحفرة الممتدة على استقامة أمام البئر لجذب الدلو من البئر، عن طريق دابة من أجل الحصول على الماء.
(3) نخلة مازالت صغيرة.

أُخبرت به من أبي قال: «حافظ عليها من الضرر وافطمها من أمها بحذر واسحبها بسلاسة خوفاً من عطبها، يا جمعة، غرست أمها ليلاً ولساني لا يفتر عن قراءة القرآن وسقيتها بعد غياب الشمس عشرة أيام بحليب بقراتنا. هي وحيدة من نخلة نادرة جاءت بها إلى والدي يد المجهول، هكذا قال والدي، يتم غرسها في وقت معلوم وفي مكانها المحدد، صبح يوم اثنين أو خميس في منتصف فصل الخريف وتكون الشمس قد صعدت قدر شبرين عن محور الأفق وتوضع في حفرة بعمق ذارعين وفي مجال بحسب «قامة»[1] وذلك بعد أن تفصل عن أمها، وتبقى يومين كاملين في مكان بين شمس وظل بعيدة عن حركة الهواء والريح، عند وضعها تُسلّم بميل ظاهر نحو اتجاه القبلة وانحراف طفيف نحو مطلع الشمس، وتسقى كل يوم مرتين بعد غروب الشمس وقبل شروقها بحين قصير لمدة شهرين، ثم مرتين أسبوعياً، إنها فسيلة خير وبركة جاءتنا من جنس نادر، فهي نخلة جالبة السعد وحسن الطالع، ومن ضمن ما قال أبي في شأنها: إن لم تأخذها بهذه العناية والاهتمام والرعاية والحيطة فإنها قد تموت وبموتها تعود علينا وعلى قريتنا الخسارة والفساد، «نواصي واعتب وبعض من الذرية»، إنها نخلة وفيرة التمر الرفيع، تُبعد النحس والحسد وترعانا من مهالك الجوع وتشفينا من المرض!.. »

- لا تنسى الشاكار، سأبقى واقفاً هكذا عند الباب انتظر قدومك من السوق، لا تبطأ يا سِيدِي[2].
- لِمَ تطلب الشاكار إلا في هذا الوقت وفي مثل هذه الساعة؟
- لأني أعرفك، رائحة الشاكار الفواحة لا تمر على أنفي و لا أحس بتذوقه إلا في مثل هذا الصبح حين أراك تتبختر مزهُواً في ملابسك النظيفة الجميلة راكباً حمارك وأمامك وحولك حِزَم خضارك متوجهاً بها إلى السوق.
- ها.. ها.. حاضر، حاضر يا اسم جدك ويا عزيز أمك وأباك، سآتيك بالشاكار وما هو أحلى من الشاكار وأغلى وإن كان ثمنه كل ما أحمل، الْعب هنا وهناك، لن أغيب طويلاً

(1) قياس مسافة فتح الذراعين على استقامة.
(2) يا أبي.

وآتيك يا يوسف العزيز بما أحمل لك من شاكار ولحم وبرتقال، إنه يوم موسم يا عزيز، ألم تخبرك أمك؟ الله!! ما أحلى الطفولة وما أروع الأبناء! خصوصاً في هذا العمر الغريب.

أدخلونا ساحة الحوش الكبير وحالاً أحاطونا بالعساكر المدججين بالسلاح ليظهروا لنا قوة الدولة وجبروتها ومدى طغيان الإنسان على الإنسان. عساكر أغلبهم من أبناء الوطن إلا أنهم في لباس عسكر الطليان يقلدون حركاتهم وزفراتهم وتأففهم منا ويتباهون باللغة الإيطالية وكأنهم رضعوها مع حليب أمهاتهم لدرجة أن بعضهم يخاطبنا بها وعندما لا نرد عليهم يستعينون بمترجم، يلفتون وجوههم عنا مضضاً واحتقاراً ويقولون.. بَرّيكو[1]!

سبحان الله، من أي مادة وإحساس خُلقت هذه النماذج الكافرة الفاجرة والناكرة؟!

جاء الليل الحزين زاحفاً كظلام القبور، لأول مرة أحس بالخوف، ولأول مرة أحس أن الإنسانية ليست أكلاً ولباساً بقدر ما هي حريةً ومنطلقاً إرادياً، لا نعرف قدر الماء إلا عندما يجتاحنا العطش والجفاف، طلع نهار جديد ولكن على نفس أخرى وعلى ذات ليست ذاتي، أتململ على موقد ولهفة جامحة تدفعني نحو فوران غريزي مرتبك. كثيراً ما أجد يدي تتلمس خُرجي تتفقد حبات الحلوى والبرتقال، أجول في الأطراف والأركان المسوّرة أرقب الخارج بعين دامعة وقلب مجروح ونفس مقيدة أتطلع بشغف لعلّي أرى أحداً أعرفه أسلمه الحلوى ليعطيها ليوسف، أعرف أن يوسف مازال ينتظرني عند الباب!

صرت متأكداً أنني سأرحل إلى إيطاليا ولا أعرف متى أعود، هدأت فورتي وطأطأتُ رأسي حيرة وأسفاً وأجبرت نفسي للأمر الواقع وبدأت أبحث في كل مكان في المعسكر لعلّي أجد طفلاً مثل يوسف أعطيه الحلوى. الأطفال كلهم صاروا عندي في هيئة وفي صورة يوسف لأملأ عيني ولأروي ظمئي منه وهو يقضمها بهدوء وتلذذ وألمس شعره وأداعب خديه واستنشق رائحته، ولكن لا وجود لطفل، جئت إلى عسكري وفرحت عندما وجدته من جلدتي يتكلم بلساني ويقترب من شعوري، طلبت منه أن يوصل الحلوى إلى ابني يوسف،

(1) كلمة إيطالية تعني: حمار.

نظر إليّ ساخراً محتقراً وصاح في وجهي: امشي، امشي يا مهبول. نظرت في وجهه حانقاً وقلت في نفسي: لو أن الأمر بيدي.. باستطاعتي أن أمسكك من حزامك وألويك كالمروحة بيد واحدة ثم أرميك أرضاً كجيفة الكلب، ولكني تنازلت عن هيبتي وانجررت خائباً وفي نفسي أتذوق مرارة الألم وشعور بالتراخي والإذلال والغَلَبة! هكذا يفقد الناس اعتبارهم وقيمتهم وقيمهم عندما يحلّ الظلم والخوف والعبودية!

أشرقت شموس وغربت، وتصرمت أيام وسنين، وتعلمت من الأحداث ومن تجارب الحياة كثيراً، اشتغلت في أكبر المدن الإيطالية ووصلت إلى أقصى شمالها وشرقها وغربها واستقريت في جنوبها قرب البحر حيث المراكب المسافرة. إيطاليا بلدان ومدن وقرىً وأنماط متعددة وعصور متفاوتة وعادات وتقاليد متقلبة وشدٍّ عنيف بين القديم والجديد. هذه النظرة الشاملة جعلتني أراقب من مرتفع. نزعتُ عقدة الماضي، وأن كل الناس أجسادهم من لحم ودم، تحوّل خوفي إلى شجاعتي القديمة، وفي بعض الأحيان إلى جبروت وثورة تضطرم كالبركان، فكم من مرة تنشب مشاجرة بيني وبين فتوة من الشباب الإيطالي يختلط فيها الحابل بالنابل ويفور ذلك الغيظ الدفين وأكون المنتصر في كل مرة، قوتي تردع[1] خمسة منهم، ويسألني بعضهم: من أين جاءتك هذه القوة؟ أجيب: أنا ابن الهواء الطلق والحرية، ابن التمر وزيت الزيتون ودشيشة الشعير، وآكل من خضار ومحاصيل سانيتي!

حاربتُ على جميع الجبهات من أجل غرس الفسيلة ومطلب يوسف بكل إصرار، لأنني أطلب الموت أو النجاة متحرراً من قيودي، ويهرب الموت من أمامي في كل مرة.

بقيتُ شامخ الأنف مرفوع الجبين طري اللسان صارم النظرات. عندما أنظر إلى تحت أجد هامتي في مستوى علو الجبل، أكذّب نفسي وأقول: أ هذه إيطاليا حقاً؟! لا أصدق نفسي عندما أرى تحتي أمواجاً من البشر عبيد يسوقون عبيداً، عبيد للشهوات الرعناء وآلات زمن، إنهم يتحركون كأسراب نمل لا همّ لها إلا التقاط الحبّ وفتات الطعام واللجوء إلى حفر القذارة والرذيلة والحرام، ويعتبرون هذا من قيم الحرية والحضارة ومن السنن الممجدة. إن الله كرّم بني آدم وجعله خليفته في الأرض وعلّمه العلم وطلب من الملائكة أن تسجد له

(1) تضاهي.

وفضّله على كثير من المخلوقات، وخلق كل شيء في خدمته لأنه تحمّل الأمانة التي جزعت منها الجبال وخافت من ثقلها الكائنات.

الإيطاليون جبناء لأن لا رابط بينهم ولا عقيدة، ومع ذلك جاءوا إلى بلادنا ليستعمروها ويستعبدونا، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه علامة من علامات آخر الزمان!

يمتد الليل وينتقل الحديث من واحد إلى آخر وكان محوره يدور حول الوطن ومواصلة الحرب، تهيم النفوس الحبيسة في عالم الخيال والخواطر، ذكر العائلة والسواني والحرث والحصاد ومواكب الأعراس ومواسم جني التمور، وبدون مقدمة تصعد من أحدهم أغنية عَلَمْ عذبة الوقع جميلة المعنى تسمو عباراتها في نفوسهم وترقّص القلوب لألحانها، بعضهم يردد معه وبعضهم تخرسه العبرات!

تكلم عمي جمعة، بعد أن كفكف دموعه، العبرات مازالت تنفض صدره وتحشرج صوته.

- ألم تر ذلك الرجل الطويل بعد يا أسعد؟

- منذ تلك الوقفة القصيرة معه، ذهب وهو معنَّف ولم يعد ولا أعرف مكانه، قال إنه جاء حديثاً على أحد مراكب الشحن، أخذوه من بيننا بسرعة عندما وجدونا نتكلم لغتنا الأم وأنه من جلدتنا، أخبرنا أن الحرب تسري سريان النار في الهشيم والانتصارات متعددة، وكان يود أن يطلعنا عن أخبار جديدة في بلادنا، لاشك أنهم أخذوه بعيداً وتقطعت به السبل. لغتنا عندهم كالسحر العجيب واللغز المحير، يتمنون لو ينـزعوها منا وكيْ اللسان الذي ينطق بها حتى يطمسوا القرآن ويغطوا القديم وتمَّحى الطرقات وصحائف التاريخ!

- هذه أخطر وأشد ناراً من نيران المدافع، إذن علينا أن نحرك ضمائرنا وعقولنا ونستيقظ ونستفيد من تجاربنا وتجارب غيرنا، إننا خامة بشرية محدودة الكيان، علينا أن نتحرك لنعرف مكاننا، نراجع أخطاءنا، نخرج من جمود التقليد والتقيد إلى ميادين الحركة والإبداع ومصاحبة الحياة بكل نشاطها وفنونها ولا نبقى رهن القديم والجامد!

- كيف تقول هذا يا سيد جمعة؟ نحن ضعفاء سجناء في إيطاليا لا حول لنا ولا قوة، حاولنا الهرب أكثر من مرة وكنا نفشل دائماً وندخل السجون ونُعذب.
- إنها الأمانة عندما تُسحب منا أو نتوقف عن مصاحبتها أو حملها، هكذا نظام الحياة يا سيد عريبي، جزاء الحرب والدفاع لم يكن يوماً قصعة من الزميتة بالزيت أو قدحاً من اللبن والتمر، الدم والدموع والمعاناة هي التي تفصل الحق عن الباطل والحرية عن العبودية، لولا الخطأ ما كان الصواب ولولا الفشل ما كان النجاح ولولا التعذيب والجَور ما كانت الصحوة والشعور باليقظة، فعلى الليبيين مواصلة الحرب حتى ينصرهم الله.
- بارك الله فيك وأعزك ونصرك على أعدائك يا أبا عبد الله.
- وأنت يا سيد فضيل أراك متحفزاً للكلام، الدور لك، هيا اعطنا من جميل حديثك.
- يمكنني أن أعطي مثلاً. تمر من أمامنا آلاف وآلاف الأيام لتعلمنا إلا أنها تنسحب وتتقاصى دون أن نحس بها حتى نتعايش معها ونستثمرها، عندما ترانا لا نلقي لها بالاً ولا قيمة، لقد قوّمتني المتاعب ومارستني تفاوت الأيام وتقلّب الظروف، ما كنت أدري أن المعرفة ظاهرة ومعنى وأنها موجودة حيث يتجه طرفك وعقلك، دراسة الظواهر المختلفة والملاحظة الدقيقة منهج كبير جداً ولكنه غير محسوس بيننا بكل أسف، دراسة الظواهر والوقوف أمامها بدافع تحقيقي استقرائي، أصول معرفة وتعلم من الدرجة الأولى. منذ سنوات قليلة أدركتُ هذه الميزة واستهالني هذا السلوك الغريب، استوقفني بعضها مراراً لدرجة الإعياء وهي تعرض عليّ منطقها وتقلب أسرارها حتى نستلهم منها العبرة اللامعة والحكمة الساطعة. استوقفني ذات يوم مشهد عجيب، صراع من أجل البقاء والثبات من المرتبة الأولى بين ذئب جائع ودلق يصغره حجماً أربعة أضعاف، لكنّ الذي أخذني ولفت انتباهي واهتمامي قوة ذلك الحيوان الصغير وتصميمه على هزيمة خصمه ولو كان أكبر منه قوة وحجماً، فهو يدافع ببراعة، يراوغ في حكمة يستبسل في ثبات ويستميت في تفانٍ، الأول جاء من أجل أن يأكل الثاني والثاني وقف من أجل البقاء والدفاع عن الحياة وسنن الوجود على الرغم من صغر حجمه أمام الذئب إلا أنه يحس بالعزة والكبرياء. عندما يشتد تعبه لا ينحني ولا يهرب بل يقف عند جحره يزأر ويسترجع أنفاسه ثم يعيد الكرّة، وهكذا حتى انفصل الصراع بعد وقت طويل وتراخى الذئب

وأنسل راجعاً يجر ذيل الخيبة. أقول لو كانت قضيته قضية نجاة من الموت لأنسل إلى جحره وحفظ نفسه، ولكن ليظهر حكمة الله فيه، الدفاع عن البقاء والحفاظ على استمرار النوع من وحي فطرته، وهكذا عرض قدرته على مقارعة الأضداد ولو كانت قوة شرسة أقوى وأكبر منه، هزيمة العدو تتوقف على صدق النية والشعور والإيمان بالقضية، والقبض على الخونة ومواصلة الصراع حتى النهاية.

- بارك الله فيك.. وأنت يا بوراس، الليل طويل والساعات تحتاج إلى كلام وفواصل لتمضيتها، كنت تسمع فقط، هل عندك شيء جديد مع أشعارك وقصصك التي كنت تتحفنا بها؟

- نعم، المستجدات في هذه البلاد لا تنقطع ولكنّ الذي ينتسب إلى موضوعنا قليل.. غرباء جاءوا في زمن العَتَمَة، لِمَ جاءوا ونحن في زمن العتمة؟ ولِمَ العتمة أصلاً؟ كان من المفروض أن نكون في زمن الضياء والوضوح والعلم والإبداع وإظهار عضلات الفتوة وإرهاب الغزاة، إن لم تكن ذئباً جسوراً أكلتك الكواسر التي تترقب وتتحين سقوطك، كن كالأرنب وقت نومه، عين مفتوحة تحرس والأخرى مغمضة تغط في نومها، لا استقرار ولا أمان ولا عدل في هذا العالم! الحق والعدل تحميهما قوة الجسد والاقتصاد والعتاد، فلا مقام لمجموعة ولا عيش لأمة ترعى خلف القطعان بلا هدف ولا دليل.. لا تعتمد إلا على نفسك. لا تطمئن لأمر أو لوعد.. هو ليس في متناول يديك.

إيطاليا دولة منظمة غنية وموحدة، سألت يوماً أحد الإيطاليين، وهو بسيط يشاركني في العمل:

- لِمَ غزوتم بلادنا وأنتم لا تحتاجون إلى صحرائنا ولديكم في بلادكم كل شيء؟

- أنت من طرابلس؟

- لا.. من زليتن.

نظر إلى أعلى ثم إلى جهات أخرى وقال في تأنٍ:

- الفراغ، الطمع والطموح وإبراز الذات. القراصنة يُسرّون كثيراً بالجزر الهادئة والخالية عندما تكون مراكبهم محملة بالنفائس، هذا لابد أن يكون، وإن لم يكن منا كان أو سيكون

من غيرنا، السر في الأقوى يا رجل، أنتم قلة من البدو أهل نزعة رحالة غير مستقرة وعقلية جافلة تعيش خلف التاريخ في عالم واسع بلا قرار، خيام بلا أبواب تذروها الرياح ويغطيها السافي[1] ومسارب بلا طرق ثابتة تربط هذا بذاك، بشر يعيشون على إيقاعات شآبيب ورخات قصيرة من المطر مرة هنا وأخرى هناك، لابد أن نتوسع على حساب هذه الأرض المتروكة لنستوطنها ونحيي ونبعث الحياة في التاريخ القديم ونجعل لهؤلاء القوم قانوناً ينظم حياتهم حتى يشعرون بكيانهم كبشر ويدركون هدف الحياة!

- ما رأيك في هذا المعنى وهذه النظرة؟

- وما أقول؟ نظرة إنسان واقعي فيها كثير من الحقائق والنـزعات البشرية، لابد أن نتقبل نقد الآخرين بكل رحابة صدر، الذي لا يعترف بواقعه المرّ لا يعيش زمانه ولا يعمل من أجل التغيير والتقدم، ولكن لابد أن نتحرك ونحاول أن نوقف زحف السافي، الخطوة الأولى في المشوار الطويل هي بداية الوصول، لابد من الرجوع إلى الوطن وبعث الشعور الوطني وتأجيج العواطف، لابد من الرجوع ولابد من منادٍ برّاح!

- كيف ونحن وحدنا؟ متى توقفنا؟ ها هي محاولاتنا مستمرة والأمر لا يتوقف علينا وحدنا، في بلادنا كثير من أمثالنا، صناديد وتشغلهم بلادنا أكثر منا، بلادنا.. بلادهم أيضاً.

- ولكن من يضع محور النار؟ لا حرب تأتي بالنصر إلا بالجميع، والشعلة المتوهجة لا تنطفئ..

- الحرب قائمة والصراع متواصل.

- الحمد لله.. أين الشاي يا أسعد؟

- حاضر، سآتي به من داري.

وجاء بالشاي، وجاء بشيء آخر معه مصروراً في ورقة وقال:

- اليوم أحضرت معي شيئاً عزيزاً وجميلاً تشمون فيه رائحة الوطن.

- ما هو؟

- حَبّ زيتون جمعته من المركب الذي أفرغنا حمولته اليوم وهو آتٍ من طرابلس، أخذت منه

(1) التراب. دقيق الرمل.

هذا المقدار مع كمشة من الصريع[1] وحفنة من التراب.

- الله يا أسعد، ضعها في يدي، آهٍ.. ساعدوني على شمها، إنها حقيقية، رسالة كريمة من وطن كريم، تراب!. صريع!. وزيتون! ما أجمل هذا المنظر وما أزكى هذه الرائحة، إنها تعود بي إلى مرحلة بعيدة من عمري، هكذا وصلتني برغم أنوفهم.

أخذ من الحَبِّ ما ملأ فمه وطفق يمضغه ويلوكه من جهة إلى أخرى.

- إنه مرّ يا عمي جمعة .

- لا.. إنه بطعم العسل، إنه من زيتون تراب أجدادي، الزيتون من الزيتونة، شجرة مباركة ذُكرت مراراً في الكتاب المبارك، لا شرقية ولا غربية. وهذا الصريع المعطر بمزيج من الصنوبر والعنبر إنه ينعش النفس، أطبخه لنا يا أسعد بدل الشاي فإنه مفيد للصحة، أما هذه الحفنة من التراب فلها شأن آخر في نفسي، إنها لي وحدي، لا أحد منكم يقاسمني إياها، إذا متّ ضعوها تحت رأسي في كفني حتى تكون لي شاهداً أمام الله على أنني لست من أهل هذه البلاد، إن ترابي يختلف عن ترابهم، أعرف أن أرض الله واحدة ولكني لا أحب إلا أرض بلادي! بهذه الحفنة من التراب ترتاح نفسي.

انطلق بعيداً في الخيال لحظات ثم عاد وقال:

- اتركوني، ساعدوني لأشم بكل شوق ورغبة نفس، ما أطيبه وما ألذ عطره، إني طليق النظر أرى بعيداً جداً رؤىً متلاحقة ومشاهد عريضة تنبسط أمامي كأنها أمواج تتكسر على شواطئ الرمل، ها هو ساحل بلادي مشرق بالضياء، كانت أماني تلوح في خاطري، هاهي غابات أشجار الزيتون تهفهفها الاتسام المخصبّة وهاهي بساتين النخيل مثقلة مكتظة تميد بطلعها النضيد وهاهي سوانينا ومرابع لقاءاتنا ولعبنا وتجمّعنا وأماكن لهونا وأماكن الدويرات التي شيدناها من التراب في صبانا ومرابع الطفولة عندما يجمعنا طُهّر القرية ومحافل أعيادنا وأعراسنا، أين تلك الآن مني؟ ها هي مسارب مشينا وأصداء الغناء

(1) ملء كف اليد من ورق الزيتون اليابس.

وأماكن مراعينا مازالت تتجاوب بأصواتنا وتتغنى بأغانينا، يا طل الصباح لا تغدو ولا تفترق عن أزهارك اليانعة، ويا شمس قريتنا لا تغيبي عن سمائك حتى تعيدا علينا ما كنتما عنا تكتبان، وذاك طفلي يوسف يقف عند باب الحوش يتأهب للجري وملاقاتي لحظة يراني ويسمع نهيق حماري، يمدّ يده، يتناول قطع الشكار، لكنه كبر.. يا خسارة لقد كبر، أنا لا أريده بهذا العمر، أريده في العمر القديم، أنا عطشان إليه وهو في ذلك العمر، في ذلك العمر له محبة خاصة وحنان فريد ورائحة منعشة له دلالات ومدلولات معبرة لا يدركها إلا الآباء والأبناء، طفولة خمس سنوات ربيع مزهر وشذو بلابل وأنسام ناعمة من حقول الغيب، إنها نعمة وعطايا مباركة وهبة من الخالق ليس لها مقابل. أحبك يا يوسف، وأحبك أكثر في العمر الذي تركتك فيه، ابق هكذا حتى أعود إليك ألاعبك وأداعبك إلى أن أُرضي عواطفي المشتاقة إليك وأعطيك الحلوى وأضمك إلى صدري ثم تحول بعد ذلك إلى العمر الذي يرضيك! هيا مدّ لي يدك وخذّ ما وعدتك به، ألا يرضيك ما اشتريته لك؟ إنه قديم فقط، كان مدسوساً في ملابسي المهجورة.. يا يوسف أوصيك بالفسيلة، يا يوسف عشّ مع الناس وكنّ لهم سنداً متيناً. يا أسعد أصعد جبل الوادي ونادي الغفاة بأعلى صوت وقلّ: لقد فات ضحى الزمان وولى الزوال ولم تبق إلا لحظات المساء، يا أسعد لا تنسى الفسيلة، إنها الوطن، حياة واحدة وموت واحد وبينهما رسالة العمر.. الجهاد!

غار صوته وتراخت يداه وسقطتا على صدره، تناثر الحبّ حوله وتبعثر الصريع على صدره وغطى التراب وجهه. تحول كلامه إلى أنين يغور في العمق ويتلاشى بالتدريج، وجاء الموت وحلت النهاية، لقد مات، مات عمي جمعة رحمه الله وهو يحلم راحل في الخيال إلى وطنه العزيز في مسقط رأسه بين أهله، لقد رحل روحاً ونفساً ومعنى، وهاهو الجسد مازال بيننا!

أخذنا بوصيته، جمعنا الزيتون والصريع والتراب في صرة وضعناها عند رأسه.

في صرة ملابسه القديمة وجدنا بين طياتها كيساً صغيراً من القماش ملفوفاً بخيط رفيع يحتوي على قطع صغيرة من الحلوى، إنه شاكار الوعد ينتظر حلول زمن الموعد واللقاء، أطياف من فلول الذكرى تمر في مواكب عزها، الله يرحمك يا عمي جمعة إنك في زمن، وهذا

زمن فأيهما الأكبر فينا؟ لم يقهرك أحداً وإنما قهرك الزمن، كنت دائماً سيد نفسك، سيد الأمل والنظرة المتفائلة البعيدة، سيد الموقف كم أحبك آيها السيد الوطن!

في الصباح الباكر جاءت العربة اللعينة تملأ الفراغ صريراً بعجلاتها الحديدية الكبيرة وببغلها الهزيل، يقودها شيخ طاعن في السن، توقف في الساحة ونادى بصوت تاعب.. الميت.. الميت...

أخذتْ عمي جمعة في صندوقها العاري تحت المطر وذهبت به العربة متباطئة تجر نفسها كليلة شؤم تميل تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ونحن وقوفاً ننظر إليها في خشوع وحيرة باكين في حرقة وحزن وهي تسير في طريقها حتى توارت خلف الغابة إلى مكان مجهول حيث يُقبر عمي جمعة ولا أحد منا يتبعه مسبحاً بسم الله أو يشاهد مكان قبره، هكذا سنوا قوانينهم وجعلوا قبور موتانا محرم علينا حتى رؤيتها من بعيد! إنها الأقدار ودورة الأيام يا عمي جمعة. الأرض تبتلع كل شيء ويتساوى في ترابها الرجال وأشباه الرجال، الكل يذهب إلى التراب ولا يبقى إلا الأثر المجيد الرفيع مطبوعاً على جبين الزمان، الأجساد تبلى والذكريات تتفاعل مع الحياة وتبقى! مع الذين يحيون وفي أعماقهم تتأجج فاعلية الحياة.

استغرب للمقادير، كل هذه المرحلة الطويلة من العمل والكفاح من أجل اعتبار الذات وتقدير الهمم وحماية القيم ومكارم الأخلاق، تذهب كلها في عربة خربة وقبر مجهول؟ أنت لم تكنّ كما قال ذلك الإيطالي الذي جاء ليسجلك في سجل قوائم الموتى، ضحك عالياً ساخراً منا عندما رآنا نبكي: ما أغربكم من أناس تبكون على جسم متعفن وعظام نخرة؟ وجو ده بينكم يجلب لكم الأمراض!

نحن فقط في هذه الديار من يعرف قدرك وعلو شأنك، أنت يا عمي جمعة وطن بخصائصه بل رجل أمة بكاملها، أحداث عجيبة ومصائر تقودها غرائب الأقدار، عين الله لا تنام وأعمال الرجال لا تموت، لن ننساك وسننقش اسمك وندون تاريخك في أشهر مكان في بلادك لتبقى خالداً في قلوبنا وسراجاً وهاجاً يضيء دروب الأجيال ونشيداً وطنياً يغنىَّ على طول سنين الزمان وسنوفي بوعدك، وإن اختلفت الأيام، وداعاً يا عمي جمعة وداعاً.

اختلجت وتداخلت الأضواء ولاح من الطيّ فجأة فارساً على جبين الأفق على جواد أشهب اللون كالطيف الرحيم يرتدي جرداً أبيض كزبد الموج ونقابه على أنفه كمنقار نسر

يلتفت إلينا ويحيينا بعزة وأنفة مشرق الشباب جميل المحيا، لا يوصف، مرفوع الجبين شامخ الأنف.

- الله.. الله!! إنه هو بالتمام والكمال وكأنه في سن الخامسة والعشرين من عمره.. ما أروع وأجمل هذا المحيا! أنظروا كيف يحرك شفتيه، إنه يكلمنا، الله إنه حي يرزق ويحيينا.. الله ما أقصر زمن الموت على المجاهد الصادق..

وهكذا صار يكبر في قلوبنا وعيوننا ويكبر حتى غطى الجبل الذي خلفه!..

المحطة

اللهم اجعلها وصلة خير وربطة معزة وعروة وثقى لا تنصل ولا تنقطع.

وتتساقط أوراق السرول وتيبس غصونه الضعيفة.. ولكن تبقى الجذور الأصيلة معمّرة في أديم الأرض.. إنكم لا تموتون ولا تمحى آثاركم، لأنكم أهل نخيل وزيتون.

الطائرة تحلق، تستعد للهبوط، ومدينة الدار البيضاء تتحرك من تحتنا في وداعة وترحاب وتترك عليها الشمس الغاربة حلةّ زاهية متموجة نُسجت خيوطها من شتى ألوان الغروب الساحر.

الدار البيضاء تعتبر لنا نقطة الوصل بين أوروبا وأفريقيا، ونحن في طريقنا إلى «داكار» عاصمة السنغال. حطت بنا الطائرة في الدار البيضاء، ثم نزلنا في أحد فنادقها وبقينا فيها ثلاثة أيام لظروف ونظام رحلات الطيران، إنها مدينة عظيمة متحضرة زاخرة بالحياة، تعّج بألوان من النشاطات اليومية. خرجنا من الفندق وفي الحال أخذتنا شوارعها الجميلة وجاذبية معروضاتها، دخلنا اللمعان وانجرفنا مع الزحام، تذكرتُ إني في حاجة إلى حذاء صيفي «مدّاس» توقفنا لحظات أمام متجر لبيع المصنوعات الجلدية التقليدية نتفرج على المعروضات من خلال بلَّور «الفترينات»، عزمنا على الدخول، استقبلنا صاحب المحل، بلباسه المغربي التقليدي، باشّاً مرحباً، نطق وجهه قبل لسانه وهو ينظر إلينا متأملاً بعين فاحصة خبيرة وإحساس مميز، عرف أننا لسنا من المغرب ولكننا لا نبعد عنه شعوراً ولساناً وديناً.

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

أفسح لنا مجالاً أوسع للدخول وزاد ترحابه بنا، كان متوسط الطول نحيل الجسم طويل الوجه مع عينين متأملتين.

- تفضلوا، تُرى من أين الأخوة الكرام؟
- من ليبيا.

- من ليبيا!؟ تعني من طرابلس[1]!؟.

مدّ يَديْه معانقاً يجذبنا إلى صدره بحرارة ومحبة وحنان وقال في شوق قديم ورحابة صدر:

- أهلاً وسهلاً بالأحباب.. يا مرحباً.. أهلاً وسهلاً بأهل الكرم والجود.

أحضر عدداً من الكراسي، وألتمس منا الجلوس، وقدم لنا المشروب البارد. إنه نشط وخفيف الظل، صاحب عِشرة.. تستهويه القلوب سريعاً، ويأخذ بناصيتها.. نحن نعرف إنه يْعرف إننا غرباء وأهل طريق في زيارة المغرب.

ولكن ما سرّ هذه الحفاوة الزائدة؟ وهذا الاستقبال الحارّ؟! نحن الثلاثة جلوس نرتشف المشروب المثلج، وهو واقف يجول بيننا ويكرر عبارات الاستقبال والشكر لله الذي هدانا وقادنا إلى متجره.. وأن يتعرف إلينا.

- مرحباً بكم في بلادي بين أهلي وقومي.. وقفة سعيدة جمعت بيننا يا كرام!!

فكر قليلاً.. ثم قال حازماً: «أما اليوم أيها السادة.. الصلاة والسلام على محمد رسول الله.. فإني أترك أمركم للخيار.. ولكن غداً إن شاء الله تعتبرون ضيوفاً كراماً على بيتي».

حاولنا الخروج من هذه الدائرة.. ولكن إصرار سيدي الحاجي عبد الله بن محمد ووقوفه أمامنا أغلق عنا كل منفذ لخلق الأعذار أو مخرج للهروب.. يحملق في وجوهنا لحظات بنفس طويلة صامتاً، ثم يقول بصيغتي اللوم والحيرة:

- أنتم في بلادكم! وبين أهلكم.. عيب ترفضون هذا يا كرام!! نحن مسلمين.. نحن عرب.. من شيمنا إكرام الضيف.. فكيف تريدون إفساد هذه الخصلة، هذه الصفة وسحبها من كياني وتربيتي؟ أقول أيها الأخوة.. لكل حادث حدث ولكل مضمون حديث، والشيء بالشيء يذكر.. أربعون عاماً مرت على تلك السيرة، ولكن كأنها الآن مازالت تدرج صاعدة على سلم أيامي، تتفاعل وتنبض بالحياة.. وخالدة في عالم الذكرى.. لحظات مجيدة

(1) أهالي شمال أفريقيا يطلقون اسم طرابلس على القطر كله، وكلمة ليبيا جاءتهم متأخرة جداً خصوصاً لدى الأجيال المتقدمة ومحدودي الثقافة.

أذكرها بروح فخورة وقلب كبير.. ولا شيء يأتي من فراغ.. والذكرى الجديرة بالتقدير مازالت تسبح في خيالي، وتموج حية في وجودي.. منذ وقت ليس ببعيد، توقفت حركة القوافل على الطرق الساحلية التقليدية الذاهبة إلى المشرق.. وبالعكس.. وحلت محلها السيارات.. ثم الطائرات والسفن. كان عرب شمال أفريقيا يسيرون في قوافل وفي مجموعات إلى مكة قصد الحج.. لكنها معاناة، تأخذهم الطريق في جوفها في ظلام الليل.. وفي ضياء النهار.. ويطول بهم الزمن.. فيفتقرون إلى الحاجة.. والأنسة؛ حاجتان مهمتان لا يجدهما الحاج عند سفره إلا عند إخوانه في الإسلام والعروبة المنتشرين على طول الشمال الأفريقي.. حتى مكة. إنهم أمة واحدة كجسم واحد، يربطهم اللسان والدين والتاريخ الكبير والأمل المرتجى. الحمد لله.. أني من هذه الأمة! أمة العظمة والخير والخلود.

في سنة 1940، كنتُ في الخامس والعشرين من عمري، عندما لبيتُ دعوة من دعاني إلى بيته الحرام ولأتناول من وجوده وألبي دعاءه وأقابل ضيوفه وأؤدي مناسكه على سنة نبيه. خرجت مع غيري، في قافلة كبيرة من الحجيج.. وتمرّ الأيام وتتعاقب الشهور، ويشتد الحر، ويأتي بعده برد، وتتقلّب الموازين.. ويتحرك المناخ، ويتأثر بني آدم ويشتاق إلى الراحة والآنسة.

من الطريق عرّجنا على طرابلس.. إنها مدينة حية.. تفوح منها رائحة الأصول.. الكرم والرجولة.. ترفل في عزة الإسلام.. عامرة بزواياها ومساجدها، على الرغم من إنها تحت حكم الاستعمار الإيطالي المسيحي. توزعت قافلتنا على عدد من الزوايا والمساجد.. وكان نصيب مجموعتي «جامع الناقة» في المدينة القديمة. استقبلونا أهل المدينة، وهنأونا بسلامة الوصول.. هيأوا لنا ظروف الراحة بقدر الإمكان.. وما كاد يأتي وقت العشاء.. حتى مدّت الموائد وقُدمَت قصاع الكسكسي والبازين المبجلة باللحوم والبيض والقديد والبطاطا. ضُيفنا من قبل عائلات كريمة، عريقة في الأصل، معروفة بالجود والعطاء.. لمدة ثلاثة أيام .. كان في الليل صلاة تهجد، حضاري وأذكار، والنهار زيارات وتعارف. أهل طرابلس أهل كرم.. إنهم يفعلون ذلك على الرغم من أن الوقت حرب والبحار مغلقة.. واستعمار، وفقر في كل مكان.. ولكن كما يقال «أهل الجود يجود من الموجود». بل هم أضافوا أكثر من الجود من الموجود، هذه هي الروح العربية الإسلامية الضاربة في عمق التاريخ.

غادرنا طرابلس، وانتقلت نفس الصورة إلى زليتن، مصراته، بنغازي، ودرنه.. قمنا في زاوية سيدي عبد السلام الأسمر، وقمنا بأذكار في الضريح، وبتنا ليلة في زاوية سيدي إبراهيم المحجوب.. وأخرى في مقام ومدرسة أحمد الزروق.. قضينا هناك أياماً جميلة ولحظات خالدة بين جموع الناس وفرحتهم بنا.. وكل من يمر بهم.. فما نكاد نعبر واحة أو قرية، حتى يهرع الناس إلينا مهللين مكبرين ويدعوا لنا بالخير.. فيبعثوا فينا الأمل والشعور بالقوة.. والإحساس بقرب الوصول وبسرعة الطريق.. فيطول نظرنا.. ونرى من خلال ذلك آفاق مكة ترفل في مهرجان انبثاق الشروق.

إن أهل طرابلس.. صورة كريمة زاهية جميلة لا تتزحزح من الذاكرة ولا تتحرك من خيالي.. أذكر ذلك في كل حين، عندما يحتويني مجلس.. ويدعو إلى حديث ركوب طريق وشدّ آفاق وأنجرُّ متداعياً إلى تلك الذكرى..

- ما أجمل ما تقول يا سيدي.

- الحياة يا صاحبي تزينها الرجولة في الشدة والمواقف الجليلة والمشاهد المتنوعة والظروف المتقلبة والأحاسيس الصادقة. لا أنسى ذكرياتي الخالدة الحافلة بالنشاط في سبيل الحياة، والجهاد في سبيل الله والذات.. بهذه الشواهد نكون فعلاً قد دخلنا مضمار الرسالة العظمى.. إنها أخذ وعطاء، والنجاح الكبير أن تعطي أكثر مما تأخذ.. هذا هو سر البقاء.

كانت الطرقات والسبل الممتدة على طول الشمال الأفريقي من موريتانيا.. حتى مصر، دروب ليست محتشدة، إلا أنها لا تخلو من حركة المسافرين. لقد ذَكرتُ لك سلفاً، إلا أنني أكرر لك ذلك لأهمية ما سأقوله لك.. إنها مواقف ومثابة شاهد عيان أمام الجميع.. هذه الطرق تضاعفت حركتها ودبّ فيها نشاط جديد، تزيد عن تلك التي تتوقف عن مواسم الحج والعمرة.

زمر وجماعات من المسلمين الذاهبين إلى فلسطين من اجل الجهاد وتحريرها من الصهاينة المعتدين. بحمد الله وعونه كنتُ من ضمنهم، وقد لبيتُ دعوة الداعي مخلصاً: حيا على الفلاح.. حيا على الجهاد.. وأنا اعتبر الجهاد الركن السادس من أعمدة الإسلام. ما أروع وأخلد تلك الأيام.. جمال في عيوننا وبهجة في نفوسنا، عندما نشاهد الرجال تكتظ بهم الطرقات وتدفعهم الحمية إلى الحرب من أجل غايات دينية وإنسانية.. تحرير فلسطين.. إنها

مواقف ساخنة تنعش القلب المتخدر، تُحي وتمجد الضمير وتوقظ وجدان الأمة. هي رعشة نهضة، همسة يقظة، كية لهب، وبداية حركة متفاعلة صارت تسري وتمور في أجسامنا.. التي كانت على الهامش خارج نطاق الوعي. كانت المجموعة التي انتمي إليها تزيد عن الألف، عندما توقف بنا المسير في تاجوراء في جامع مراد آغا الكبير، وكنا تحت قيادة رجل من الجزائر اسمه يوسف التوزمني من تيزي وزو: رجل ذو هيبة وهيئة قيادية، رشيق المظهر وجميل المحيا له عينان زرقاوان. انسحب من الجيش الفرنسي، والتحق بالمجاهدين. استشهد في أحدى المعارك الضارية في فلسطين. استقبلونا أهل تاجوراء استقبال التقدير والاحترام، ذبحوا جملين وثلاثة خراف، تكريماً وتشجيعاً لنا. انضم لنا عدد من الرجال منهم، حتى يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الجهاد.

- يا لها من مواقف يا سيدي!! لا أعلم شيئاً عن هذه الفواصل.. كيف لا تذكر ونحن من هذا الجيل؟..

- لك الحق أن تستغرب وتتعجب يا صاحبي.. والكلام يخص الجميع.. أقول ولساني يلجمه الأسف أن تلك المسيرات الساخنة والومضات الساطعة، والاستجابات الصادقة والحازمة التي تنادت وتحركت من المحيط إلى الخليج.. لم تذكر بصريح العبارة، ولم تأخذ حقها ولو صفحات في التاريخ الإسلامي المعاصر، لا من المؤرخين الجدد ولا من كتّاب الأدب بأصنافه المختلفة، وكأن الذي جرى لا يتعدى كونه قصصاً وخرافات، رويت في ليل قبل النوم، كل ذلك، لأنها وقعت وجرت خارج نطاق الحاكم وتدابيره. إنها خالية من السوء والشك.. هي استجابة تلقائية من الذات. آلاف وآلاف من الرجال من موريتانيا، المغرب، الجزائر، تونس، طرابلس، عانقتهم الطريق إلى القدس وقبلّت أقدامهم ترابها الساخن..كلنا وجهتنا فلسطين. الكثير ماتوا شهداء وبعضهم بقوا هناك. أنا من الذين لم تكتب لهم الشهادة وشرف الجهاد.. وعدتُ مع العائدين، عندما سُرقت فلسطين ودُبرت المؤامرة، وخُتمت عقودها بليل على موائد قصور ملوك العرب.. لقد باعوا فلسطين وأهل فلسطين بثمن بلا ثمن، إرضاء لأوروبا وأمريكا، وخوفاً على مكتسباتهم.. يا للعار!! يا للعار!! اللهم فأشهد فأنت أعلم بخبايانا.. اللهم فأشهد، لقد كنا صادقين، ولم نبدل تبديلاً.. كنا على مشارف النصر من الأيام الأولى، قبل أن يخادعونا أولو الأمر منا، بفساد السلاح وفساد النية، وتغييب الضمير الوطني والشعور القومي، ونسيان التاريخ

وعموم اللعنة وخيانة القدس المجيد.. استأثروا حياة القصور ورهبة العروش، «ونسوا الله فأنساهم أنفسهم».

- هل مازلت تحن إلى تلك الأيام والمشاهد؟..

- ما أروعك أيتها الآفاق.. آفاق فلسطين ومعالم القدس الحبيبة.. مازالت تتوقد ناراً في نفسي، وتدعوني إليها بإلحاح. كنا نقطع الفيافي والقفار، ونعبر القرى والبلدان، وما في جعبتنا إلا الإيمان أو قليلاً من الماء والسويق وقطع من التمر، وما يتكرم به أهل البلاد التي نمر من خلالها.. حتى دخلنا فلسطين. عندما عزمنا على الجهاد، لم تكن في نفوسنا غاية أو طلب في مكانة اجتماعية، أو رتبة عسكرية، أو إثبات موقف. كنا نتقدم بعجالة، ورايتنا تخفق بلسان حالنا: الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر.. محمد رسول الله.

- ما تقوله يا أبي كأنه فيلم سينمائي وليد الساعة..

- الله.. الله!! كأني ما قمتُ من نومي إلا الساعة، وكأن الذي مضى وهماً وخيالاً، هكذا تنفي الأحداث ويضيع الأثر الجليل.. الحقيقة اليوم تتصارع مستميتة بين طوايا النسيان ومحاور الشك.. قاتلناهم بكل شجاعة، وجعلناهم يهربون أمامنا مذعورين، على الرغم من دعم جيش الإنجليز لهم ووقوفه أمامنا حماية لهم.. قتلنا منهم الكثيرون.. واستشهد منا أيضاً. في هذه السطور يا أبني، وهذه القفلة التاريخية، العبرة في المبدأ وليست في النتائج كما يقولون، العبرة في النفوس الكريمة. إن أجيال النصف الأخير من القرن العشرين من أبناء العرب والمسلمين، أغلبهم لا يعرفون أن أجدادهم وحتى آباءهم قد فزعوا أفراداً وجماعات، لبوا بذاتية مطلقة استجابة لدعاء الضمير. لم نكن في جيش نظامي، ولم تلزمنا قائمة بها أسماؤنا من وزارات الدفاع.. لقد قطعنا مسافات على طول الشمال الأفريقي حفاة عراة من أجل الواجب المقدس.. لا من أجل فسحة أو رواية قصة تمجيد وافتخار، لأحداث لم تقع.

- ولكن يا صاحبي ما هذا السر الكبير!؟ ها هي إسرائيل كل يوم تكبر وتكبر على حساب فلسطين وعلى حساب وحدتنا وتقدمنا، وشدّ انطلاقتنا.. هل لأن إسرائيل هي أمريكا، وهي أيضاً أوروبا؟

- لا.. لا.. مستحيل.. تخلفنا ولكن ليس بالدرجة الأولى.. ولكن العلة الحقيقية تكمن في

حكامنا.. حكام البلدان العربية.. هم أول من اعترفوا بإسرائيل، وحموا جوانب ضعفها، وزودوها بالحصانة والقوة.

- الحكام العرب!؟

- أجل.. أغلبهم جاءوا من سلالات غير متأصلة، وزعامات لم تكن ذات حكمة بارعة ومواطنة صادقة.. أغلبهم جاءوا من نفس الطريق التي جاءت بإسرائيل... والأمم مصالح...

- الحكام العرب يحمون إسرائيل.. ويكذبون على شعوبهم؟

- أجل.. الذي لا يحمي.. يحارب..
والذي لا يهادن.. يعارض..
والذي لا يكذب.. تظهر صدق أعماله وأمانة في أقواله..

على الرغم من أن لديهم كل شيء.. الرجال، المال والسلاح.. إلا أنهم جبناء يخافون على أنفسهم وعلى عروشهم وكراسيهم الزائلة.. حكام صراخ ودعاية وإعلام.. فراعنة في أوساط شعوبهم، أخشاب مسندة أمام حكومات أوروبا وأمريكا. والله لو أخلصوا النية، وسرت فيهم نخوة الرجولة القديمة، لأن تكللت أعمالهم بالنصر المبين والخير الكثير، ولتغيرت وجهة العالم.

- ولكن يا صاحبي لا حياة لمن تنادي.. هاهي إسرائيل تجول وتصول، وتقتل وتُقتل وتعبث بكل مقدس وإنساني، في خنوع مميت، لا يرفعون عوداً، ولا ينبسون بشفة، ويسعّرون وجوههم أمام كل لطمة، وكأن على رؤوسهم الطير.

- قضيتنا يا أولادي قضية شعوب.. أملنا في الوحدة الكبرى.. هو هنا النصر، الظهور والتطلع اللاإرادي بدون وحدة والله لو تبقوا ألف عام.. لن يتغير أمر.. وأنتم على أرضية وعلى وتيرة «راوح»[1].. القوة والعظمة في الوحدة.. وهذه لا تصنعها ولا تثبت مقامها إلا الشعوب.. وأتمنى على الله أن تكون قاب قوسين أو أدنى منا.. إننا في عجالة من أمرها.

(1) تحريك الرجلين واليدين واقفا - كالجند في الاستعراض العسكري - إلا أنه في مكانه لا يتقدم والكلمة تدل: حركة بلا تقدم، جهد بلا محصول - وبذل بلا مضمون

لن تفلح إسرائيل ولا أمريكا ولا أوروبا، أمام هذه الأمة العظيمة.. أمة مؤمنة تتمتع بهمة عقيدة راسخة، تتعلم وتسترشد بالمحن والعقبات، لا تخاف الموت.. تتعامل بالمحبة وتؤمن بالله وبالسلام الإنساني، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. ولكنها أيضاً تؤجل ولا تعجل رويداً رويداً.. لم نعد على هامش الحياة، ولم نعد خارج مقام الوعي.. رويداً.. رويداً؟!

آه! هكذا أخذتنا تعاقب الرحلات المثيرة وصورها الماثلة أمام عيني.. كأنها وليدة الساعة.. والشيء بالشيء يذكر.

- وماذا بعد يا سيدي عبد الله.. لقد سقتنا إلى تاريخك الجميل..

- ليس لي وحدي.. إن لكم أيضاً.. وأقول راجعاً من حيث بدأت.. إن طرابلس صورة كريمة زاهية جميلة لا تتزحزح من الذاكرة ولا تتحرك من خيالي..

ينظر إلى أعلى مبحراً في خياله.. يقص أخبار الرجال.. وأصحاب السير الصادقة الشجاعة وأهل التاريخ الكبير الذي لا يكذب، ولا يلون لباسهم بلون زائل غير معتبر.

- «إن أهل طرابلس في مستوى البيعة..مفخرة الرجولة والكرم.. وحماة الحُمى.. وحتى يومنا هذا، لا نسمع عن كارثة أو مصيبة أو حرب حلّت بالأمة العربية والإسلامية في حاجة إلى دعم رجالي ورجولي ومالي ومادّي.. إلا ونجدهم في الصفوف الأولى.. كما جرى في حرب الجزائر وفلسطين وبنـزرت.. إنهم في هذا الشأن العظيم فوق مستوى الأعراف والقوانين، إنهم أهل عهد متين ووفاء رصين وقلب أمين».

إن البطولات التي جرت على ميادين الرجولة سنوات وسنوات ضد الغزاة الإيطاليين، لمفخرة لكل مسلم صادق وعربي أبّي.. إنها ملاحم لم تأت من الوهم الإبداعي، أو غضبة انفعالية جاءت بها الصدفة، وانتهت مع نهاية النهار عند غروب الشمس.. بل إنها حروب متواصلة دامت عشرين عاماً.. إنها أحداث وصفحات وامضة من التاريخ الإسلامي الحديث.. «الكثرة تغلب الشجاعة».

- الذي أقوله أيها الضيوف عين الحقيقة، ولا تعتقدون أنها مجاملة مني.. أنا مازلت لا أعرفكم.. مجرد ذكر نسبتكم فقط.. هذا هو الدافع القوي الذي جعلني أتعلق بكم، وأدعوكم من كل قلبي إلى بيتي، عسى أن أقدم شيئاً ضئيلاً من رد الجميل، على الرغم من أنني لا

أعرفكم من أي منطقة من طرابلس أنتم. الفعل الجميل .. جميل وطيب الوقع على النفس وأثره الحميد يشمل الكل.. حتى وإن جاء من فئة قليلة ومن زمن بعيد.. ما فعله لنا وما قدمه أهل الزاوية الغربية وأهل المدينة القديمة وزليتن ومصراته وبنغازي ودرنه.. لا يُنسى، إنها مواقف وأحداث للذكرى.. وإنها لذكرى عذبة ساحرة.. تبقى تدور في فلك الخيال وفي مدار الذاكرة لا يُغفل عنها.. كأنها أغنية عذبة غنتها حنجرة بارعة..

«إذن غداً تأتوا إلى هنا في متجري.. ثم إلى بيتي بين أهلي وبعض من أصدقائي لأعرّفكم بأبنائي الآخرين.. ربما تكون وصلة خير وربطة معزة وعروة وثقى لا تنقطع، وهكذا.. تتساقط أوراق السرول وتيبس غصونه الضعيفة.. ولكن تبقى الجذور الأصيلة مُعمرة في الأديم.. يا طرابلسيون، إنكم لا تموتون، لأنكم أهل نخيل، وزيتون.. وتاريخ معبّر.. والشيء بالشيء يذكر».

الوعـد القديـم

[يا شمس الشرق المجيدة أرجوك لا تغربي، ويا بلبل الدوح العجيب تمهل، وخذّ مني وخذّ منها.. أرجوك تمهل قليلاً لا تطير]

التقيتُ به في ذلك السوق.. رجل نحيل الجسم، طويل القامة، جميل الطلعة، ويبدو إنه تجاوز الستين من سنوات عمره، بلباسه البلوجين. كلانا يمشي ويلف، وعندما نتقابل ينظر إلى وجهي.. وأنظر إلى وجهه بالمثل، وكأن سؤالاً عزيزاً، يود أن ينطق ويطرحه لساني، نتيجة لهذا الفضول، المتبادل. وفي المرة الثالثة، كنتُ أنا الأشجع أدبياً: تجرأت قائلاً:

- نعم يا سيدي.. أنا لا أجيد سوى الإنجليزية.. لم أتمكن من الإيطالية بعد..
- هذا جيد..
- تراه غموضاً أو غرابة؟ أو شبهاً لأحد تماثله على هيئتي؟.. أنا ليبي..
- هذا هو الذي كان في يقيني.. أحسست إنك لست إيطالياً.. وإنك ليبي..
- وهل هذا يثير التطفل؟. وترمقني في غير اكتراث كلما تقابل وجهي بوجهك؟..
- ربما.. ربما إيحاءات فضولية.. لِمَ انفعلت بهذه الصورة؟ هل حيرتك التفاتاتي؟..
- لا..لا.. لأفتح مجال الحديث.. أنت أمريكاني؟!!
- بل إيطالي، وأصلي من هذه الأرض التي نقف عليها.
- ولكن تتكلم الإنجليزية بطلاقة لسان أهلها..
- عشتُ زمناً طويلاً في أمريكا..
- لِمَ أراك تمشي وحيداً؟ كأنك غريب مثلي..

نظر إلى أعلى في خياله، وكأن لوناً من اللوم والحسرة انطبعتا على وجهه.. واستأنف قائلاً: «معيشتي في أمريكا جعلتني أفقد ظلّي.. وها قد أوشك غروب عمري أن يستلمه المساء».

- إذن كلانا غريب.. وكلانا أهلاً وسهلاً.. أنا جئت سائحاً، دفعتني إلى هنا خطاي ومسارات القدر.

- انفلتت مني سنين العمر، دون أن أدري، وهاهو دافع الشوق ودعاء الحنين يُهيْمنان على وجداني.. آه.. آهي!!. ما أسرع الزمن.. وما أقصر العمر!.. وما أوحش في نفسي استجلات قديم الذكريات ...

- يبدو أنك تعاني حزناً دفيناً... ... وقصة عميقة الأثر.. زغللت عيناك بالدموع...

- هل تصاحبني إلى ذلك المقهى؟..

- هذا أفضل إذا كنت رومنسياً وتمثل ذكرى.

ما كدنا نجلس.. حتى اقبلت الساقية، بعينيها الكبار الكواحل، ويسفر محياها الطلق على ابتسامة شاعرة لا تخلو من الصدق.. نظرت إلينا بلمحة ليس لها تفسيراً ثم قالت: «أفضّل أن تجلسا هناك عند الزاوية.. مكان أكثر هدوء وشاعرية..»

- ولكن كلانا رجل يا شابة!!. وكلانا غريب!!

- أعرف.. ولكن أنا التي سأكون بينكما.. ها.. ها.. ها.. إني أزهو ويطيب خاطري بكما.. لِمَ أراك مستغرباً؟ هل ما قلته خارج.. خارج الميول والرغبات!؟

- أنت رائعة حقاً.. وساقية تروي من به عطش.

- ها.. ها.. ها.. ماذا تشربان؟

- طالما إنك أنت التي ستكونين بيننا.. فلك الخيار بما تودي أن تسقينا.

إنّا محيّيك يا سلمى محيينا فحيينا وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

- ماذا يا سيدي؟

- لا..لا.. ذكرت بيتاً من الشعر العربي يلاطف هذا المكان وهذا الموقف، ويغازلك أنت!...

- ليوناردو.. لِمَ أراك صامتاً مبحراً في أعماقك.. نسيت مشروبك.. هل أنت معي؟ أم أنك مع تلك الفراشة الحوامة؟...
- راودني المشهد.. إني في خضم فصول الذكرى.. وها إني سأقول لها.. وأخبرها وأخبرك..
- من هي التي ستخبرها؟ وتقول لها؟. الساقية؟! هاهي آتية.. بم تريد أن تخبرها؟..
- أنا ليوناردو.. أنا ليوناردو... محطة التكسيات... ... ... بيتي القديم على أرنبة تلك الرابية.. ساندريللا.. ساندريللا..
- ماذا تقول؟ ماذا؟ ليوناردو هل تسمعني؟.

ها قد توقف مركبي في مرفأ الحنين، لقد وصلتُ، لقد وصلتُ أيتها الذكرى، أيها الوجيب الضامئ، الهوا. رطب، الأنسام منعشة، السماء تعج بالدعاء وشقشقة الطيور والشمس نقية واضحة كأنها نهضت لتوها من حمامها الدافئ، وريشة ميكل أنجلو مازالت حية تخفق وترسم بألوانها الزاهية، وتسري في كل كائن حي جميل. القرية القديمة مازالت كما هي، والجبال التي تغطيها الغابات بقيت أيضاً كما هي، أمّا عدا ذلك أراه قد تغير في نظري ولامسه ختم الإدارة، حتى هذه الطريق المرصوفة التي أمشي عليها الآن، كانت مسرباً ترابياً، فيه حنايا وتعاريج نحتتها الأقدام المتعاقبة بانسياب تلقائي، يفوح من جانبيه شذا الأزهار أحياناً وروائح الأعشاب اليابسة أحياناً أخرى. الذاكرة تحلق في سماء الذكريات تسعى لتستوضح معالم جسد كان قد نُقش ببراعة وإتقان على جبين خيالي، غامت ألوانه الرائعة مع مرور الأيام وتعاقب الصور في آفاق عمري العجيب!..

- هيا يا سيدي إلى أين تريدني أن أتجه؟ مازلِتَ غارقاً في التأمل، كأنك لست من أهل الأرض! أين مقصدك؟ أرجوك لا وقت عندي، اصعد وأرحل بعد ذلك في خيالك وكلّم نفسكَ ما شئت.
- إلى ذلك البيت، هنالك، ذلك الذي يقع على أرنبة أنف الجبل.
- نعم أعرف، ضيِّعتَ عليّ دقيقتين.

- هل تعرف لعائلة من ذاك المنـزل؟
- لا يا سيدي، أنا من القرية الجديدة.
- وهل القرية الجديدة بعيدة عن القرية القديمة؟ أنظر إليهما من هنا، هما في جوار متلاصق وحديث لا يتوقف.
- نعم أعرف لكنّ ذلك لا يهمني.
- ولكن هذا تعدي على المألوف، أي أمر يمنعك من معرفة جارك وأبناء عمومتك وبلادك وتاريخك؟ هذا تفريط في الواجب وتقصير! هل تفهم ما أقول؟ ألا تقبل كلماتي؟
- أفهم، لا يهمني إلا عملي، سيارتي التاكسي هي التي تقدم لي لقمة العيش وبعض الليرات لقضاء ساعات سهر في ليالي الطيش، ألا ترى إني شاب في مقتبل العمر؟
- التاكسي تمنحك عدداً من الليرات بعضها وريقات والآخر من الحديد - من قيمتها تتغذى بالخبز واللحم والخضروات والفواكه، ولا تنسى عناصر أخرى مهمة في حياة الفرد والجماعة يجب أن تتغذى منها، مجالسة الأسرة واللعب مع الأصدقاء وزيارة المعارف ومجالسة الأهل والمشاركة في الاحتفالات مع الناس، فالتاكسي وساعات الطيش وحدهما جزء ضئيل جداً في مواجهة الحياة ومجابهة دورة الأيام.
- ما أَقْدَمَك أيها الرجل وما أقصر خطاك! من أين أنت آتٍ؟ لا تجعلني أضحك بصوت عالٍ، مواعظك هذه لا تجلب لك سيجارة واحدة من بائعها، لا صوت يعلو على صوت النقود، المال، الثراء، هذا هو لسان اليوم وصديق الساعة والأمل الظاهر في عيون كل البشر! المال! المال.. هو السلطان في أي مجال وأي مقال.
- الله!! رياح السوء تنشر غبارها في كل فضاء، تمادى العبث والتفسخ في كل مكان، لم أحسب يوماً أن المرض الخبيث ينتقل إلى هذه المناطق الطاهرة!.

غابت شمس يوم أمس وأشرق بعدها نور صباح جديد وأنا على شرفة غرفتي في فندق القرية الصغيرة أَحصَى نظري كل عالمي القديم في قريتي، ما أقصر زمن الأمس! لحظة شهيق

وزفير، ولكن ما أبدع هذا الأفق وما أعطر هذه الأنسام وما أجود هذه التربة! هذه هي لحظات الوجود والشعور المتكامل، آهٍ ما أمتع هذه الدقات، دقات ناقوس كنيسة مونتا نوفا، كنيسة القرية، رنينه يعج في كل فضاء، رنين عذب يطرب سمعي ويهز مشاعري ثم يحتويني ويسكبني مع أثيره الشجي إلى كل منطلق وفي كل نفس متعطشة للحب والإيمان، هل تراها تسمع ما أسمع وتشعر بما أشعر؟ ها إني قد أتيتُ، مَنْ تنادي أيها الناقوس؟ هل تفيدني بشيء؟ أعرف أن الله وحده هو الذي يعينني على تجسيد الرسم وبعث الحياة فيه، إلى ساندريلاّ كنشيانو، زهرة اللوتس ونشوة الحب الخالد، هذه الجبال، هذه الصخور، هذه الضفة الخصيبة وهذه الأزقة القديمة، من البيوت العتيدة أشم رائحة التاريخ الناضج، احتويني أيتها الأنفاس الدافئة، احتويني يا بيوت قريتي واجعليني بين ضلوعك، في أنفاسك، في دقات قلبك، في دفقات دمك، في كل حسّ ينبض بحياتك. هذه السوق الجديدة يا لموقعها المناسب وشكلها الجميل! إنها سوق حضارة اليوم. حتى أنتِ يا كنشيانو؟!

وينفتح الباب آلياً، ويدخل ببطء متأملاً، وتقابله الأضواء وانفاس طيبة من الروائح المنعشة وتتناهي إلى سمعه أمواجاً هادئة من الموسيقى الراقية ويتطلع إلى وجود الناس وتأخذه نشوة الحنين مرة أخرى ويدخل في الممرات وتقابله وجوه الناس، كلامه باللغة الأم متقطع وصعب والناس هنا لا يحفلون بالغرباء، خصوصاً غرباء اللغة.

ها إني هائم بين الزبائن على طول الممرات، إني لست زبوناً وما دخلت لأشتري بل أروّح عن نفسي وتدفعني خواطر من ربيع الصبا تجرفني في تيارها الساخن حتى شاطئ الخليج المهجور.

مرّ يوم وأسبوع، وأسبوع آخر، وفجأة وعلى غير انتظار، لحظات عجيبة تمدّنا بها صروف الأيام، يا لروعة هذه الالتفاتة المباركة كأنها مقدرة بمعيار دقيق، يا الله.. لاشك في أنها هي، إنها هي، مازالت على قيد الحياة، الحمد لله، ومازالت في صورتها الأولى، هل أخف إليها وأكلمها؟ وماذا في الأمر؟ سأفعل.. ساندريلاّ.. ساندريلاّ لم تسمعني بعدُ ساندريلاّ إنها تبحث عن مصدر الصوت سأقترب منها أكثر.. ساندريلاّ...

- نعم يا سيدي، أتقصدني؟

- نعم، ألم تعرفيني؟ ألستِ ساندريلاّ كنشيانو؟ انظري إليّ، أنا ليوناردو بوتشيني.

- نعم يا سيدي، أنت تناديني باسم أمي، أتعرفها؟

- الله! .. الله. يا إلهي!. كيف أقول؟.. ما هذا المسار..!؟ خدعني الوهم.. اعذريني يا فتاة .. فعلاً فعلاً.. أنت لستِ ساندريلاّ الأصل، لقد غفوت عن مسافة الزمن، نعم إنني أعرفها يا بنيتي، خدعني دعاء القلب ونسيت مرور الزمن على عمري، وتعاقب السنين وآثارها على جسدي، لا تؤاخذيني يا جميلة!

- أنا أنجْلا يا سيدي، أنا ابنتها، أرجوك لا تتأثر ولا تحزن، فكلنا بشر نحسُّ، ونقدَرّ العواطف الخالدة.

- أنتِ ابنتها؟! يا للدهشة! يا للمفاجأة العجيبة! كيف تجري المواقف؟ ... أنجلا هي ساندريلاّ وساندريلاّ هي أنجلا، نفس الجسم والمحيا، كل ما فيك ساندريلاّ، ساندريلاّ تاريخي والمصباح الذي مازال يضيء دروب عمري ويبعد عني ظلام الليالي.. هذا بُعد مدى، وإن له معنى.

- ما أجمل ما تقول يا سيدي لقد وضحت الفكرة وتجسّد القصد، رأيت صورتك معلقة في خزانة أمي الخاصة، في الصورة كنت شاباً يافعاً وسيماً وأكثر وضوحاً من الآن إلا أنك مازلت بنفس الطول والنحافة، وبجانب الصورة ورقة تحمل كلمات جميلة وأبيات من الشعر.. هَه ها هي أمي قد جاءت إلى السوق هي الأخرى، ترقّب قليلاً سأخبرها قبل أن تتقابلا، حتماً سيكون مشهداً درامياً مؤثراً!

- لا يا أنجلا، أرجوك لا تفعلين هذا، سيكون موقفاً ساخناً لا يطاق، كيف جاءت وتلبدت هذه الغيوم في هذه اللحظة القصيرة، والآن تنذر بالعاصفة، إنني لا أقوى على المجابهة، أحاسيسي المتفاعلة لا تحتمل عنف هذه المفاجأة. تُرى ماذا أقول لها وبماذا أجيب؟ أقوالي بلا حجج وأعذاري واهية، أنا السبب في هلهلة حزام باقة الأزهار التي جمعناها في صباح يوم مضى وجلسنا وجهاً لوجه ونصبناها بيننا في احتراس نترقب موسم الدفء، ماذا أقول لها الآن وقد كسا رأسي البياض؟! اعذرها إن هي ولت على عقبيها، واعذرها إن هي نظرت إلى وجهي باشمئزار، واعذرها إن... ماذا أقول لها لو قالت من أنت؟ أنا لا أعرفك، ما يكون ردّ فعلها لو قلتُ لها أنا نسيت نفسي وأنا في عربة قطار تعاقب الأيام ورحيل السنين. في المواقف الساخنة تتلاشى كل الخبرات والمعارف التي اكتسبناها في

معترك الحياة ونصبح في مستوى النملة من الهوان أمام مشهد مثل هذا، ها هي تقترب باسمة تلوح عليها فرحة الخبر وتقترب لملاقاتي، ما هذا الاختراق المفاجئ وهذا التصور الذهني الغريب؟ لاشك في أنك ترى كما أرى، نفس النظرة المشرقة الودود ونفس العين الساحرة والمحيا المشرق المتطلع.. توقف أيها الزمن وقل معي بنبرة الشعراء، يا شمس الشرق المجيدة أرجوك لا تغربي ويا بلبل الدوح العجيب تمهل وخذّ مني وخذّ منها، أرجوك تمهل لا تطير.

- ليوناردو!؟ دموعي تتساقط لا أرى ما أمامي، عيناي معلقة في وجهك، اسمك استحضر لي الماضي ومحياك زاد في دقات قلبي وهيّج شعوري، هذا ليس في الحسبان، بعث مشرق رحيم من عالم الأحلام الجميلة.

- هذا غُلُو يا ساندريلاّ في إثارة الحد الأقصى للدراما والمشهد المثير، إنني في مقام رفيع فوق منسوب الحياة، إنكِ وميض شرقي متكامل الوضوح لا يتلاشى، إنكِ الدنيا بكاملها، إنكِ من وسامة الكابيتول وعمر أبو الهول!

- لا أستطيع أن أقف هكذا، دعني أعانقك حتى ونحن في مفترق ممرات سوق، وعلى مشهد من الناس، امرأة تعانق رجلاً غريباً عن القرية يرتدي لباساً أمريكياً! أين كنتَ أيها العائد المتأخر؟ كنتُ متيقنة أنني سأموت قبل أن أراك.

- يعجز لساني عن الرد وتتوقف عيناي عن النظر إليك، ساندريلاّ كنشيانو سحابة دفء في موجة صقيع ونشوة شروق في موسم ربيع، أجل إنك ساندريلا التاريخ والمستقبل، حبيبة قلبي وقديسة النهر والجبل والغابات، منذ أن حللتِ والأغاني الساحرة لا تكفّ.

- وهل ترى ذلك وتسمع؟ ولكن أين الشباب؟ أين ربيع العمر؟ لقد تدارت فصول الخصوبة اليانعة .

- مازال في مطلع الأفق يلوح بدفئه الوهاج، إنه لا يغيب!

- وإنك ليوناردو، ذلك الذي ذهب مغترباً على مدى خمسين عاماً، ليس بالزمن القصير، لِمَ جئت؟ وبمَ أتيت بعد هذه الغربة الطويلة؟ لقد ترك الزمن أثره فينا ولم يبق منا إلا البقايا! لا تحلّق بخيالك بعيداً، لا تتستّر، الحقيقة لا يواريها ستار، لِمَ نسيتني؟ ومن هي التي

أخذتك؟ وغبت في أحضانها؟ لاشك في أنها على قدر كبير من الجاه والجمال!.

- عالم فسيح مترامي الأطراف، تغيب الذات وتموت فيه أحاسيس الذكريات، ضجيج، صرير، ورحى عملاقة تجذب ما حولها في سرعة البرق وتسحق بين شقيها اللحم والعظام، عالم رأس المال والشركات التي تشدّ الأيدي وأعناق الأمم، عالم نشأ من وراء الأحلام، تضمحل القيم الفاصلة ويتلاشى فيه صوت الإنسان ووشوشة الغابة وتغريد الطير ويتحول البحر إلى أسوار وقلاع من حديد وتجف الأنهار تحت سطوة وفاعلية المبيد، تنحسر الأنفاس وتنحشر الذاكرة وتقيد سرعة الزمن المحموم، نمو الفكر ونشاط الذاكرة، يتجرد الإنسان من مشاعره وينسى ذاته وتاريخه. لقد ضاع مني كياني وأيام عمري وأنا في مربض من الجحيم. استيقظت ذات صباح وقد ضاع مني ضحى الشباب، نظرت في وجهي على سطح المرآة فلم أعرف نفسي وتساءلت من أنا ومن أين أنا؟ تناولت دفتر صكوكي وتصفّحت وريقاته، تسارعت الأرقام تفتح أبوابها ونوافذها متزاحمة تعلن عن نفسها وترتجي خروجها حتى تتعامل مع هذا العالم المغبون!
- كفى أيتها الأرقام، من أنت وما تعني؟ وفي دروبك الآن ماذا جنيت؟ وجدتُ نفسي تائهاً في مزارع أشواكك.
- إنني السيد وأنتَ العبد، لولاي ما عرفت وقدرت الثمن، لولاي ما جئت ولا نسبّت، ما نسبت القيمة والثمن، لقد قبلت دعائي وأنت في هالة المهرجان.
- ثمن ماذا وأي مهرجان؟
- ثمن عمرك الذي فقد أهدافه، شرعيته، قضيته في ميادين الصليل وصوت الكوابح وصرير التروس وقهقهات الغانيات ورنين الكؤوس!
- لا غبار على ذلك، ولكن كيف مرت كل هذه السنين دون أن أدري؟
- لست وحدك، وهذا هو السر العجيب، لقد غابت عنك حكمة السيطرة على توجيه مسارك ومعرفة تعديل كفة الميزان الذي يخصك، أريت كيف خطفك الرنين وبريق المال يا ليوناردو؟ فأنساك أولك وأضّر بآخرك.
- من أجل الوكر المقدس الذي ينتظرنا.

- أمازلت تنتظر!؟ بقيت خمسين عاماً في الغربة ومازلت تنتظر؟ أنت كأنك في نوم غزير الحلم كثير الأماني، أنت لم تعد من أجلي، نسيتني وقطعّت مشارب أحاسيسك عني، انتظرتُ كثيراً ثم خضعت للأمر الواقع والواجب المقدس. وخضعتُ لآخر ظل غريب.. جاء يطلبني.

- وبعد؟

- تراخت الأغصان وتهدلت الأوراق وعادت أمانيّ وأغانيّ حزينة إلى أصلها بالتدريج كعودة الطيور إلى أوكارها مساءً، تغيرت الألوان وغابت المفردات الجميلة والوعود الحالمة وتحولت الرسائل إلى ذكريات تظهر من حين لآخر في سماء أيامي، كل شيء تغير يا ليوناردو، لقد اقترب المساء، السماد المخصّب والمياه الدافقة لا تنفع للنبات الذي تجاوز موسمه وعمره، أنت الذي لم تُوفِّ وتخليت عن الوعد، جفت دموع البلابل ويبست جذوع البان، أي سر فيك أيها الرجل؟ إيه يا ليوناردو ما أسهل استجلاب الذكريات. عندما كنت أقف أمامك وأحيطك بذراعيّ وأنظر بإعجاب إلى عينيك، كنتُ أسمع لغة حبك تزمجر في دمك كهدير الرعود. كل ذلك مضى مع موسم الشباب!

- قالت أنجلا إنكِ أرملة منذ خمس سنوات وهذا ما دفعني أكثر.

- لم يعد موسم كما ذهب، لقد طويت صفحات قصتي ورميت قلمي من بين أناملي.

- جئتُ ومعي أموالاً كثيرة وحنيناً إليك لا تحتمله هذه الجبال، كله من أجلك يا كنشيانو.

- طموحاتك اليوم لا تشرق بعيداً، لا شيء، خسرت كل كنوزك يا ليوناردو! الحياة مسعى نبيل ونظرة متمعنة في حركة الكون وتقلبات الأيام، الحياة قيم اجتماعية رائدة وحكمة متبصرة، ليست تجارة تقاس بقيمة البيع ومدفوعات الشراء، كل ما أتيت به لا يساوي أغنية واحدة من تلك التي كنا نغنيها في مسارب القرية وفوق سطوح المنازل وعند مصب النبع وبين مسالك الأشجار، فكل ما عندك وما في جيوبك قبض ريح! آهٍ يا ليوناردو لقد لحق بنا الكبر وبرد موقد النار، الوفاء أعز صفة وأكمل خليقة أحس بها وأقدرها في شعوري، ماذا أقول أيها الآت؟ على الرغم من تعاقب السنين وتصرّم الأحداث إلا أنني مازلت أحس بدفء همسات بَوْحك الأخير!

- ساندريلاّ.. أرجوك لا تبكين، عيون الناس تتجه إلينا.
- أيها الآتي من بعيد ماذا أقول لك ونحن في خريف العمر؟ لقد تجردت مونتانوفا[1] من كسائها الأخضر وعبثت الريح بردائها الفضفاض، يمكن لنا أن نهدّ جبلاً أو نسافر فوق الواقع، ولكن لا يمكن لنا أن نعيد ذلك الدفع الغزير الذي بات يزيغ متلاشياً مع رحيل الصبا. لا تبالغ يا ليوناردو، لا تبني جدراناً من وحي الأساطير ولا مجداً في مدن السراب فإننا في الأرض وإلى الأرض نعود، لكل منا عم
- راً... وأول العمر لن يعود!

(1) هضبة ذات خميلة دائمة.

الكنز

يا من دعاها الجمالُ!! مهلاً!. مهلاً تمهّلي.

عبرتُ الزمان وتخطيتُ آلاف القرون – وزرعت كلماتي مع بذور الشجر، ومن عبق شذى أزهارها وحفيف أورقها تأتيني الذكريات. جمعتُ كل محاصيل مشوار عمري السريع كنزاً لأسراري .. وصُغتُ فيه كل مضاميني .

ظلام الليل لا يكاد يسمح لرؤية ثلاثة من الشبان إلا بصعوبة، وهم مازالوا في لباس الفلاحة.. يخرجون من باب المنـزل، ويدخلون إلى المربوعة[1]، ذات الباب المجاور.. أحدهم يرفع ذبالة المصباح قليلاً، فينتشر ضوء هزيل على الرغم من السواد الجاثم.. لا يكاد يميز الوجوه والأشياء المحيطة إلا بصعوبة.. يلتفت الشبان إلى أسفل في اتجاه واحد، حيث يرقد شيخ هزيل الجسم على فراش على الأرض.. يبدو أنه يعاني مرضاً عُضالاً منذ وقت طويل، كان يئن قبل أن يفتح عينيه عندما أحس بالضياء، ويرى من هم يقفون عند رأسه ويبتسمون في حزن قائلين:

- مساء الخير يا أبانا. شافاك الله.. ويمدّك بالصحة والعافية..
- الله يشفيكم ويُحسن إليكم.. إنني في طاعة الله.
- قريباً ستشفى إن شاء الله، لاتنسى الدواء ولاتنسى نصيحة الحمّادي...
- أبعد الله عنكم كل شرّ، وحماكم من همسات الشياطين. مال بوجهه نحونا قائلاً: أنتم الثلاثة!؟.
- نريد الجلوس لنسهر معك شطراً من الليل.. فماذا ترى؟
- إذن شدُّوا بيديا، واسندوا ظهري، واقعدوني متكئاً.. حتى تطيب نفسي وينتعش خاطري.. آهٍ! هكذا.. العمر قصير والهدف بعيد.. لاشك في انه ليل متأخر، وسكن كل حي.. هكذا تتوالى الأيام ونغفل عن تعاقبها السريع.. إنها عربدة الزمن.. لقد أشرفتْ معاناتي لهذا المرض قرابة العام والنصف.. أظنها النهاية يا سعد.

---

(1) مقام الضيوف.. غرفة الاستقبال، في أريافنا تقام خارج المنزل، وبابها يحاذي باب المنزل.

- أبعد الله عنك كل شرّ.. لا تقل هذا يا أبانا.. شافاك الله وأمدّ في عمرك.. أنت دائماً حاضراً في نفوسنا.. أنت منهل الدفء والعطف، أنت سرّ وجودنا.. أنت الذي أخذت بأيدينا وعلمتنا كيف نخطو، وعلمتنا أيضاً كيف تقف النخلة بشموخ وإباء، وكيف تنحني الزيتونة للحب والعطاء.. أنت.. أنت وأنت....

صمت لحظة منتشياً بهذه الأوصاف، ناظراً في نفسه.. ثم ٱلتفت إلى أولاده قائلاً: «أحس إنه المطاف الأخير.. إنه واحد.. يوم متقدم أو متأخر.. أنا آتي إليه برحابة صدر ونفس مطمئنة.. إنه سرّ الكون وطبيعة الأحياء.. الوجود هو النمو المتصل، السعي والكفاح.. ليس جديراً بالحياة، إذا لم نقتحم صهدها كل يوم ونعتلي صهوة جوادها بنضال وحتى صلابة المفجعات.. ما وقفتُ يوماً تاركاً واجب اليوم إلى غدٍ إلا ما هو فوق قدرتي، أذكر، وأتحسس طفولتي وصباي وشبابي ورجولتي... وحتى شيخوختي، قبل أن يحّط بي المرض، ويقعدني على فراش العجز، تعلمتُ الكتابة والقراءة، وحفظتُ سوراً كثيرة من القرآن الكريم، وأصغي جيداً لما يقوله خطيب المسجد في يوم الجمعة، وأسمع أكثر مما أتكلم، وأتقصّى حركة الأشياء.. رعيتُ حيواناتنا مع صبيان القرية، تعرفتُ على أقراني، وتعلمتُ الصراع والمنافسة، جمعتُ الحطب مع أمي، وساعدتها في كثير من الشئون.. لعبتُ ولعبتُ، وفي مرحلة الشباب والطيش ذهبت إلى أماكن حيث تقام الأعراس في بيوت الأفراح.. صفّقتُ مع المصفقين، ورقصتُ مع الراقصين.. غنيتُ بأعلى صوتي لإظهار ذاتي، ولأُسمع أغاني إلى غيري لاثبات وجودي ورجولتي وأرضي نفسي وشجوني.. لا تفوتني صلاة.. ولاصلاة جمعة، حتى وإن كنتُ سيد الطريق.. تاركاً العمران، وكذلك صلاة الأعياد. شهر رمضان ليس كبقية الشهور.. شهر مبارك وخير متواصل، لا يحس بقيمته وعلو شأنه إلا قلة من الناس.. كل حركة فيه عبادة وأجر وفير.. أفطر وأتعشى من قصاع الصدقات، تلك التي يأتون بها الناس من بيوتهم، ويضعونها على أرضية باحة المسجد وعلى قارعة الطريق الترابية المحاذية.. ليس طمعاً أو اتكالاً فيّ، وإنما هو استجابة تلقائية لدعاء ووحي الضمير الاجتماعي، الذي نشأنا وتربينا على سجيته.. التعارف والتآلف والتعاون، رَبْطَةَ أو باقة يانعة من المحبة. الطعام المتبادل رمز العِيشْ والملح والماء.. هذا هو النسيج الذي يؤلف القرية.. وهذا هو البساط الجامع الذي تُوضع فوقه قصاع الصدقات في شهر رمضان المبارك، لنأكل منه أنا وأنت وهو على قصعة واحدة».

حضرتُ ولائم، واسُتدعيتُ إلى عزائم، وزرت أناساً وأقارباً من قرى أخرى بعيدة.. عدتُ مَرضى، ومشيتُ في جنائز، ودّرجتُ موتى في قبورهم. ضحكتُ وبكيت، فرحتُ وحزنت. رحلتُ إلى البر، ذهبتُ إلى الوديان في مواسم الحرث والحصاد. دخلتُ معارك، وشاركتُ في فضّ منازعات وتسامح.. مواقف متضاربة وألوان وألوان شتى.

لم أفكر يوماً إني تركتُ والدي دون أن يأخذ بمساعدتي، إلا إذا أجبرني على التوقف. توليتُ أمر نفسي، وتكفلتُ بمسئولية عائلتي عندما أصبح والدي يتعب ويعاوده الوهن ودعاء الشيخوخة.

إني وحيد والديّ.. سانيتي هي روحي وجذوري.. أرى لحمي وعظامي ينبنيان من طينها وحجارتها، وأشمّ رائحة دمي من نفحات ترابها وروائح تبنها. أتوجه إليها وأتناول معداتي الفلاحية من صلاة الصبح. أرتاح قليلاً عند الظهر، ثم أواصل نشاطي.. حتى دخول وقت صلاة المغرب. إنها سانية!! وإنه الإنتاج الوفير! وإنها أرض تزهيّ العين وتريح القلب. لا أقول كثيراً من المرات.. ولكن يأتي موقفان أو ثلاثة في السنة. أهب نفسي متطوعاً من أجل عمل تعاوني بين الأقرباء أو للجيران.. أحياناً يصل إلى يوم كامل، كجباذة[1] لسقي مزروعات، حصاد، جني محاصيل وقف، أو في عملية بناء سكن لأحد المعارف أو الأحباب! ومن الذين لا معين لهم.

– حتى لا يفوتني ذكر من وقفوا معي ورافقوني في مسيرة حياتي، وأعزوني وعززوني.. وقدموا لي جلائل الأعمال. إنهم مازالوا أحياء في موسم حصادي ومواكب ذكرياتي.. أول هؤلاء أمكم يا سعد، يا حيدر ويا ثامر.. إنها الرجل بالمعني المجازي، والمرأة في البيت والحقل وفي عيون الناس، والأنثى في التكوين الألهي.. وقفت بجانبي ومعي.. وأحياناً أجدها قبلي وأمامي..

هي كل متكامل طيلة هذا المشوار السريع.. التي مازالت خيوله تأخذ أنفاسها وتمدّ خطاها.. هي التي تجلس على عرش العائلة وتربية البيت وإدارة شئونه.. تنظر بعيداً، تحرس خلفي وترى فيما أمامي، وتحس بما يطرأ عليّ وما يضمر قلبي، ما تكاد تنظر إلى وجهي حتى

(1) عملية سقي المزروعات وري الأرض بواسطة البئر والهِوان.

تعرف ما يجري وما يخطر في نفسي، ما يكاد عاتقي الأيمن يميل بحمله حتى تأخذ هي وزر الكتف الأيسر، في كل ما يجري في مشاغل اليوم دون أن أذكر لها قدر تعبي وعجزي في بعض الأحيان. تُشمّر عن ساعديها وتمسك «المعراض»، وتدفع الدابة أمامها لجلب المياه بالدلو من البئر لسقي وري المزروعات.. تأخذ المسحاه وتتابع انسياب الماء في الحقل لري الجداول المزروعة بالنبات.. تزرع، تبذّر، تحصد، وتقوم بمهام وشئون أطفالها وترعى بيتها وحيواناتها.. خصوصاً عندما أكون في مشغلة، أو عذر خارج عن الطوق وفرض ذاته متمادياً حدود بيتي وحقلي.

المهام والظروف قد تكون متبادلة.. فعندما تتهافت عليها المشاغل وتزاحم الأعمال، فلا أنسى نفسي وأتدارى، ولا أعبأ بالمكابرة.. أرحي الحبوب، أعجن الدقيق، أغربل وأوقد النار لحمي التنور، أخبز الخبز، وأعد لكم ما طاب من الطعام.. أرعى وأطعم الحيوانات وأحلب وأربط .. أمّكم لم تقل يوماً أنها تعبت، أو تراخت عن أداء واجب.. لم تتبرمّ من قدوم خاطر أو ضيف، بل تُراجع نفسها عند سماعها الخبر ترى إنه من مقدساتها ومن أوائل واجباتها. لم تذكر والدي وأمي إلا بخير.. ولا هي من أهل الوشاية «والقيل والقال» حتى مع غيرها من الناس. نشاط متواصل وانشغال مثمر.. تستثمر كل حركة وتستفيد من كل لحظة.. إنها أصيلة، وإنها من تربية رب العالمين.. فهي بالنسبة لي وجود كبير يملأ حيز حياتي كلها.. هي كنز كبير له قيمة لا تحدد، هي المشرق والمغرب، ملأت كل حيز في قلبي وهيأتني لتعاطي الحياة بألوانها.. وعلى الطريق التي وجدتموني أمشي عليها.. إنها نجم سيّار وقمر هادياً ديّار.. وأرض خصبة لا تنبت إلا ما هو مثمر كثير الإنتاج.

اشتريتُ الطرف الغربي الذي أسميته «بالضفة الذهبية» تحاذي وتجاور سانيتي وهي تعادل ضعفي سانية والدي.. بهذه الإضافة المباركة تحوّلَتْ إلى حقل كبير.. ومنذ ذلك الوقت تضعّف جهدي، وزادت ساعات نشاطي، فأقوم من فراشي سَرْوَهَ.. أؤدي صلاة الفجر بين الجداول ونقيق الضفادع.. ذاب الحقل في دمي وذبتُ أنا في ترابه وصار كل منا كياناً مندمجاً في جسم واحد.. أحياناً أحس إنني نبتة قوية ضاربة الجذور في أعماق هذه الأرض. يا أبنائي لا شيء يأتي من لا شيء ولا إنتاج وفير ومفيد بلا بذل جهد وتصبب عرق وإتقان.. حتى يرضي النفس ويقنع الضمير بما كسب من محصول حلالاً طيباً مباركاً.

تمنيتُ لو كان لي شقيقاً يشدّ أزري، يعين كاهلي ويدفع مسعاي إلى الأمام، لأن حقلي صار أكبر مني، فهو الآن يحتاج إلى ثلاثة روافد مجتمعة مثلكم يا أبنائي.. روافد دافقة دافعة، زاخرة بمدّها الحيوي وعطائها.. يا أبنائي الأرض جذور من جذور من جذور، فهي تُشترى حتى بسخاء.. ولا تباع، وحتى وإن بيعت، فبمقابل أرض أخرى أفضل منها.. الحقل بالنسبة لي هو الوطن، هو الناس، هو الماضي والمستقبل، هو اعتبار الذات وقوة الثبات، والمحافظة على الخلق والاستمرار.. هو الإيمان وصدق الخواطر والذكريات.. الأرض هي أنا وشخصيتي.. هي أنت ومن أنت؟ هي أسمك وبيتك وعنوانك، ومقامك واعتزازك بنفسك وبين الناس، وفي النهاية هي قبورنا، وفيها تتحول أجسامنا إلى تراب.. ومن التراب تتغذى الكائنات الحية.. هكذا دورة الحياة والموت، والموت والحياة.. فكل شيء من التراب.. القوة عصبة متوحدة، ويد الله مع الجماعة.. والخير الوفير تجود به الأيادي المتوكلة المخلصة، والقلوب الحية العامرة. يا أبنائي إن اللقمة الباردة لا تُقَنع نفساً ولا تملأ بطناً ولا تُقوّم عظماً.. حتى وإن جاءت هذه اللقمة من مصدر حلال فإنها باردة.. باردة، لأنها خالية من الاعتزاز بالجهد والبذل «واللّي ما يأكل بيده ما يشبع» يا أبنائي إن كيد الشيطان ضعيفاً.. وكيد النساء عظيماً.. إذا أردتم أن تنجحوا.. أحذروا همسات الوشاة ودموع النساء.. وأعلموا أن الله لا ينظر إلى طولكم وعرضكم وجمال وجوهكم.. ولا قوة صراعكم وعدد أبنائكم، وإنما إلى أعمالكم ومحاسن مآثركم.. لم يبق من عمري إلا ساعات، أو أياماً الله أعلم به.. لهذا جمعتكم وحدكم هذه الليلة.

- خيراً إن شاء الله! خيراً تراه منا يا أبانا!..
- أريد أن أُقسّم عليكم أرض الحقل.. كل واحد منكم يأخذ حصته.. إنها أرضي وأنتم أبنائي.
- الخير فيما تراه يا أبانا.. نتمنى أن يشفيك الله، وترجع إليه نعمل فيه معاً.. إنه ملكك بلا منازع.
- لا مفرّ من مجريات الكون.. الإرث من شريعة الله.. هكذا ورثتُ عن أبي، وهكذا يورثني أبنائي من بعدي، إنها من سنن الحياة.. والطريق الطويل المتواصل، من الجذور تنبت وتمتد الفروع.

- نحن لا نقول شيئاً يا أبانا.. إلا أنها إرادة الله ومشيئته.. نحن الثلاثة نجلس بجانبك، ونسمع حديثك بكل وضوح.. ولكن يا أبانا أنت تعرف حقلك فيه الأرض الضعيفة وفيه الخصبة ولا أحد منا يرضى بالضعيفة.. فكيف يكون التقسيم؟ عرضاً أم طولاً؟!...
- هذا ليس صعباً.. ولكن الأمر يكمن في سرّ.. هذا السرّ مثير جداً وأرّقني كثيراً، مشكلة.
- مثيراً جداً.. يا لطيف!!؟.
- كأنه الآن يا أبنائي.. شمس ذلك النهار مالت إلى الغروب. رأيته يخترق الأرض ماشياً، لا يتبع المسرب الذي لا يبعد عنه، أثارني أمره.. عرفتُ إنه غريب كما هو لباسه.. وإنه يقصدني، أنظر إليه متأنياً ومستغرباً، أنا واقف في صمت وهو يتقدّم في وجوم وتوجس.. اقترب؛ طويل القامة، نحيل الجسم نوعاً، ملابسه ليست أسمالاً إلا أنها قديمة.. طويل الوجه واسع العينين، تمتد أخاديد على خدوده، هادئ النظرات، يزفر قليلاً، يحمل خرجاً على عاتقه الأيسر مملوء بمتاعه الشخصي.. اقترب أكثر وقال «السلام عليكم.»..
- وعليكم السلام ورحمة الله .. تفضل يا أخي..
- ألست لبيداً؟..
- أنا لبيد يا سيدي!..

تبسم قائلاً: «جرعة ماء أعانك الله.. أشعر بالعطش من تعب الطريق..»

- ضع رحالك أولاً.. يبدو عليك التعب.
- مشاوير الحياة تعلمنا، وتفرض علينا أن نؤدي خطاها، مرّها وحلوها، ولولا ذلك ما استطعمناها وتشبثنا بها.
- كلامك صواب.. إلى أين؟
- إلى قبلة المؤمنين.. هناك في تلك الفيافي، حيث يحط خيالي الآن .. مكة.
- ثبّت الله خطاك وأوصلك وأرجعك ظافراً بما قصدت وسعيت..
- جازاك الله خيراً.. ها إني ارتحت وشربتُ.. والآن أخذ سبيلي وأواصل خطاي..
- هذا لا يجوز.. وإن الليل اقترب وأوشكت شمس هذا النهار أن تغرب.. إنك ضيفي.
- أهل الجود والكرم لا تبلى جذورهم ولا تيبس فروعهم.. ولا تدنى جباههم...

- هذه من شيم خيامنا وأصول ثباتنا وكنوز تراثنا وصدق وفخر بعاداتنا..
- الحقيقة.. قابلتُ في طريقي غيرك.. ولكن فضلتُ أن أحط رحالي عندك.
- خطوة عزيزة.. مرحباً بك أيها الضيف.. أتيت أهلاً.. منذ الصباح كان هاجساً يوحي إلي بذلك.

لم أبق معه كثيراً، تركته جالساً، واتجهت إلى بيتي.. ذبحتُ جدياً، وأوصيتُ بوجبة عشاء لضيف قادم من بعيد.. تقديراً له وإحياءً لمبادئ مكارم الأخلاق. كما قال رسولنا عليه السلام: «بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق» عند المغرب صلينا معاً في مسجد القرية، وطلبت من الإمام مصاحبتنا ليتعشى معنا.. ثم أتينا إلى هذه المربوعة، التي بُنيت وشُيدت جدرانها على مقامات الجود والعطاء.. من زمن أبي.. وزمني. مقام البيت العزيز ورفعة شأنه، «الكرم والضيافة» لا بارك الله في منـزل همد دخانه وبرد رماده، وقل خطّاره. يرضيان الله والنفس، يوسعان الخاطر ويفرحان القلب، يضّعفان الزرق، وينجيان من المصائب .

تناولنا عشاءنا الفاخر، انسرّ الرجل انبسطت سريرته وهدأ باله.. وقال راضياً، طيّب الخاطر: «كما أخبروني ودلوني عليك من مضارب بعيدة». قالوا: «أذهب، وفي طريقك أسأل عن رجل اسمه لبيد، فإنه كريم وخير مضيف». وها أنا قد أتيتُ.. وها أنت كما قالوا فيك.. بل الذي رأيته ووجدته أكثر.

طاف بنظره قليلاً ثم قال: «هل تعرف من هو لبيد؟»

- أنا يا سيدي.
- أعرف، ولكن هناك لبيد آخر.. شاعر جاهلي.. لابد أن أباك أو أحد أقاربك شاعراً أو يحب الشعر.
- لبيد.. هكذا أسماني أبي.. وأرى ليس تبركاً بالجاهلية وشعرائها.. أنا فلاح أحرث وأزرع وأجني الثمار.. وإن اسمي على طاعة الإسلام.
- كله طيب والخير فيك.. إلا أن جذبني الاسم وكيف حلّ هنا.. أهل الكرم والجود من أهل الجنة.. والذين يحبهم الله. حتى وإن كانوا ليسوا من دين الإسلام.
- الضيافة إحسان ورزق وهبة الله إليك.. إلا أنه جود كريم مقدّر إلى غيرك عن طريقك..

الضيف له أجر من عند الله، والمُضيف له ثلاثة أضعاف له ولأهل بيته.. ونحن نقول: «الضيف يكرم العيلة».

- ما شاء الله! ما شاء الله.. نور على نور.. من هذه الجلسة المباركة أخذني الحنين وناحت في سمعي أغاريد الحمام.. عبرتُ الزمن وتخطيتُ آلاف القرون.. إلى تلك المقامات الجديرة بالبقاء والخلود.. أين أنا؟.. تراني أقف أمام خيمة، نُصبتْ أوتادها على مرتفع.. جو مكفهر، ريح تنصبّ من الشمال، ليل أسود مخيف وثلاثة رجال على جنوبهم يتكئون داخلاً، خوفاً من البرد. مكارم الأخلاق أحاسيس لا تنام في ضمير سيدها.. إنه حاتم الطائي.. يطلب من خادمه أن يوقد نار القِري.. وفي هذا المقام لا يدعوه كخادم، وإنما كواقد نار القِري.. لأنه عمل رفيع، لا ينـزل إلى منـزلة الخدم.. صُور ومشاهد ومُثل عليا.

أوقد فإن الليل ليـــل قرّ والريح يا موقد ريح صرّ
عسى يرى نـارك من يمرّ إن جلبت ضيفاً فأنت حرّ

- ما أجمل ما تقول يا ضيفي العزيز!..

- هذه ضروب من الفن الجميل: «قراءة مثل هذا الشعر والنثر والاستماع إلى سور أو آيات من القرآن الكريم، تحرك العقل، وتبجّل الحياة، وتفسح نشوة الخاطر وتهذب العمل وتمحو الغشاوة عن النظر».

- إني أسمع منك الجديد يا ضيفي.. كأنها ثمار عامرة تفوح منها عطر النضوج.

- يا مضيفي الكريم ما أشد حاجتنا إلى أن نفهم حياتنا التي نحياها حق فهمها حتى ندرك ونعي ما يحيط بنا.. نحن نسبح في بحر من الجهل والغفلة ومن الابتذال والإسفاف.. علينا أن نبذل أقصى ما نستطيع من الجهد لتصبح حياتنا العقلية كلها تعليماً نافعاً، لا تجهيلاً مقصوداً يراد به الضرر وتغييب الضمير وتحقير الهمة.

- ما شاء الله!.. ما شاء الله!.. نور على نور.. نور على نور!!... .... أراك مليئاً بالعافية.. صحتك تفيض على سني عمرك.. وهذا يدل على صدق جهدك ونقاوة رزقك..

- ماذا تعني بهذا؟!..

- لا تتبارى مع حقوق الله في رزقك «الزكاة» تؤدي زكاة محصولك كاملاً. وهذا يظهر من

صدى صوتك وهدوء بالك..

- نعم حق الله هو الأول.. أزنه بمعيار الذهب.. خوفاً منه.. وطمعاً فيه.. لأني أبصر، أعي وأقدر، وأن المُلك لله..
- هذا هو السرّ... ... ... هل لك أطفالاً؟..
- ثلاثة صبيان.. مازالوا صغاراً...
- حفظهم الله من كل شر ومن حسد الحاسدين.. هل يقرءون القرآن؟
- ليس كثيراً..
- اللهم اجعلهم نبتة خير ومنطلق علم وبركة، واجعل تربيتهم من ينابيع كتاب الله.
- الله يفتح عليهم ويزيدهم علماً ويبصّرهم على ما يجهلون.

في صباح اليوم التالي، ذَهَبَ إلى مسجد القرية.. ولم يأت إلا مساء.. تناولنا وجبة العشاء.. خلدنا للهدوء.. وكان حديثه وحديثي! وكلامه وكلامي! وإنه من مراكش.. انحدرت به الطريق، قاصداً بين الله الحرام لأداء فريضة الحج. قبل انتصاف الليل.. استوى جالساً، تنحنح، نظر إلى وجهي، ثم إلى خرجه.. وقال: «أظن قد هفا عليك النعاس يا لبيد.. هيا قرّب إلى خرجي.. هذا الخرج يا لبيد مصدر خوفي، وكذلك قوة هيبتي..»

- جملة تحتاج إلى تركيز يا ضيفي.. ماذا تعني بهذه العبارة؟..
- ألم أقل لك أن النوم سُلطاناً لا يقاوم؟؟..
- أجل يا سيدي.. ماذا وراؤك؟ بعد تناولك خرجك.. تريد أن تعطيني دواء يقاوم النعاس؟..
- نعم.. خرجتُ من طنجة، ولم أترك ورائي أحداً من عائلتي ولا شيئاً يثير حنيني، إلا معنى عزيز هو الوطن.. فكل ما عندي في هذا الخرج.. هو الذي عندي..

أخرج كيساً مملوء إلى منتهى خيط الربطة.. فك الخيط، وحرّك ذاته إلى الوراء ليفسح المجال.. قَلَبَ الكيس عاليه إلى أسفله، ونزل ذلك الشيء منصباً على فراش الجلوس يعكس

بريق المصباح ويملأ السكون رنيناً يفزع النوم من الجفون..

أخذتني الدهشة.. وربما الحيرة والذهول.. «ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا يا سيدي؟!»

- ذهب.. ذهب.. ومن العيار الرفيع يا لبيد..
- لم أر مثل هذا أبداً.. إنها ثروة!. ثروة كبيرة!.. ألم تَخَف؟ كيف تضع هذا على كتفك، وتسير في الطرقات وتنام الليل في العراء؟ ألا تخاف اللصوص وقطاع الطرق؟ ليس هناك إلا هُم، و أنت تحمل خرجاً كبيراً.. وبه هذا الذهب؟! وإنك ذاهب إلى مكة؟ أنت مشارك في هلاك نفسك.. كيف يجري هذا؟ .. ويبدو أنك رجل عاقل.
- هذا هو الذي دعاني وقادني إليك.. فعلاً هذا الكيس أثقل عاتقي وقلل من سرعة خطاي.. أخاف من أني يتعقبني الشرّ.
- وهل ترى غير ذلك؟
- لهذا أتيتُ إليك مصمماً، خصوصاً بعد أن أحسستُ أنك أميناً وتخاف الله.
- من أدراك إنني كذلك؟ اطمأنيتُ لخطواتي وحركاتي، واستجبتَ لملامح وجهي!!؟.
- الذهب النقي لا يخفي وزنه وقيمته.. وحتى رائحته وملمسه.. أنت من عنصر أصيل متجذّر.. أنت من تراب نظيف.. من أعالي الجبال.
- أترى ذلك في كرمي إليك؟ وحفاوتي بك؟ يمكن تجد هذا حتى من قاطع طريق، أو نصّاب متمرّس.
- يمكن!! ولكن أنت لا.. أنا أعرف الناس من حديث عيونهم وتعابير وجوههم وزفير أنفاسهم ونبرات أصواتهم وتدبدب أفكارهم.. فبالنسبة لهذا قليلاً ما أخطئ لأني رجل متفرّس، ومتمرس.
- وما الأمر من هذا كله؟..
- أفضّل أن أترك عندك هذه الأمانة..
- هذه الأمانة!! سامحني يا سيدي.. لا أقدر على حملها والحفاظ عليها.. أتمنى أن تختار غيري.

- لا أحد غيرك.. هكذا أوحى عقلي إليّ.

- ولكنها ثروة كبيرة يا سيدي المغربي.. لو أرضى بما تقترح وتقول، فإنك تزيد من تعبي وشقائي.. إنها أكبر من عمري.. وإنها أمانة يا رجل!! أمانة كبيرة والله!!

- هذا كيس من ذهب مني أنا .. وليست رسالة تخصك وحمّلك بها الله لك ولغيرك.

- لا فرق عندي طالما إنها أمانة.. ووعد وأداء.. والعمر ليس في حسابي وطوع إرادتي أوجهه حيث أصبو.. الغيب هو الذي يقود، ويحدد المصير، ويوقف ساعات العمر، وأنا لا أحب أن أنام الليل وفي حوزتي أمانة لغيري.. أو دَيْن.

- إذن.. إذا رجعتُ إليك خلال أربع سنوات.. فآخذ منك أمانتي، وإذا لم أعد، بعد خمس سنوات، فيكون هذا الكيس وما فيه، من حلالك وتستطيع التصرف فيه.. واليوم آخذ منه ما يسد حاجتي فقط، حتى لا تتعبني الطريق، والخوف من المجهول.

- لو أنك تعفيني يا سيدي، فإنه جميل منك لا أنساه.. يا الله!.. ما هذا الخطب؟! أمانة.. تلك التي رفضتها الجبال.. بل أشفقت منها .. تأتي إلي، في صورة كيس مملوء بالذهب!.

- لا أحد غيرك يا لبيد.. هذا قدرك..

- تحملتُ الأمانة التي من والدي «العائلة والسانية».. وأنت تزيدني الثالثة؟!..

مرت أربع سنوات.. وانقضت خمس.. ولم يرجع ذلك المغربي.. وها هي الآن قد أنقضى على ذلك الحدث ثلاث عشرة سنة.

- ما أغرب هذه الأحداث، وهذه المواقف! إنها مشاوير في دروب الحياة.. وهل مازال ذلك الكيس في حوزتك يا أبي؟ أَوْ هو الذي دفعته ثمناً للسانية التي تجاور سانيتنا «الضفة الذهبية».

- نعم!! مازالت في حوزتي.. ومازالت سليمة لم تمسّ.. وإنني أمين كما وصفني ذلك المغربي.

- إذن صرت في حلٍّ من صاحبها!! لاشك في أنه قد مات وهو في طريقه في ذهابه أو إيابه.. أفرحتنا كثيراً بهذا الخبر يا أبانا..الحمد لله.. سنصبح أهل ثروة.. سنشتري الكثير والمزيد

من الأرض، عندما نقتسم، وكل واحد منا يأخذ نصيبه من مزرعة أبينا.. كم أنت رجل وفيّ وأمين حقاً؟! ولكن أين هو ذلك الكيس؟ هل هو في صندوق أمي؟

- بل راقد في بطن الحقل.. في جرّة من الفخّار.. إنها مدفونة في أرضي القديمة، على مستوى أقل قليلاً من ذارع..
- أين مكانها تحديداً؟..
- لا يمكن معرفة موقعها إلا بحضوري، وسيكون ذلك خلال يومين أو ثلاثة.. حتى أحسّ بالتحسن إن شاء الله.
- أن شاء الله.. بورك فيك.. وزاد الله في أجرك وفي عمرك!! الله الله!!

مات لبيد الفلاح، وقبل أن يوفي ما وعد به أبنائه عن مكان الكنـز المدفون وترك أبناءه في حيرة من أمرهم وتحسّر، ما كادوا ينتهوا من مراسم وإجراءات الدفنّ وقبول العزاء.. حتى أخذوا مُعدّات الحفر والحرث، وطفقوا في شق الأرض وقلب التراب وحرث الحقل طولاً وعرضاً وعرضاً وطولاً.. لم يتركوا شبراً واحداً في المزرعة إلا وقلبوا ترابه وخبروا أعماقه بالحرث والحَفَر العميق.. عاودوا الكرة مرة أخرى، ومرة أخرى.. تحولت المزرعة إلى تراب مقلوب يتخلله الهواء وتحرقه أشعة الشمس.. انتزعت منه الأعشاب والجذور الضارة والطفيلية والحشرات.. من هذا الفعل اكتسب عناصر حية جديدة وطاقة متفاعلة وانتزعت منه الأملاح والحجارة. هذا التحول الكبير في حركة التراب لم يدركه الأبناء إلا بعد أن زرعت المزرعة من جديد، بعد سنتين من الحفر والقلب المتواصل، فكانت المحاصيل المتنوعة، وافرة مثقلة بالإنتاج إلى مستوى يسترعي تقدير الكميات، فغطّت كل فراغ، وملأت كل يد وأشبعت كل فمّ بالحاجات والمتطلبات..وإن الكنـز الحقيقي، أصبح ظاهراً فوق التراب، وصار يغطي المزرعة بكاملها، بدل ذلك الكنـز المزعوم، الذي يختبئ في جرّة من الفخار في بطن أرض المزرعة. لقد أدرك الابن الأكبر، ذلك المعنى والقصد البعيد.. اللذان كانا يرمي بهما الشيخ الفلاح إلى أبنائه قبل أن يدركه الموت. قال الابن الأكبر لأخواته، عندما رأى المحاصيل الوافرة، وفي ازدياد مضطرد وثروة زكية متواصلة: «يا إخوتي.. كان أبونا على حكمة رصينة، ودراية خبير مجرّب، ومرمى نظر بعيد، عندما أوحى إلينا بوجود ذلك الكنـز

فأوقع في نفوسنا وأفواهنا لعاب الطمع، والإحساس بالإتكالية والكسل ونـزعة الإهمال والتسيب، وربما يثير فينا نغائص الحسد ودوافع الكراهية وتنافس الحاقدين.. وينتقل حتماً إلى ما بعدنا.. بين أبنائنا.. وعند ذلك تتدخل النساء في الصغيرة والكبيرة في شؤوننا.. لكنه رحمه الله نَصَبَ لنا محوراً يقوُم على الحركة والسعي، ويعتمد على بذل الجهد. إنه تفكير سليم وتربية أصيلة تدفع للحركة والتفاعل المنسجم والتأمل المبدع، والمواصلة في متابعة خطوات الغاية واقتفاء مسار الهدف المنشود. هذا النصب هو الذي جعلنا لا نجزّئ أرض مزرعتنا، ونقتسمها قطعاً محدودة، محكوماً عليها بالضمور والتلاشي.. بل الآن يدفعنا الأمر إلى شراء المزيد.. نحن أيدي مترابطة، فكر متعاون وغاية ومنال.. حتى وصلنا إلى الكنز الحقيقي الذي يُشبع ولا يجوّع، يجمع ولا يفرّق، ويبني ولا يدّمر.. هو حصيلة نشاطنا وانتاجنا، ومن تصبب عرق اجسامنا.. هذه الخيرات المبعثرة التي نصيبها في هذه المواسم، هي نتيجة ومحصول القصد البعيد، الذي كان يراه لنا أبانا.. إذا ترابطنا وأخلصنا النية في العمل المتواصل، والقدرة على الأداء الجيد، وتحكمنا كلمة واحدة وحافظنا على مملكتنا، وتقدير الواجب واحترام ومحبة بعضنا.

من هذه المقاطع البارزة والمواقف السامية، تأتي اللقمة الساخنة اللذيذة والمباركة.. وإن الذي يأتي بسهولة يذهب بسهولة، ولا يترك إلا الأثر السيئ.. ولو بعد حين!!.»

فهرس

الموضوع **الصفحة**

كتابات بعيدان الحطب 5

ضياء النجوم 9

هنية 21

الوحدة 53

الضميـر المهجور 69

الوعد المـر 117

المحطة 149

الوعد القديم 161

الكنـز 173